الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

لعل موضوعا لم يشغل شعراء مصر طوال هذا العصر كما شغلهم الغزل، الذي يصور عاطفة الحب الإنسانية الخالدة، والذي طالما تغنى به الشعراء مصورين حبهم للمرأة وهيامهم بها، وما شعروا به من سعادة حين أقبلت عليهم ولو بعض الإقبال وما شعروا به من شقاء حين كانت تعرض عنهم ولو بعض الإعراض. أما حين كانت تقبل فكأنما تناولهم شراباً هنيئاً بل رحيقاً صافياً لا يدانيه رحيق، وأما حين كانت تعرض فكأنها تلقى عليهم شواظا من نار يلدغ قلوبهم وأفئدتهم، ويصور الشاعر كيف يتصل ذلك كله بقلبه وبنفسه وبأحاسيسه ومشاعره، يصور ما يجد في حبه من لذة أو ألم ومن نعيم أو جحيم. ولا يكاد يوجب محب إلا وهو يخشى القطعية والفراق إلى غير مآب، فإن حدث الفراق فإنه يشكو ويضرع ويستعطف. لقد حرم حتى من الإشارة واللمحة من بعيد، ولكن الأمل في اللقاء يظل يراوده مهما تجرع من الآلام واحتمل من ألوان العذاب، ويبديء ويعيد في تصوير عذابه وآلامه لعل صاحبته تعطف عليه وتعيد ما كان بينها وبينه من وصال. وحقاً قد تلقانا في تضاعيف ذلك صور من الحب الجسدي الذي تميله الغرائز، وهو خليق بالازدراء، إنما الذي يملؤنا إعجاباً هو الحب العذري

obeikandl.com

العفيف الطاهر الذي يشغف قلوب أصحابه ويملؤها بوجد ليس بعده وجد، وجد لا يخجلون منه ولا يستخزون، لأنه لا يتعلق بمأرب مادي، فحسبهم الوصال واللقاء، وهنئ لهم عذابهم بهذا الحب الذي ليس بعده عذاب، إنه حب قوى حار، حب نقي صاف، حب يمتلئ حناناً. وسواء استحال هذا الحب ناراً من اليأس أو نوراً من الأمل فإن تعقبه عند الشعراء المصريين وعرضه فيه كثير مما يلذ النفس ويمتعها، وخاصة ما نفذوا إليه من غزل وجداني صادق في وصف حبهم وما انطوت عليه قلوبهم من مشاعر الصبابة، مما سنراه واضحاً عند ابن النبيه والبهاء زهير.

ويخيل إلى الإنسان كأنما أوقد الحب جذوة من النار لا تنطفئ أبداً في قلوب الشعراء، فهم دائماً يصلونها ويصلون معها البعد والفراق، وحتى مع القرب يصلون عذاب الحب، دون إشفاق أو عطف أو رحمة، على نحو ما يقول ابن هانئ.(٦٢٣)

فَتكاتُ طَرْفِة أم سيوفُ أبيكِ ... وكئوسُ خمرٍ أم مَراشفُ فيكِ
أجِلادُ مُرْهَفةٍ وفَتْكُ محاجِرٍ ... ما أنتِ راحمةٌ ولا أهلوكِ
يا بِنْتَ ذي السَّيْفِ الطويلِ نِجادُهُ ... أكذا يجوز الحكمُ في ناديك
عَيْنَاكِ أم مَغْناكِ موعُدنا وفي ... وادي الكَرى ألقاكِ أم واديك
قد كان يدعوني خياثُةِ طارقًا ... حتى عانى بالقَنا داعِيكِ
منعوكِ من سِنَةِ الكَرى وسَرَوْا فلو ... عَثَروا بطيفٍ طارقٍ ظَنُّوكِ

وهو لا يدري كيف يتقي فتكات طرف صاحبته التي تشبه أتم الشبه فتكات سيف أبيها، وإنها جميعاً لتصيبه في الصميم دون أي رأفة، وإنه ليائس يأساً شديداً من رأفة

(٦٢٣) ديوان ابن هانئ (طبعة زاهد علي) ص٥٣١.

أبيها وأهلها، فلا يأمل في رؤية لها أو لقاء، ويتعلل بلقائها ورؤيتها في الكرى والأحلام، ويألم ألماً شديداً، فقد منعوا طيفها من الإلمام بعينه في الحلم، وإنه ليبيت خائفاً منهم حذراً، أن تسفر له عن وجهها الباسم حتى في النوم، فما أشقاه وما أشد عذابه، إذ لا يجني من حبه لها سوى الألم والحرمان واللوعة. ولم يكن تميم بن المعز الفاطمي أقل منه لوعة وأسى حين صور وداعه لصاحبته، وهي لا تقل عنه أسى والتياعاً، يقول:(٦٢٤)

ما زال في الحبِّ شوقٌ موجعٌ وآسَى ... مبرِّحٌ يَقْطَعُ الأَحشاءَ والكَبِدا
حتى رمى البَيْنُ بالتفريق أُلْفَتَنا ... وحَلَّ من وَصْلها ما كان قد عُقِدَا
فآهِ من لوعةٍ مشبوبةٍ وجَوًى ... في الصدر لم يُبْقِ لي صَبْرًا ولا جَلَدَا
قالتْ وعَبْرَتُها مخلوطةٌ بِدَم ... تَجْرِي وأنفاسُها مرفوعةٌ صُعُدَا
لا تطلبِ النطقَ منى بالسَّلام فما ... أَبْقَى فراقُك لي روحًا ولا جَسَدا

وهو يصور أساه في حبه وكيف يفتت منه الأحشاء والكبد، وإذا البين ينعب بالفراق، فيلتاع لوعة تستعر بين جوانحه، ويتهالك ويفقد الصبر والجلد، بينما هي تذرف الدمع مدراراً مرسلة أنفاساً حارة ملتهبة، وتتلطف له قائلة لا تطلب مني النطق بالسلام، فلم أعد أستطيع الكلام، وتشعر كأن الفراق يكلفها من الجهد فوق ما يطيق جسدها وروحها، بل لكأنما لم يعد لها جسد ولا روح. ويعود إلى تصوير لوعة هذا الفراق لمحبوباته في الديوان مراراً بمثل قوله:(٦٢٥)

قالتْ وقد نالها للبين أوجعُه ... والبينُ صعبٌ على الأحباب موقِعُهُ

---

(٦٢٤) ديوان تميم ص١٣١.

(٦٢٥) الديوان ص٢٦٠.

اجعلْ يديك على قلبي فقد ضَعُفَتْ قُواه عن حَمْل ما فيه وأضلعُه
كأنني يوم ولَّت – حسرةً وأسًى – غريقُ بَحْرٍ يرى الشاطئ ويُمْنَعُهُ

فقد ارتفع نبضها وعلت ضرباته، وتحسن كأنما لم يعد في قلبها فضل من قوة تستطيع به أن تحتمل صدمة الفراق المروعة، وتميم يبادلها نفس المشاعر ونفس الآلام والأوجاع، وإنه ليذوب حسرة وآسى لفراقها، ولا يستطيع أن ينقذها وينقذ نفسه من هذه المحنة، وكأنه غريق تلعب به الأمواج وهو يرى الشاطئ ولا يستطيع وصولاً إليه. وعلى الرغم من أنه كان أميراً وكان ابن الخليفة المعز تلقانا عنده مشاعر الحب الحقيقية التي ترتفع عن أدران الحس، ومن طريف قوله في بعض غزله:(٦٢٦)

قلتُ اسْمَحِي لي بتقبيلٍ أعيش به قالت: وأيُّ محبٍّ قَبَّل القمَرا

ومر بنا في ترجمة ظافر الحداد أن له غزلاً رقيقاً يطير عن الفم بخفة وأنشدنا له قطعتين، واشتهر بقصيدة له ذالية أو اختار أن تكون ذالية ليدل على قدرته في النظم على هذه القافية التي يظن أنها تستصعب على الشعراء، وهي قصيدة غزلية، تجري على هذا النمط:(٦٢٧)

لو كان بالصبر الجميل مَلاذُهُ ما سَحَّ وابلُ دمعه ورَذَاذُه
من كان يرغبُ في السلامة فليكن أبدًا من الحدَقِ المِراض عِياذُه
لا تخدعنَّك بالفتور فإنَّه نَظَرٌ يضرُّ بِقَلْبِك اسْتِلذاذُهُ
يا أيها الرَّشأ الذي مِنْ طَرْفِهِ سهمٌ إلى حَبَّ القلوب نفاذُه

(٦٢٦) الديوان ص١٥٢.

(٦٢٧) ابن خلكان ٢/ ٥٤٠ والنجوم الزاهرة ٥/ ٣٧٦.

obeikandl.com

دُرٌّ يلوح بَفْيك مَنْ نظَّامُهُ ... خمرٌ يجولُ عليه مَنْ نَبَّاذُه (٦٢٨)

وقناةُ ذاك القَدَّ كيف تقَّومتْ ... وسِنانُ ذاك اللَّحْظِ ما فولاذُهُ

رِفْقًا بجسمك لا يذوبُ وإنني ... أخشى بأن يَجْفُو عليه لاذُهُ (٦٢٩)

والقصيدة على هذه الشاكلة تسيل رقة وعذوبة، حتى مع قوافيها الذالية، وتملأ صوره النفس بهجة، فهذا الرشأ أو الظبي الجميل الغرير يرسل سهامه وهي سهام حقيقية تنفذ إلى حب القلوب وسويدائها، ويخال دراً ملء فمها ويتساءل من نظمه في هيئته البديعة، أما ما حوله من رضاب أو ريق فخمر حقيقية ويتساءل من النباذ الذي صنع هذه الخمر العجيبة، ويشتد به العجب وهو ينظر إلى قامة صاحبته واستوائها الرائع، ويتساءل أي فولاذ صلب اتخذ منه سنان لحظها المرهف القاطع النافذ إلى الأفئدة، وإن جسد صاحبته ليذوب رقة ما بعدها رقة ونعومة ما تماثلها نعومة، حتى ليظن كأن اللاذ أو الحرير الذي تلبسه ينبو عليه لشدة لطفه ورهافته. وله يتغزل موجهاً الخطاب إلى معاتبه في حبه وتهالكه فيه:(٦٣٠)

عتبَ ولكنني لم أع ... وأين ملامُكَ من مَسْمَعي

وما قدَر عَتْبِكَ حتى يزيل ... غراما تمكَّن من أضْلعي

ومادام لومُك إلا وأنْـ ... ـت تَقْدِرُ أنَّ جَناني معي

مضى كي يودَّع سُكَّانَهُ ... غداةَ الفِراق فلم يرجع

فؤاديَ في غير ما أنت فيهِ ... فخُذْ في ملامته أو دَع

---

(٦٢٨) النباذ: صانع النبيذ.

(٦٢٩) اللاذ: ثوب من حرير.

(٦٣٠) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٢/ ٦.

obeikandi.com

والقطعة تموج برقة الحس ولطفه إلى أبعد حدود الرقة واللطف اللـذين يـشتهر بهـما أهل القاهرة من قديم، وليس فيها لفظة غريبة بل كأنما تعمد أن يختار ألفاظها أقرب مـا تكون إلى لغة الحياة القاهرة اليومية. ولا نبعد إذا قلنا إنها تعد هي ونظيراتها عند ظـافرة مقدمة للغزل الوجداني الصافي الذي سنعرضه عند ابن النبيه ومعاصريـه. وهـو يقـول لصاحبه في القطعة بمنتهـى الرقـة والتلطـف كفـي عتابـاً فقـد سـلبت محبـوبتي عقـلي وسمعي، وملك حبها جناني، بل لقد مضى وراءهـا منـذ الفـراق ولم يـستمر في ولـه أو يكف عنه، وعادة المحبين أن يعنفوا بلائميهم في الحب، وظافر لا يعنف بـل يتلطـف في ود رقيق.

وربما كان من تتمة الرقة في غزل الشعراء المعـاصرين لظـافر أن نجـد ابـن قـادوس الدمياطي يتغزل بجارية سوداء، محاولاً بكل ما استطاع أن يرد عنها ما يظـن مـن قـبح السواد، يقول:(٦٣١)

وعاذلٍ مُحْتَفِلِ	مجتهدٍ في عذَلي
يلوني في ظَبْيةٍ	مخلوقةٍ من كُحُلِ
إن السَّوادَ علَّةٌ	من نورِ هذي المُقَلِ
والحَجَرُ الأسودُ لم	يُخْلَقْ لغير القُبَلِ
والقارُ – مذ كان – وعا	ءُ السَّلْسَبيلِ السَّلْسَلِ

فقد دافع عن تلك الجارية دفاعاً بديعاً. إذ جعلها مخلوقة من الكحل الذي تزدان بـه الحسان في عيونها، بل جعلها مخلوقة من سواد العيون الذي تبصر به مـن حولهـا النـور

(٦٣١) الخريدة ١/ ٢٣٢.

obeikandl.com

المنبثق في الكون، وإنه ليذكر الحجر الأسود وإكباب الحجاج على تقبيله، كما يذكر القار أو القطران واتخاذه في دعم الجدر لآنية الماء العذب. وهو ظرف بالغ من ابن قادوس، ظرف نعرفه دائماً للشعراء المصريين. وكانوا يسندون هذا الظرف بكثير من الصور الخيالية المبتكرة، وقد يبالغون في وصف هيامهم بالغة بعيدة على نحو ما نقرأ للمهذب بن الزبير:(٦٣٢)

إذا أحرقتْ في القلب موضعَ سُكناها ... فمن ذا الذي من بعدُ يُكرم مَثْواها
وما الدمعُ يوم البَيْن إلا لآلئٌ ... على الرَّسْم في رسم الديارِ نثرناها
وما أطلعَ الزَّهْرَ الربيعُ وإنما ... رأى الدَّمْعُ أجيادَ الغُصونِ فحلاَّها
ولما وقفنا للوداع وترجمتْ ... لعينيَ عما في الضمائر عَيْناها
بدتْ صورةً في هيكلٍ فلو انَّنا ... ندينُ بأديان النَّصَارى عبدناها

وهو يشكو من النار التي دلعتها صاحبته في فؤاده، ويقول لها إنه مسكنك فإذا لم تبق عليه فأين يكون مثواك، استعطاف واسترحام، فقلبه ملئ بها فتوناً بل ناراً موقدة، وقد أزمعت البين والفراق وهو ينثر دموعه نثراً. ويمتد به الخيال فيظن أن الندى العالق بغصون الأشجار دموعه، ويعلن سحرها له وشغفه بها، وكيف يعبث جمالها بفؤاده، حتى لتبدو له وكأنها صورة في هيكل تقدم لها القرابين والتراتيل، ويوشك أن يعبدها كما يعبد النصارى المسيح. ونحس عند المهذب نقلة لشعر الغزل المصري، إذ يستحيل وجداً وصبابة ورقة وخفة من مثل قوله:(٦٣٤)

---

(٦٣٢) معجم الأدباء ٩/ ٦١.

(٦٣٣) على الرسم: على العادة.

(٦٣٤) الخريدة ١/ ٢١٦.

هُمْ نُصْب عيني أنْجَدُوا أو غاروا ... ومُنَي فؤادي انصفوا أو جاروا (٦٣٥)

فارقتهم وكأنهم في ناظري ... مما تمثَّلهم لِيَ الأفكار

تركوا المنازلَ والديار فهالهم ... إلا القلوبَ منازلٌ وديارُ

واستوطنوا البِيدَ القِفارَ فأصبحتْ ... منهم ديارُ الإنسِ وهْيَ قِفار

فلئن غَدتْ مصرٌ فلاةً بعدهم ... فلهم بأجواز الفَلا أمصار (٦٣٦)

أو جاوروا نجدًا فلي من بعدهم ... جاران: فيض الدمع والتَّذكار

والدهر ليلٌ مذ تناءت دارهم ... عنى وهل بعد الهار نهارُ

إنه لن ينساهم أبداً مهما أنجدوا أو غاروا ومهما شرقوا أو غربوا، ومهما أنصفوه أو ظلموه، لقد فارقوه وصورهم مائلة في خياله لا تبرحه، وحقاً تركوا المنازل والديار، ولكنهم تركوا وراءهم منزلاً عظيماً، لا تزايله صورهم، إنه قلبه الملتاع المطوي على حبهم. وينظر إلى الديار والمنازل حوله بمصر فيظنها فلوات ومفازات، فقد غادروها قفراً يبايا خراباً إلى ديار كانت خالية موحشة فأصبحت بهم أمصاراً، وليس من جار له في قفره الخرب إلا جاران: تذكارهم ودموعه المنهلة التي لا ترقأ أبدا، وقد أظلمت الدنيا في عينيه. حتى غدا النهار مظلما داجيا، فقد أخذوا معهم كل شيء حتى النهار وضياءه. وله أبيات غزلية من مثل قوله:(٦٣٧)

لم يَهُنْ قَطُّ علينا بُعْدُكم ... مثلما هانَ عليكم بُعْدُنَا

لم تبالوا إذ رحلتهم غُدْوَةً ... أيَّ شيء صَنَعَ الدهرُ بنا

---

(٦٣٥) أنجدوا: دخلوا نجدا. غاروا: دخلوا الغور أي تهامة.

(٦٣٦) أجواز: جمع جوز:وسط.

(٦٣٧) الخريدة ١/ ٢١٩.

وقوله:(٦٣٨)

أحبابَنا ما بالُكم فينا من الأَعْداء أَعْدَى
وحياة وُدِّكمُ وتُرْ بـة وصلكم ما خنتُ عَهْدَا

والرقة واضحة في الأبيات، وواضح في البيت الأخير الظرف المصري، فالوصل مات وقبر والمهذب يحلف – كما يحلف المصريين حتى اليوم بأعزائهم وتربهم أو قبورهم – بتربة الوصل العزيز وما سكت عليه من الدموع الحارة.

ويلقانا في أوائل أيام صلاح الدين الأيوبي على بن الدباغ الإسكندري، ومن بديع ماله في الغزل أبياته المشهورة:(٦٣٩)

يا رب إن قَدَّرْتَهُ لِمُقَبَّلِ غيري فلِلْمسواك أو للأكْؤُسِ
ولئن قضيتَ لنا بصحبة ثالثٍ يا رَبَّ فلْيَكُ شمعةً في المجلسِ
وإذا قضيت لنا بعين مراقبٍ في السرَّ فَلْتَكُ من عيون النَّرْجِسِ

وابن الدباغ يصور في أبياته أنانية المحب وكأنه يحب نفسه كما يحب محبوبته، بل هو يرى فيها ظلال نفسه، ولذلك يتمنى لها ما يتمنى من نفسه من أن لا يقبل شفتيها سوى المسواك للوضوء والأكؤس أو الأكواب للشراب، وأن لا يصحبها ثالث إلا أن يكون شمعة تضيء المجلس، وإذا كان لابد من عين لرقيب فلتكن من عيون النرجس.

وكان القاضي الفاضل وزير صلاح الدين يجنح إلى استخدام المحسنات البديعية وإلى صور مختلفة من التكلف، وكان قد نشأ بمصر وتنفس في حياتها الأدبية ولعله

---

(٦٣٨) الخريدة ١/ ٢١٤.

(٦٣٩) الخريدة ٢/ ١٣٣ وخزانة الأدب للحموي (طبع مطبعة بولاق) ص٢٤٦.

obeikandl.com

لذلك يؤثر من حين إلى حين السهولة في غزله وأن يَمْتح من المعين المصري العذب كقوله:(٦٤٠)

يا طَرْفُ مالك ساهدًا في راقدٍ ... يا قلبُ مالك راغبًا في زاهِدِ
من يشتري عمري الرخيصَ جميعَهُ ... من وَصْلك الغالي بيوم واحدِ
عاتبتُه فتورَّدت وَجَناتُهُ ... والقلبُ صخرٌ لا يلينُ لقاصِدِ

والقطعة مكتظة بالطباق ولكن لا نكاد نحسه، لأن الألفاظ متداخلة متواصلة، وهو يصور فيها انصراف المحبوبة عنه، بينما هو واله بها واجد، وعاتبها فتضرجت وجناتها بالخجل، غير أنها ظلت منصرفة عنه لا تلين له ولا تعطف عليه، ومن غزله البديع قوله:(٦٤١)

تُرَى لحنيني أو حَنينِ الحمائم ... جرتْ – فحكتْ دَمْعي – دموعُ الغمائم
وهل من ضلوع أو ربوع ترحَّلوا ... فكلٌّ أراها دراساتِ المعالم
لقد ضعفتْ ريح الصَّبا فوصلتُها ... فمنِّيَ لامنها هبوبُ السَّمائم

وهو ترداد طريف، فهو لا يدري أيحاكي السحاب في قطرة المنهل حنينه الملتاع أو هو يلبي الحمائم وما ترسل من حنين شجي، وهو لا يدري أيضاً أي منازل رحل عنها أحبابه أهي الربوع أو الضلوع. فكلاهما أطلال دراسة، ويبلغ به الخيال أن يظن أنفاسه الحارة امتزجت بنسيم الصبا، فأحالته سمائم لافحة.

ونلتقي بخدن القاضي الفاضل ورفيقه: ابن سناء الملك أكبر شعراء مصر في العصر، وشعره يموج بوجد لا حدود له ولا ضفاف، وجد يشقى به تارة وينعم به تارة، إذ

---

(٦٤٠) الخزانة ص٢٤٧.

(٦٤١) الخزانة ص٢٤٦.

obeikandl.com

يذوق لذة الحب المؤلمة والحلوة، بل إنه ليلقى ذلك كله بحنان لا يماثله حنان، يقول:(٦٤٢)

لا أجازي حبيبَ قلبي بجُرْمهُ ... أنا أحْنَي عليه من قَلْب أمَّه

ضَنَّ عني بريقِه فتحيَّلْـ ... ـتُ إلى أن سَرَقْته عند لَثْمِه

وإلى اليوم من ثلاثين يوما ... لم تَزُلْ من فَمِي حلاوةُ طَعْمه

إن قلبي لصدره وقادي ... ملكُ أجفانه وروحي لجسمه

يَكْسِرُ الجَفْنَ بالفتورِ ومالي ... عملٌ عند كَسْرِهِ غيُر ضَمَّه

والأبيات تموج بالعذوبة والظرف، فكله حنان لصاحبته، حتى ليفوق حنوه عليها حنو الأم. ويشعر كأن كل شيء فيه لها: قلبه وروحه، وملك أجفانها رقاده ومهده. وتصنع في البيت الأخير لاستخدام مصطلحي الكسر والضم عند النحاة، ومع ذلك أوقعها في موضعها، فلا نحس فيهما تصنعاً ولا ما يشبه التصنع، ومن قوله:(٦٤٣)

نَعِمَ المشوقُ وأنعم المعشوقُ ... فالعيشُ كالخَصْرِ الرقيقِ رقيقُ

خَصْرٌ أديُر عليه مِعْصمَ قُبْلَةٍ ... فكأن تقبيلي له تَعْنِيقُ

ونعم لقد طرق الحبيب وماله ... إلا خدودُ العاشقين طريقُ

فرشُوا الخدودَ طريقه فكأنما ... زفراتهم لقدومه تطريقُ(٦٤٤)

وافَي وصُبْحُ جَبينه متنفِّسٌ ... وأتى وجِيدُ رقيبِهِ مخنوقُ

---

(٦٤٢) الديوان ص٦٦٤.

(٦٤٣) الديوان ص٥٠٢.

(٦٤٤) التطريق: تسهيل الطريق للمارة.

obeikandl.com

وهي لحظة من لحظات الحب الحلوة صورها ابن سناء الملك تصويراً بديعاً، فقد سعد العاشق الولهان بما أنعم عليه المعشوق من لقاء، وأحس بابتهاج ما بعده ابتهاج، فقد زارته المحبوبة الفاتنة التي شغفت قلوب كثيرين، وإنهم ليفرشون طريقها بخدودهم لتطأ عليها، مرسلين زفراتهم، وكأنما يمهدون بها الطريق لها، وقد وافت بجبينها المشرق إشراق الصباح، وغص الرقيب بريقه حتى كأنه مخنوق. ومن طرائف غزله قوله:(٦٤٥)

سَعِدْتُ ببدرٍ خَدُّهُ بُرْجُ عَقْرَبٍ ... فكذَّب عندي قولَ كلِّ منجَّم
وأقسمُ ما وجهُ الصباح إذا بدا ... بأوضح مني حُجَّةً عند لومي
ولا سيَّما لما مررتُ بمنزلٍ ... كفضلةِ صَبْرٍ في فؤادٍ متَّيم
وما بانَ لي إلا بعودِ أراكةٍ ... تعلّق في أطرافه ضوءُ مَبْسِم (٦٤٦)
وقفتُ به أعتاضُ عن لَثْم مبسم ... شهيَّ لقلبي لَثْمَ آثارِ مَنْسِم (٦٤٧)
بكيتُ بكلتَيْ مُقْلتيَّ كأنني ... متمَّمُ ما قد فات عَيْنَيْ مُتمَّم

وهو يقول إنه سعد برؤية هذا البدر وما سال على خده من عقرب الشعرب، مما جعله يكذب قول المنجمين أن برج العقرب في السماء إذ رآه على خد محبوبته الفاتنة. وإن فتنها وما تدلع قلبه لأنصع برهان له عند لائميه، أنصع من الصباح في وضوحه وضيائه. وقد مر بمنزلها الذي لات يكد يبين، كما لا يكاد يبين الصبر في فؤاد العاشق الولهان، وبان له بفضل عود أراك كانت تستاك به محبوبته قبل الوضوء، إذ تعلق بأطرافه

---

(٦٤٥) الديوان ص٦٩٨.

(٦٤٦) مبسم: ثغر.

(٦٤٧) المنسم: طرف خف البعير ويريد راحلة الجيبة.

ضوء من مبسمها، واهتدى إلهيا وإلى منزلها على لألائه فوقف مبهوتا مشدوها وأقبل يقبل آثار منسمها أو طريقها باكياً بدموع غزار، باكياً بمقلتيه وكأنه يتمم بكاء متمَّم بن نويرة على أخيه مالك وقد اشتهر بكثرة بكائه عليه، وكان أعور فما زال يبكيه حتى دمعت عينيه العوراء. وعلى هذا النحو لا يزال ابن سناء الملك يتقلب بين لحظات حب مؤلمة مبكية وأخرى مفرحة مبهجة. وكان يذوب لطفاً ورقة مما جعله يتغزل – كما أشرنا في ترجمته، ببعض من فقدن بصرهن، وهو يحتال في غزله بهن على إيراد ألوان من حسن التعليل ترفع عنهن هذا الضيم الذي نزل بهن، من مثل قوله:(٦٤٨)

فَتَنَتْني مكفوفةٌ ناظراها ... كتبا لي من الجِراح أمانا
فَهْي لم تَسْلُل الفُتورَ حُسامًا ... لا ولم تحمل اللَّحاظَ سِنانا (٦٤٩)
وَهْيَ بِكْرَ العَيْنَين مُحْصَنَةُ الأجْـ ... ـفان ما افتضَّ مِيلُها (٦٥٠) الأجفانا
قَصَرتْ عشقَها عليَّ فلم تعـ ... ـشَقْ فلانًا إذ لم تُعاين فلانا
لا ولم تبصر الرجال فتختا ... ر على مُلْتحيهم المُرْدانا
عميتْ من هَوايَ وارتحلَ الإنسـ ... ـانُ من عَيْنها وأخلى المكانا
علمتْ غَيْرتي عليها فخافتْ ... أن تسمَّى غيري لها إنسانا

وهو يعلن إلهيا فتنته بحسنها، وهي فتنة ممزوجة بغير قليل من الرضا والغبطة، إذ أمن عندها أن تصمي سهام عينيها قلبه، أو يصحبه حسام الفتور وسنان اللحاظ، ويصفها ببكارة العينين وطهارة الأجفان، إنها عذراء البصر، لم يمس ميل الكحل

---

(٦٤٨) الديوان ص٨٤٦.

(٦٤٩) اللحاظ: مؤخر العين مما يلي الصدغ.

(٦٥٠) الميل: المكحل أو المرود وهو ما يوضع به الكحل في العين.

عينيها، وإنها لتفرده بالحب إذ لم تر ولم تبصر سواه، فهو دنياها غير مفكرة في شيب وشبان، إذ لا تعرف الفرق بين أصحاب اللحى والمردان. وتبلغ به الرحمة والإشفاق والعطف عليها أن يقول إنها فقدت بصرها بسبب حبه، وبذلك خلا مكان إنسان العين منها، وكأنما عرفت غيرته عليها حتى من إنسان عينها، فنحته عنها، حتى لا يكون لها إنسان سواه، وكل ذلك لطف من ابن سناء الملك ورقة ورحمة وعطف وحنان ما بعده حنان. وهو بحق يعد في الذروة من شعراء العرب النابهين الذين يمتازون بدقة الحس ورهافة الشعور وروعة المعاني والتصاوير.

ويتفجر هذا الغزل الوجداني البديع على كل لسان بعد ابن سناء الملك، وكان من أهم الأسباب في ازدهاره الشعر الصوفي الذي ذاع وشاع منذ زمن الدولة الأيوبية، فإن الصوفية من أمثال ابن الكيزاني وابن الفارض أذاعوا فيه وجدا ملتاعا وكان لذلك أصداؤه الواسعة في غزل الشعراء، فانفكوا من أصداف البديع ومن الأخيلة الجامدة المتحجرة، وأخذوا يصورون حبهم وما يذوقون فيه من الوجد والصبابة وما يثير في قلوبهم من المشاعر والعواطف وما يصطلون فيه من العذاب والآلام: آلام الفراق وعذاب الإعراض: من ذلك قول الحسن بن شاور في بعض غزله:(٦٥١)

قلَّدتُ يوم البين جِيد مودَّعي ... دُرَرًا نظمتُ عقودَها من أدمعي
وحدا بهم حادي المطيَّ فلم أجد ... قلبي ولا جَلَدِي ولا صبري معي
يا نفسُ قد فارقتِ يوم فراقهم ... طيبَ الحياةِ ففي البَقا لا تطمعي

(٦٥١) فوات الوفيات ١/ ٢٣٦.

هيهات يرجعُ شَمْلُنا بالأجْرَع ... ويعود أحبابي الأُلّي كانوا معي [٦٥٢]

بحياتكم جودوا عليّ تكرُّمًا ... فعسى خَيالكمُ يلمُّ بمَضْجَعِي

فلقد عدمتُ الصبرَ يوم فراقكم ... وتضرَّمتْ نارُ الأسى في أضْلُعي

يا نازحين فهل لكم من عودةٍ ... نزحَ التفرُّق ما بقىْ من مَدْمعي

لو لم تعودوا للديار وترجعوا ... لهلكت من شوقي وفَرْط توجُّعي

وابن شاور في أول الأبيات يبكي يوم البين والفراق شاعراً بأنه يعجز عن احتمال هذه المحنة التي خانه فيها صبره وتجلده، بل التي توشك أن تقضي عليه، لقد تفرق شملهم، ولم يعد هناك أمل في لقاء بالأجرع: لقاء أحبابه ومهوى فؤاده. ويستحلفهم وقد حرموه طلعة وجوههم في اليقظة أن لا يحرموه طيفهم في المنام، لعله يخفف من نار الحب المضطرمة في صدره. ويتمنى عودة لهم أو رجعة ترد إليه روحه وترد عنه أوجاعه من الحب الملتهب وأوصابه.

ونلتقي بتقي الدين[٦٥٣] السروجي المولود سنة ٦٢٧ والمتوفى بالقاهرة سنة ٦٩٣ ويقول عنه أبو حيان: كان مع زهده وعفته مغرماً بحب الجمال وكان يغني بشعره الغرامي المغنون لرقة وانسجامه وعذوبة ألفاظه، ومن غزله:

أَنْعِمْ بوصلك لي فهذا وَقْتُهُ ... يكفي من الهجرانِ ما قد ذُقْتُهُ

يا من شغلتُ بحَّبه عن غيره ... وسلوتُ كلَّ الناس حين عشقته

بالله إن سألوك عني قل لهم ... عَبْدِي ومِلْكُ يَدي وما أعتقتُه

---

(٦٥٢) الأجرع: الأرض ذات الحزونة المشاكلة للرمل.

(٦٥٣) انظر في ترجمة السروجي وشعره فوات الوفيات ١/ ٤٦٦ وخزانة الأدب للحموي (طبع بولاق) ص٢٤٥.

obeikandl.com

أو قيل مشتاقٌ إليك فقل لهم ... أدري بذا وأنا الذي شَّوقْتُه
يا حُسْنَ طيفٍ من خيالك زارني ... من عُظْم وَجْدِي فيه ما حَقَّقْتُهُ
فمضى وفي قلبي عليه حسرةٌ ... لو كان يمكنني الرُّقادُ لحقته

وهو يتضرع لمحبوبه أن ينعم عليه بالوصل بعد طول الهجران والعذاب في حبه وانشغاله الدائب بعشقه، ويقول متذللاً له إنه عبده وملك يده ولن ترد إليه حريته، ويشكو لواعج الشوق، ويأسي لنفسه إذ رأى طيفه في المنام ولم يكد يحققه أو يتحقق منه حتى فر النوم من عينه، وهو لا يتمنى لقاء كعادة المحبين، ليأسه منه، وإنما يتمنى لو عادت له رؤيته في منامه، أو لو طال حلمه وطال رقاده قليلاً حتى يشفي منه غلة حبه. ويعلق ابن حجة الحموي في خزانته على هذه الأبيات بقوله: "ما نفثات السحر إذا صدقت عزائمها بأوصل إلى القول من هذه النفثات ولا لسلاف ثغر الحبائب عذوبة هذه الرشفات". ومن غزله:

قصَد الحِمَى وأتاه يَجْهد في السُّرَى ... حتى بدتْ أعلامُه وقبابُهُ
ورأى لليلى العامرَّيةِ منزلا ... بالجود يُعْرَف والنَّدَى أصحابُهُ
قد أشْرعتْ بِيضُ الصَّوارِم والقَنا ... من حوله فهو المنيع حجابُهُ
وعلى حِماه جلالةٌ من أهلِهِ ... فلذلك طارقةُ العيون تهابُهُ
كم قُلّبَتْ فيه القلوبُ على الثَّرى ... شوقاً إليه وقبُّلَتْ أعتابُه

وهو يرمز لصاحبته بليلى العامرية وكأنه مجنونها وعاشقها قيس الذي ملأ البيد بأغاني حبه، ويقول إنه ما زال يدأب في السرى أو السير الليالي المتصلة حتى بدت أعلام حبها وقبابه أو خيامه، ويا للهول لقد وجد من دون رؤيتها السيوف والرماح مشرعة وشعر بجلال وهيبة لا يماثلها هيبة وجلال، وهناك رأى كثيرة من العشاق يضمون

obeikandl.com

الثرى إلى صدورهم مقبلين الأعتاب آملين أملاً يائساً في أن يرفع الحجاب. وكان يعاصر السروجي فخر الدين بن لقمان كاتب بيبرس وقلاوون، وله غزليات رقيقة مثل قوله:(٦٥٤)

كُنْ كيف شئتَ فإنني بك مغرمُ ... راضٍ بما فعل الهوى المتحكِّمُ
ولئن كتمتُ عن الوشاة صَبابتي ... بك فالجوانحُ بالهوى تتكلَّم
أشتاقُ من أَهْوَى وأعلم أنني ... أشتاق مَنْ هو في الفؤاد مخَيَّم
يا مَنْ يصدُّ عن المحب تدلُّلاً ... وإذا بكى وجدًا غدا بتبسَّمُ
أسكنتُك القلبَ الذي أحرقته ... فحذارِ من نارٍ به تتضرَّم

وهو راض من صاحبته بكل ما تصنع من إقبال وإعراض، وإنه ليخفي حبه عن الوشاة بل يكتمه بينما جوانحه تنطق به وتعلنه، ويعجب أن يشتاق صاحبته ويود لقاءها، بينما هي مخيمة في فؤاده لا تبرحه. وإنها لتمعن في التدلل، وحتى إن بكى وجدا سرعان ما تبتسم. ويحذرها من هذا الدلال وما يطوي فيه من اللعب. فقد أسكنها قلبه الذي أحرقته، ولا تزال نار الحب فيه مضطرمة مندلعة. ولابن نباتة غزل وجداني كثير من مثل قوله:(٦٥٥)

أهلاً بطيفٍ على الجَرْعاء مُخْتَلَسِ ... والفجرُ في سَحَرٍ كالثغر في لَعَس (٦٥٦)
والنجمُ في الأفق الغربي مُنحدِرٌ ... كشُعْلةٍ سقطتْ من كَفَّ مقْتَبِس
يا حبَّذا زمنُ الجَرْعاءِ من زمنٍ ... كلُّ الليالي فيه ليلةُ العُرُس

---

(٦٥٤) المنهل الصافي لابن تغري بردي (طبع دار الكتب المصرية) ١/ ١١٩.

(٦٥٥) النجوم الزاهرة ١١/ ٩٦.

(٦٥٦) الجرعاء: الأجرع أو الحزن. اللمس: سواد الشعلة.

وحبَّذَا العيشُ مَعْ هيفاءَ لو برزتْ ... للبدر لم يَزْهُ أو للغُصْنِ لم يَمِسِ
محروسةٍ بشعاع البِيض ملتمعًا ... ونورُ ذاك المحَّيا آيةُ الحَرسِ
يَسْعَى وَرَا لَحْظها قلبي ومن عجبٍ ... سَعْيَ الطَّريدةِ في آثار مفترسِ
ليت العذولَ على مَرْأَى محاسِنها ... لو كان ثَنَّي عمى عَيْنيه بالخَرَسِ

وهو يصر فرحته بالطيف الذي رآه في حلمه اختلاسا لأواخر الليل والفجر يبتلج في الآفاق المظلمة تبلج الثغر في لعس الشفاه، والنجم يسقط في الأفق الغربي منحدراً سقوط شعلة من كف مقتبس. وتعاوده ذكرى ليالي الجرعاء المفرحة فرح ليالي العرس، وهو يعيش رانياً إلى حبيبته التي لو رآها البدر لغض من زهوه ولو رآها الغصن لغض من ميسانه وخيلائه. ويقول إنها ممنَّعة محروسة بسيوف باترة، وآية حراستها هذا النور الذي يشعه وجهها في الآفاق، ويعجب أن يسعى قلبه وراء لحظها سعي طريدة الصيد وراء مفترسها، ويقول إن ضياءها أحال عيني العذول عشواءين، فهو لا يبصرها، ويتمنى لو ثَّنى ذلك بخرسه وانعقاد لسانه، فلا يتحدث عنها أي حديث من قريب أو من بعيد.

وممن كانوا يكثرون من الغزل النوّاجي(٦٥٧) شمس الدين محمد بن حسن صاحب كتاب حلبة الكميت في الخمر والندماء وآدابهم، ويعد أكبر شعراء القرن التاسع الهجري، توفي سنة ٨٥٩ للهجرة، ومن غزله قوله:

خليليَّ هذا رَبْعُ عَّزة فاسْعَيا ... إليه وإن سالتْ به أدمُعي طوفانْ

(٦٥٧) انظر في النواجي وشعره الضوء اللامع للسخاوي ٧/ ٢٢٩ والنجوم الزاهرة ١٦/ ١٧٧ والبدر الطالع للشوكاني ١/ ١٥٦ وصفحات لم تنشر من بدائع الزهور (طبع دار المعارف) ص٢٧. وبدار الكتب المصرية مخطوطة من ديوانه. ومن كتبه "عقود اللآل في الموشحات والأزجال".

obeikandi.com

فجَفنْي جفا طيبَ المنام وجَفْنُها جفاني، فيالله من شَركِ الأجْفانْ

ونمضي في قراءة مثل هذا الغزل الوجداني الملتاع حتى إذا أظل لواء العثمانيين البلاد أخذ يفيض معينه في القلوب والنفوس وخاصة عند نور الدين علي العسيلي، وسنخصه بكلمة، ومثله خَرَّيجه وتلميذه يحيي(٦٥٨) الأصيلي، الذي يقول في بعض غزله:

بدا بوجهٍ جميلِ الوَصْف والشَّانِ يقول: سبحان من بالحسن وَشَّاني(٦٥٩)

كأنه روضةٌ غَنَّاءُ مزهرةٌ من دمع عاشقها تُسْقَى بغُدْرانِ

أشبهتُ في حبَّه وُرْقَ الحِمَى فغدا كلٌّ يبثُّ الجوى شَجْوًا على البانِ

فالله جل شأنه زين وجهها بالجمال حتى كأنها روضة، أليس يشبه الشعراء الثغر بالأقحوان، والخد بالورد والشقيق والعين بالنرجس، لذلك جعل وجهها كأنه روضة تسقى من دموع العشاق بغدران، ومضى يستكمل خياله فورق الحمى وحمامه يبث جواه شجوا على أغصان البان وهو يبثه على من قامتها تحاكي قامة البان. وتخرج على يد الأصيلي يوسف(٦٦٠) الغربي، وغزله كغزل أستاذه يسيل عذوبة من مثل قوله:

جعلوا الصباحَ مباسمًا ثم الظلا م ضَفائرًا ثم الرماحَ قُدودا

والوردَ خدًّا والغصونَ معاطفاً والبَدْر فَرْقًا والغزالةَ جِيدا

ورأتْ غصونُ البانِ أن قُدودهم فاقتْ فأضحتْ رُكَّعا وسجودا

---

(٦٥٨) راجع في يحيي الأصيل ريحانة الألبا ٢/ ٣٨ وملافة العصر لابن معصوم ص٤١٥ وخلاصة الأثر ٤/ ٤٨٠.

(٦٥٩) وشاني: زيتي.

(٦٦٠) راجع في يوسف المغربي ريحانة الألبا ٢/ ٣٢ وما بعدها وخلاصة الأثر ٤/ ٥١٠.

وتشبيه قدود الحسان بالرماح وغصون البان لضمورهم واستقامتها مشهور. وكأن المغربي والأصيلي والعسيلي يكونون في الغزل زمن العثمانيين مدرسة متماثلة في رشاقة الموسيقى وجمال الصياغة، وإن كان التكلف قد أخذ يعم في الغزل بعدهم وفي أيامهم. ولعبد الله الإدكاوي:

عقيقُ دمعي غدَا في الجِزْع كالدَّيم ... مُذْ بانَ سكانُ بانِ الحيَّ والعَلَم
وانهلَّ مُنْسجما من نار مضطرم ... ملآنَ وجدًا إلى خِشْفٍ بذي سَلَم
ظَبْي نفورٍ أنيسٍ ناعسٍ يقظٍ ... بالليل متَّشِح بالصبح مُلْتَثِم
مُهَفْهَفٍ ما بدتْ للغصنِ قامتُه ... إلا انْثَنى ذابلَ الأوراق ذا ضَرَم
وإن تبسَّم ما برقٌ بكاظمةٍ ... له وَميضٌ يجلِّي داجيَ الظُّلَم
ما فيه عَيْبٌ سوى تفتير مُقْلتِهِ ... وفَتْكها في فؤاد المُدْنَف السَّقِم

والعقيق: خرز أحمر، يقول الإدكاوي إنه ما زال يبكي حتى اختلط دمعه بالدم القاني وتناثر في الجزع أو جانب الوادي وكأنه ديم مسكوبة مذ بعد سكان الوادي والعلم أو الجبل وما بهما من شجر البان، وإنه ليبكي وأحشاؤه تضطرم بوجد مبرح إلى خشف أو ظبي من ظباء ذي سلم بنجد، وإنه لظبي نفور أنيس ناعس يتشح بوشاح أسود من شعره، ويلتثم بلثام منير من وجهه. وإن لقيه راضياً غضب وازور عنه وإن قرب منه نأى بجانبه، وحتى إن ذل له تاه عليه صلفا وشما أو تكبرا. وهو مهفهف ضامر دقيق الخصر، وما يرى الغصن قامته حتى تذبل أوراقه خجلا ويلتاع لوعة ملتهبة. وإن ابتسامته لتضيء الكون من حوله ضياء لعله أكثر من ضياء البرق إلماعا في الليالي الداجية. ويجعل عيبه الوحيد فتور عينيه الذي طالما تغني الشعراء به وبما يرسل من سهامه التي تصمي أفئدة المرضى بالحب، وتفتك بهم فتكا. وواضح ما يداخل هذا

obeikandl.com

التصوير من مبالغة وتكلف شديد. وحرى بنا أن نقف عند نفر من شعراء الغزل الوجداني الذين صوروا ما اختلج في خبايا قلوبهم وصدورهم من وجد مبرح ولوعات ممضة.

ابن[٦٦١] النبيه

هو الكمال أبو الحسن علي بن محمد بن يوسف المعروف باسم ابن النبيه، ولد بمصر حوالي سنة ٥٦٠ واختلف إلى كتاب حفظ فيه القرآن الكريم وبعض الأشعار على عادة لداته، ثم أخذ يختلف إلى حلقات العلماء والأدباء، وتفتحت ملكته الشعرية، ورنا إلى الالتحاق بدواوين صلاح الدين ووزيره الكاتب البليغ القاضي الفاضل راعي الأدباء في عصره، وفي ديوانه مدائح مختلفة له، وليضع أمامه الدليل الواضح على قدرته البيانية ضمن جميع أبيات إحدى مدائحه له كلمات من سورة المزمل مقتبساً في قوافيه بقوله في مطلعها:

قمتُ ليلَ الصُّدودِ إلا قليلا ... ثم رتَّلتُ ذكرَكم ترتيلاً
ووصلتُ السُّهادَ أقبحَ وَصْلٍ ... وهجرتُ الرقادَ هجرًا جميلا

ويبدو أن القاضي الفاضل لم يعجب بالقصيدة، فلم يعين في دواوين صلاح الدين وأيضاً لم يعين في دواوين ابنه العزيز، حتى إذا ولى شئون مصر السلطان العادل سنة

---

(٦٦١) انظر في ابن النبيه وترجمته وشعره ابن خلكان ٥/ ٣٣٦ وفوات الوفيات ٢/ ١٤٣ والنجوم الزاهرة ٦/ ٢٤٣ وحسن المحاضرة ١/ ٥٦٦ وشذرات الذهب ٥/ ٨٥ ومقدمة عبد الله فكري للديوان إذ جمعه ورتبه وحققه تحقيقاً بديعاً وطبع طبع حجر في القرن الماضي. وطبع الديوان حديثاً بتحقيق عمر محمد الأسعد (نشر دار الفكر) بيروت.

obeikandl.com

٥٩٦ رأيناه يقدم مدائحه إليه وإلى وزيره الصفي بن شكر. ويبدو أن صداقة انعقدت حينئذ بينه وبين الأشرف موسى بن السلطان العادل، حتى إذا ولاه أبوه على الرها سنة ٥٩٨ اصطحبه معه واتخذه كاتبه. وأخذت إمارته أو مملكته تتسع، فشملت خلاط وميافارقين ونصيبين ومعظم بلاد الجزيرة. وكان ينتقل الأشرف موسى في بلدان إمارته وكانت أكثر إقامته بالرقة لموقعها على الفرات وابن النبيه معه يلازمه، ولا يترك مناسبة من انتصار في حرب أو عيد إلا ويقدم له مدائحه. ومن أهم هذه المناسبات – كما مر بنا في غير هذا الموضع – قدومه إلى مصر بجيش جرار ساعد به سلطانها أخاه الكامل في سحق الصليبيين بموقعة دمياط ورد فلولهم إلى البحر المتوسط وما وراءه، وقد تغنى ابن النبيه بذلك طويلاً بمثل قوله:

دمياطُ طُورٌ ونارُ الحرب موقَدةٌ ... وأنت موسى وهذا اليومُ ميقاتُ
أثلجتَ صدرَ رسول الله وانكشَفَتْ ... عن سَرْحةِ الدِّينِ والدنيا غاماتُ
الله أكرمُ أن تُمْسِي مزامرهم ... تُتْلَى وتُنْسى من القرآن آياتُ

وهو يستغل اسمه في مديحه، فيقرنه إلى موسى الرسول ومعجزته في الطور، ويذكر في القصيدة أن عصاه تلقفت كل ما أفكوا، ويصور كيف اندحر الصليبيون وتوزعهم المسلمون قتلاً وأسروا وسبياً، ومن بقي منهم عاد إلى البحر المتوسط وما وراءه بخزي لا يماثله خزي.

ويدل ديوان ابن النبيه على أنه كان يعيش لدى الأشرف موسى معيشة مبتهجة يتمتع فيها بالرياض ومجالس الأنس والطرب حتى وفاته بنصيبين سنة ٦١٩. ومع ما كان فيه من هناءة لم ينس وطنه، بل ظل يحن له، وظل حنينه يترقرق ف تضاعيف

أشعاره كأقوى ما يكون الشعور الصادق لدى المحبين الواهين، كقوله مكنياً عن مصر بالعقيق أحد وديان الأراضي المقدسة في المدينة المنورة الذي طالما تغنى به شعراء الصبابة والحب الملتاع:

يا بَارِقا أَذْكَرَ الحَشَا شَجَنَهْ ... منزلُنا بالعقيقِ مَنْ سَبكَنَهْ
ومَرْبعُ اللهوِ يانعٌ خَضِلٌ ... أم غيَّر الدهرُ بعدنا دِمَنَهْ(٦٦٢)
يا بَرْقُ هذا جسمي يذوب ضَنَي ... ومهجتي بالعقيق مُرْتَهَنَهْ
بَلِّغْ حَديثَ الحِمَى وساكنهِ ... لمغرم أَنْحَلَ الهَوَى بَدَنَهْ
أشقى المحبين عادمٌ وطَرًا ... فكيف إن كان عادمًا وطَنَهْ
سَقْيًا لأيامنا التي سلفتْ ... كانتْ بطيبِ الوصال مقترنة
لو بيعَ يومٌ منها وكيف بِهِ ... كنتُ بِعُمْرِي مُسْتَرخصًا ثمنَهْ

وابن النبيه في أول الأبيات يخاطب برقا أذكره ما يعتلج في أحشائه من الشجن أو الأشجان على بعده عن موطنه بوادي النيل، ويتساءل عن السكان والأحباب وهل لا يزال مربع اللهو الشباب كعهده به يوم فارقه من النضرة والجمال أم غير الدهر بعده الديار وتبدل الحال. ويشكو للبرق ارتهان مهجته وراءه وتخلفها بمصر وكيف أنه يذوب ضنا وسقما ونحولاً متمنيا لو يسمع شيئاً يطمئنه عن الحمى وساكنه. ويقول إن أشقى المحبين من عدم الوصال بمحبوبه فكيف بالمحب المفتون الذي عدم الوصال بوطنه، ويدعو بالسقيا لأيام وصاله الهنيئة الماضية له، ويتمنى لو حج إلى هذا الوطن المقدس تقديس العقيق أو عاد إليه، ويقول إنه يقدم حياته كلها راضياً بيوم واحد يقضيه بين ربوعه. وابن النبيه بذلك يصور تصويراً رائعاً تعلق المصريين في غربتهم

(٦٦٢) خضل: مبتل ندى. الدمن: جمع دمنة: آثار.

obeikandi.com

بوطنهم وشغفهم به ومدى حنينهم إليه وظمئهم إلى جرعة من نيله في ظلاله وبين رياضه.

وإذا أخذنا نقرأ في ديوان ابن النبيه أحسسنا بوضوح أنه يمثل في غزله الروح القاهرية المصرية بكل ما عرف عنها من الدماثة والرقة وخفة الظل لا في موسيقاه وجمال أنغامه فحسب، بل أيضاً في تصوير مشاعره ووجدانه وعواطفه، دون أي حجاب من أصداف المحسنات البديعية، فهو قلما يستخدمها بل يترك نفسه على طبيعتها، مما جعل غزل يرتفع إلى مستوى وجداني سام، دون ترداد الأوصاف المدية الحسية للمرأة، فحسبه أن يصور عاطفته إزاءها في رقة متناهية. وهيأ ذلك قديماً لغزله أن يكثر التغني به في ديار الجزيرة والموصل وفي الشام ومصر واليمن(٦٦٣) لرقته ورشاقته وصفاء موسيقاه، وما زال المغنون والمغنيات يتغنون بأشعاره، وتتغنى بها السيدة أم كلثوم وغيرها، ومن ذلك قوله:

أَفْدِيهِ إن حَفِظَ الهوى أو ضيّعا ... ملكَ الفؤادَ فما عسى أن أَصْنَعا
من لم يذق ظُلْمَ الحبيب كظَلْمِه ... حُلْوًا فقد جهل المحَبة وادَّعى(٦٦٤)
يا أيها الوجهُ الجميل تدارك الصَّبَّ ... النَّحيلَ فقد وَهَى وتَضَعْضعا
هل في فؤادك رحمةٌ لمتَيَّم ... ضَمَّتْ جوانحُه فؤادًا موجَعا
هل من سبيلٍ أن أبثَّ صَبَابَتي ... أو اشتكي بَلْوَايَ أو أتضَّرعا

---

(٦٦٣) انظر كتاب شعر الغناء الصناعي للدكتور محمد عبده غانم (طبع دار الكاتب العربي بيروت) ص١٧٧.

(٦٦٤) الظلم بفتح الطاء: ريق الثغر وبريقه.

obeikandl.com

وهو يفدي محبوبه سواء حفظ العهد أو ضيعه فهو لا يملك إزاءه في الحالين إلا أن يزداد تعلقاً بحبه وشغفا، بل إنه ليتقبل ظلمه ويجده شراباً سائغاً، وإلا حق عليه أنه دعى حب. ويتضرع إليه أن يتداركه، فإن كل شيء فيه حتى بدنه وهن ولم يعد يستطيع احتمالاً، ويسترحمه لوهن جسده وأوجاع روحه، لعله يستطيع أن يبثه شيئاً من حبه أو من محنته فيه. ولا تقل جمالا وروعة عن هذه الأغنية في أيامنا الأغنية التالية:

أمانًا أيُّها القمُر المُطلُّ ... فمن جَفْنَيْكَ أسيافٌ تُسَلُّ
يزيد جمالُ وَجْهِك كلَّ يوم ... ولي جَسَدٌ يذوبُ ويضمحلُّ
وما عرف السقامُ طريقَ جسمي ... ولكنْ دَلَّ من أهْوَى يَدُلُّ
إذا نُشِرَتْ ذَوائبُه عليهِ ... ترى ماءً يرفُّ عليه ظِلُّ(٦٦٥)
وقد يَهْدِي صباحُ الخدِّ قومًا ... بليلِ الشَّعْرِ قد تاهوا وضَلُّوا

وابن نبيه يتوصل إلى صاحبته أن لا تسل عليه أسياف جفنيها وأن تبقى عليه فلا تفتك به، حتى يتمتع بجمال وجهها الذي يزداد ويتضاعف كل يوم، بينما يذوب بدنه اضمحلالاً وتضاؤلاً ونحولاً. وما عرف السقم يوماً طريقاً إليه عن طريق حبه لها وهيامه لها، بينما هي تدل عليه وتزداد كل يوم دلالاً وإعراضاً. وماذا يبصر؟ إنه لا يبصر إلا جمالاً فاتناً وجسداً ساحراً رقيقاً رقة الماء يهتز عليه من الشعر ظل ناضر باهر. ويقول:

يا ساكني السَّفْح كم عَيْنٍ بكم سَفَحتْ ... نَزَحْتُمُ فَهْيَ بعد البُعْد قد نَزَحَتْ
لَهْفِي لظبيةِ إنْسٍ منكمُ نفَرتْ ... لا بل هي الشمسُ زالتْ بعد ما
بَيْضاءُ حجَّبَها الواشون حِين وَشَوْا ... عني ولو لمحَتْ صِبْغَ الدُّجَى لمحَتْ

(٦٦٥) الذوائب: ضفائر الشعر.

يَقْتَصُّ من وَجْنَتَيْها لحظُ عاشِقها ... إن ضَرَّجتْ قلبه باللَّحْظ أو جَرَحَتْ

مَنْ لي بسَلْمي وفي أجفانِ مُقْلتها ... للحرب بِيضٌ حدادٌ قَطُّ ما صفحت

وأسْوَدُ الخالِ في محمَّر وَجْنَتِها ... كمِسْكَةٍ نَفَحَتْ في جَمْرةٍ لفَحَتْ

وفي القطعة جناس بين "السفح وسفحت" بمعنى صبت العين الدمع، وكذلك بين "نزحتم" بمعنى بعدتم و"نزحت" العين بمعنى نفد دمعها، وأيضاً بين "الواشون" و"وشوا" في البيت الثالث وبين "لمحت" من لمح البصر واختلاسه و"محت" في آخر البيت من المحو والإزالة، والبيت الأخير به جناس ناقص بين "نفحت ولفحت". والجناسات جميعها جناسات خفيفة على اللسان والآذان، لأن صناعها موسيقي ماهر في قياس الأنغام، وهو في أول القطعة يشكو لساكني السفح من كثرة ما سفحت دموعه وسكبت حتى لقد جفت عيناه، ويقول كأن محبوبته سلمى ظبية نافرة بل لكأنها الشمس مالت إلى الغروب ولو أنها أطلت بطلعتها المضيئة على الليل لمحت ظلمته محواً، ويتخيل كأنما يقتص بالنظر إلى وجنتيها من جرحها لقلبه جرحاً لا يندمل أبداً. وهي مبالغة مسرفة. ويتمنى لقاء سلمى مع ما قد يصيبه من فتك عينيها الساحرتين، ويتصور الخال في خدها الوردة كجنة من المسك تعلقت بجمرة لافحة، فانتشر منها أريج عطر. ومن غزله الذي يقطر حسناً ورقة قوله:

تعالى اللهُ ما أَحْسَنْ ... شقيقًا حُفَّ بالسَّوْسَنْ

خدودٌ لَثْمُها يُبْرِى ... من الأسقام لو أمكن

فما تُجْنَي وحارسُها ... بِقُفْلِ الصُّدْغ قد زَرْفَنْ(٦٦٦)

أبثُّ هواه من حُرَقٍ ... لنجم الليل لَمَّا جَنْ

(٦٦٦) زرفن الصدغ: جعل الشعر المسدل على الخدود كالحلقة.

وكم أسكنتُهُ قلبي فسار وأحرق المسكن

وهو يعلن افتتانه صاحبته واحمرار خدودها المشبهة لورد الشقيق المحفوفة بخصل السوسن من شعرها الذهبي، ويقول إن لثم خدودها يبرئ السقم، ولكن من يستطيع أن يصل إليها؟ إن أحداً لا يمكنه أن يقتطف من خدودها شيئاً من زهرات الحب، فإن وراءها حارس أمين من شعرها لوى على خدودها قفلاً كالحلقة، فلا يستطيع أحد إليها وصولاً. وإنه ليبث هواه وما يذوقه من حرارته اللافحة للنجم حين جَنَّ الليل ودجت ظلماته، معلناً إليه هذا الهوى الذي لم يعد يستطيع كتمانه. ويأسى لنفسه ومصيره، فكم أسكن محبوبته قلبه فعبثت به بل أحرقته وأتت عليه. ومن غزله الرائع:

أما وبياضِ مَبْسِمِكِ النَّقِيَّ ... وسُمْرَةِ مِسْكة اللَّعَسِ الشَّهِيَّ(٦٦٧)

لقد أسْقمتِ بالهجران جِسْمي ... وأعشطني وِصالُكِ بعد رِيَّ

إلى كم أكتمُ البلوى ودمعي ... يبوحُ بمُضْمَرِ السِّرِّ الخَفِيَّ

وكم أشكو للاهيةٍ غرامي ... فويل للشَّجِيِّ من الخَلِيَّ

تغازلني وتَزْوِي حاجبيها ... كما انبرتِ السَّهامُ عن القِسِيَّ

وتخترق الصفوفَ بريقِ فيها ... وهل يَخْفَى شذى المسك الشَّذِيَّ

يذود شَبَا القَنَا عن وَجْنَتَيْها ... كمنع الشَّوْكِ للوَرْدِ الجَنِيَّ(٦٦٨)

إذا ما رُمْتُ أَقْطفُهُ بعيني ... تقول حذارِ من مَرْعًى وَبِيَّ(٦٦٩)

---

(٦٦٧) اللعس: سواد الشفة.

(٦٦٨) شبا القنا: حد الرماح.

(٦٦٩) وبى: وخيم.

وابن النبيه يقسم لمحبوبته بمبسمها الفاتن وسمرة شفاها اللعس أنها أسقمت جسمه بهجرانها بعد الوصال وبما أصابته به من ظمأ بعد ري، ويقول إلى كم أكتم محنتي في الحب ودمعي يبوح بسرِّي وإلى كم أشكو للاهية عنه، وصدق المثل القديم: ويل للشجي من الخلي. ويعجب أنها تغازله أو تمد له أسباب الغزل، بينما تقطب حاجبيها وتزوي وما بينهما، ويلتمس لها عذراً، فكأن حاجبيها قوسان يرسلان السهام، ولابد لهما كالقوس ووترها من الشد والجذب في أثناء الرمي بالسهام والنبال، ويقول إن شذاريقها كشذا المسك وأريجه يعلن عنها من بعيد. ويتحدث الشعراء كثيراً عن السيوف والرماح المسلولة من العيون على الناظرين للجمال المصون، ويرسم اسم ابن النبيه من ذلك صورة رائعة، فعيون صاحبته بما يحميها من الرماح تذود عن وجنتيها الفاتنتين كما يذود الشوك عن الورد حين تمتد يد لاجتنائه أو اقتطافه، ويقول إنه حتى حين يريد أن يقتطف بعينيه لا بشفتيه شيئاً من ورد وجنتيها تقول له حذار من مرعى وخيم العواقب.

وكل هذا غزل وجداني يموج باللهفة والظمأ واللوعة الملتهبة التي لا سبيل إلى إطفائها في قلب المحب الولهان، وهو دائماً يستعطف ويتوسل ويتضرع، ولا مجيب حتى بنظرة أو كما يقول باقتطاف نظرة إلى الوجه الفاتن. وقد تراءت لنا صور من هذا الغزل الوجداني الصافي الملتاع عند ظافر الحداد والمهذب بن الزبير وابن سناء الملك غير أنه تكامل عند ابن النبيه في هذه الصورة الرائعة التي تخلو من المتاع الحسي والتي يسيل فيها الشعر رقة وعذوبة وسلاسة. وما أشك في أن الحاجري شاعر الموصل استلهم في غزله الوجداني الذي تحدثت عنه في الجزء الخامس من هذه السلسلة لتاريخ الأدب العربي

هذا الغزل الوجداني لابن النبيه نزيل دياره حين كان الحاجري لا يزال شاباً في نحو الخامسة عشر من عمره، وتلاه التلعفري الموصلي الذي تحدثنا عن غزله الوجداني الملتاع يستضيء فيه بابن النبيه أيضاً، ولاحظ ذلك صاحب فوات الوفيات، فقال في ترجمته إن قصيدة التلعفري التي أنشد منها قطعة في ترجمته بالكتاب المشار إليه والتي يستهلها بقوله:

أيّ دمع من الجفون أسالَهْ إذ أتتْه معَ النسيم رسالةْ

إنما نظمها معارضة ومحاكاة لقصيدة ابن النبيه:

بَدْرُ تِمٍّ له من الشعر هالَهْ من رآهُ من المحبين هالَه[٦٧٠]

فهي من نفس الوزن والروي، بل المحاكاة عند التلعفري لابن النبيه أوسع من هذا، إذ هي محاكاة لغزله الوجداني الرائع لا في أساليبه السلسلة السائغة فحسب، بل أيضاً في مضمونه المليء بالأسى المبرح والوجد الملتهب، مع الرقة والدماثة واللطف وخفة الروح. وسقطت القيثارة من يد ابن النبيه بوفاته وكانت مصر قد أنجبت البهاء زهير، وإذا هو يستخرج من قيثارته نغماً رائعاً لهذا الغزل الوجداني على نحو ما سنرى عما قليل، وهو نغم يلغ به الذروة التي كانت مأمولة لهذه الصبابة الوجدانية، وإذا كان شرر هذا النغم قد تطاير عن طريق ابن النبيه إلى الموصل فإنه تطاير عن طريقه وطريق البهاء زهير إلى الشام وإلى بيئات عربية مختلفة.

(٦٧٠) هالة الأولى: دارة القمر. وهالة الثانية: من هاله الشيء إذا أعجبه وروعه.

البهاء[٦٧١] زهير

هو بهاء الدين زهير بن محمد، ينتهي نسبه إلى المهلب بن أبي صفرة القائد المشهور في العراق وإيران زمن بني أمية، ولد لأبويه المصريين في وادي نخلة بالقرب من مكة في أثناء حَجَّهما خامس ذي الحجة سنة ٥٨١. وكان أبوه رجلاً صالحاً يشهد بذلك وصفه على نسخة خطية من الديوان بدار الكتب المصرية بأنه: "العارف محمد قدس الله روحه"[٦٧٢] وقد تؤذن كلمة العارف بأنه كان صوفياً أو على صلة بالصوفية والتصوف، ويبدو أنه أقام مع ابنه وزوجه في مكة ناسكاً بضع سنوات، إذ يشير البهاء في بعض أشعاره إلى ذكريات له فيها أيام طفولته، بمثل قوله:

تذكرتُ عهدًا بالمحصَّبِ من مِنًى ... وما دونه من أَبْطَح وحَجُونِ[٦٧٣]

منازلُ كانتْ لي بهن منازلٌ ... وكان الصِّبَا إلفي بها وقَريني

وعاد العارف محمد بزوجه وابنه إلى بلدته بالصعيد: قوص، وكانت حينئذ عاصمة الصعيد وباب المسافرين من مصر والمغرب والأندلس في البحر الأحمر من سواكن وعيذاب إلى الحجاز، وكانت بها حركة تجارية واسعة ونهضة علمية وأدبية ناشطة، وهي منشأ البهاء ومرباه، فيها تلقن العلم والأدب والشعر. وتعرف في أثناء ذلك على

---

(٦٧١) انظر في ترجمة البهاء زهير وشعره ابن خلكان ٢/ ٣٣٢ والنجوم الزاهرة ٧/ ٦٢ وحسن المحاضرة ١/ ٥٦٧، ٢/ ٢٣٣ وشذرات الذهب ٥/ ٢٧٦. و"البهاء زهير": بحث بقلم الشيخ مصطفى عبد الرازق. وقد طبع ديوانه بكمبردج سنة ١٨٧٦ بتحقيق يلمر مع مقدمة وتعليقات، وطبع في القاهرة مراراً وفي بيروت.

(٦٧٢) انظر في ذلك البهاء زهير للشيخ مصطفى عبد الرازق ص٥.

(٦٧٣) المحصب: موضع رمي الجمار بمنى. والأبطح: أبطح مكة وهو واديها. والحجون: جبل بها.

خدنه ورفيقه ابن مطروح، وانعقدت بينهما صداقة حتى الممات. وفي ديوانه قصيدة قصيرة مدح بها الملك المنصور حفيد صلاح الدين وكان قد ولى شئون مصر بعد أبيه فترة قصيرة سنة ٥٩٥ وأغلب الظن أنه أرسل بها إليه من قوص وهو لا يزال في الرابعة عشرة مما يدل على أن ملكته الشعرية تفتحت في سن مبكرة.

وينشد ابن خلكان له أبياتاً من قصيدة مدح بها جلدك التقوى وإلى دمياط سنة ٦٠٥ وأكبر الظن أنه أرسل أيضاً بها إليه من قوص. ونراه في سنة ٦٠٧ يقدم مدحه لوالي بلدته قوص: مجد الدين إسماعيل اللمطي يهنئه فيها بولايته على أعمالها، وأعجب به اللمطي فاتخذه كاتباً له، وظل يعمل معه نحو عشر سنوات، ثم أخذت العلاقة تفتر بينهما، ويبدو من استعطافاته له في بعض أشعاره أنه عزله من منصبه فهاجر من بلدته إلى القاهرة. ويظن بعض الباحثين أن هذه الهجرة حدثت في سنة ٦١٩ وفي رأينا أنها تسبق هذا التاريخ بسنة أو أكثر إذ نراه يهنئ السلطان الكامل الأيوبي في انتصاره العظيم سنة ٦١٨ على الصليبين وطردهم من دمياط أو طرد فلولهم إلى البحر المتوسط وما وراءه. ويأخذ في دعم صلته بأبناء السلطان الكامل منذ هذا التاريخ، ويحاول الاتصال بابنه الملك المسعود صاحب اليمن حين قدم إلى القاهرة سنة ٦٢١ ويقدم له مدحتين، ويخف على قلب أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب ويلحقه بخدمته، ويلبيه منشداً فيه قصيدة بديعة يقول فيها:

لبَّيْكَ يا مَنْ لا مرَّد لأمرهِ ... وإذا دعا العَيُّوق لا يتعوَّقُ[٦٧٤]

الصالحُ الملكُ الذي لزمانهِ ... حُسْنٌ يَتيهُ به الزمانُ ورَوْنَقُ

(٦٧٤) العيوق: نجم في طرف المجرة يتلو الثريا.

سجدتْ له حتى العُيونُ مهابةً أو ما تراها حين يُقبلُ تطْرقُ

ويصحبه معه حين أصبح في سنة ٦٢٩ نائباً عن أبيه في حكم بعض البلدان الشرقية في نواحي الفرات. وعاش البهاء مع الملك في رغد، ينعم بالحياة ويهنأ بها. وينتقل معه في بلدان إمارته، غير أنه لم ينس موطنه، فقد ظل يذكره وظل لا ينسى أيامه فيه وأصدقاءه، ولا ينسى نيله الغدق ورياضه ومراكبه المصعدات المنحدرات، ويتلهف على العودة إلى واديه والتملي بجماله واكتحال عينيه بحسنه وبساكنيه وكل ما فيه، بمثل قوله:

سقى واديًا بين العَرِيش وبَرْقَةٍ من الغَيْث هطّالُ الشآبيب هَتَّانُ(٦٧٥)
بلادٌ إذا ما جئتَها جئتَ جنَّةً لعينك منها كلما شئتَ رضوانُ
تمثَّل لي الأشواقُ أنَّ تُرابَها وحَصْباءها مِسْكٌ يفوحُ وعِقْيان(٦٧٦)
فيا ساكني مصرٍ تُراكم علمتُمُ بأنيَ مالي عنكمُ الدهَر سُلْوَانُ
عسى اللهُ يَطْوي شُقَّةَ البعدِ بيننا فتهدأ أحشاءٌ وتَرْقَأ أجْفانُ

فهو يدعو للوادي من شرقيه إلى غربيه أن يظل يسقيه من الغيث هطال مدرار، ويتصور الوادي جميعه فردوساً لا يشبهه فردوس وترابه وحصباءه مسكا وذهبا خالصا، وهو لا يسول أهله ولا ينساهم أبداً ويتمنى لو قصرت المسافة وعاد إلى موطنه ينظر ما شاهده، حتى تجف دموعه المنهلة، وتهدأ أحشاؤه الموجعة.

ويستوي الملك الصالح في سنة ٦٣٦ على دمشق فيتحول معه إليها ويتملى بغوطتها ورياضها، ولا يلبث الملك الصالح أن يفكر في الاستيلاء على أملاك داود ابن عمه

(٦٧٥) الشآبيب: جمع شؤيوب وهو دفعة المطر، وهتان، كثير المطر.

(٦٧٦) حصباءها: حصاها. العقيان: الذهب الخالص.

صاحب الكرك في جنوبي الأردن وينزل نابلس، غير أن مؤامرت تحاك له، ويعتقل بسببها عند ابن عمه داود في الكرك، ويظل البهاء زهير بنابلس حافظاً لعهده. وترد إليه حريته، ويتجه إلى مصر فيستولي من أخيه الصغير العادل على مقاليد الحكم بها سنة ٦٣٧ ويولي البهاء زهير ديوان الإنشاء، والبهاء يكاد يطير فرحاً برجوعه إلى موطنه وتعظم منزلته عند الملك الصالح ويصبح مستشاره الأعلى وأمين سره. ومن حين إلى حين كان يرحل مع الملك الصالح إلى دمشق، وفي آخر رحلة لهما هناك جاءهما خبر الحملة الصليبية على دمياط بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، وتصادف أن كان الملح الصالح مريضاً، فصمم على منازلة لويس وجيشه في أقرب فرصة، وحمل من هناك في محفة حتى نزل بطَناح بالقرب من المنصورة في شهر المحرم سنة ٦٤٧ ومضى يستعد للقاء الصليبين وهو يجاهد المرض جهاداً عنيفاً حتى شهر شعبان إذ لبى نداء ربه. وقبيل وفاته بقليل عزل البهاء زهير من منصبه، ويذكر المؤرخون أن ذلك كان بسبب تقصيره في الالتفات إلى إشارة كان قد كتبها الملك الصالح على كتاب كان مرسلاً لابن عمه داود صاحب الكرك، مما أغضب الملك الصالح. ونظن أنه رجع ذلك السهو إلى تقدمه في السن، فأعفاه من منصبه وأسنده إلى نائبه فخر الدين ابن لقمان. ويقال إنه حاول بعد وفاة الملك الصالح إعادته إلى منصبه، وكأنما عز ذلك على البهاء فلم يقبل تقلده، وقيل: قبله فترة ثم استعفي منه. وفي ديوانه مدائح مختلفة أرسل بها إلى الناصر الأيوبي حين استولى على دمشق، وأكبر الظن أنه أرسل بها إليه انتظاراً لبعض رفده، ولزم بيته نحو ثماني سنوات عرف فيها شظف العيش بعد رغده ومره بعد حلوه إلى أن فارق دنياه سنة ٦٥٦ في وباء حث بالفسطاط والقاهرة.

ويدل شعر البهاء على أنه كان صاحب نفس كريمة كبيرة، ويقول ابن خلكان في ترجمته، "كنت أود لو اجتمعت به لما كنت أسمعه عنه فلما اجتمعت به رأيته فوق ما سمعت عنه من مكارم الأخلاق ودماثة السجايا". وما مر من حديثنا عنه يدل على أن حياته ظلت، حتى أعفاه الملك الصالح من منصبه وهو في نحو السابعة والستين من عمره، حياة سهلة ليس حرمان ولا شيء والأصدقاء، وفيه ما يدل أيضاً على شغفه بالطبيعة ومجاليها الفاتنة. وله مراسلات شعرية رقيقة مع ابن مطروح خدن صباه وشبابه في قوص. وشعره يكتظ بالمرح والتفاؤل والدعوة إلى الفرحة بمتع الحياة وطرح الهموم عن عاتق الإنسان، يقول:

أيها الحاملُ هَمَّاً ... إن هذا لا يدومُ
مثل ما تَفْنَي المسرَّا ... تُ كذا تَفْنَي الهمومُ

والغزل هو الموضوع الأساسي في ديوانه، وهو غزل وجداني من نفس العين الذي كان يستمد منه ابن النبيه، بل ربما كان يتقدم خطوة أو خطوات نحو السهولة، مما جعل ابن خلكان يقول: فحسب، فهو يتميز فيه حتى من ابن النبيه بالأوزان القصيرة والمجزوءة. وهو مثله يتغنى بالحب وتباريحه في تدفق وانطلاق، وقلما نجد عندهما معاً رواسب تصويرية من تقليد القدماء، وما يجيء من ذلك يعرض عرضاً جديداً، وأيضاً ما يجيء أحياناً من جناس وغير جناس من المحسنات البديعية يجيء في خفة ورشاقة. فالشعر – وخاصة الغزل – ليس محسنات ولا تصاوير محفوظة مما يتردد على الألسنة، وإنما هو مشاعر وانفعالات وعواطف. وقد يكون ذلك غريباً على أذواق الباحثين الذين طالما رددوا أنه لم يبقى عنه الشعراء منذ أيام الدولة الأيوبية سوى الأخيلة

obeikandl.com

والتصاوير المتجمدة، وسوى المحسنات البديعية التي استحالت إلى أصداف ينقصها البريق واللمعان.

وينبغي أن لا نجعل ذلك خاصة فريدة من خصائص البهاء زهير وحده، فهذا الغزل الوجداني لم يكن خاصاً بالبهاء زهير، فقد كان يشركه فيه – كما أسلفنا – ابن النبيه وأيضاً ابن سناء الملك، وله مقدمات قديمة نجدها عند المهذب بن الزبير وظافر الحداد. ولا ريب في أنه لطبيعة مصر السهلة وطبيعة نيلها العذب السلس أثر كبير في ذلك، فعلى نحو ما يمتد الوادي في مصر سهلاً لا نتوء فيه، كذلك شعره وشعر أصحابه تمتد لغته سهلة دون أي صعوبات، وعلى نحو ما يجري النيل مترقرقاً متدفقاً كذلك شعره وشعر أصحابه يسيل عذباً سائغاً شرابه. وكما أن الوادي ينطوي على السهولة كذلك النفس المصرية نفس سهلة لطيفة لا خشونة فيها، نفس طُبعت على اللين والرقة والدماثة، مما انعكست آثاره عند ابن سناء الملك وابن النبيه. ومن الحق أن البهاء زهير كأنما خلق ليبلغ بتصوير هذه النفس كل ما يسمها من عذوبة وخفة ظل ورشاقة.

وربما كان من أسباب اندلاع هذا الغزل الوجداني على لسان البهاء زهير ما أشرنا إليه في صدر حديثنا عنه من أن أباه كان صوفياً أو على صلة بالتصوف والصوفية مما جعله يحفظ مبكراً – وتدور على لسانه – أشعارها المليئة بالوجد الإلهي وتباريحه، وانطبع هذا الوجد في نفسه وبثه في حبه. وجعل اختلاطه بهذه البيئة يعمق هذا الوجد وأشواقه بأكثر مما عمقه في نفوس الشعراء من حوله، وإن كنا نستبقى بصفة عامة أثر هذا الوجد الصوفي في غزلهم جميعاً، مما دفع بقوة لظهور هذا الغزل الوجداني الصادق. ومعروف أن صوفية مصر من أمثال ابن الكيزاني وابن الفارض ممن سنتحدث عنهم في

obeikandi.com

غير هذا الموضع بثوا في أشعارهم وجداً لا ضفاف له، وكأن البهاء زهير استمد جذوة من هذا الوجد المبرح نشر شررها في غزله. وكثيراً ما نعثر عنده على أبيات تصور تأثره بالصوفية كقوله في بعض غزله:

أنا في الحقيقة أنتمُ هذا اعتقادي فيكمُ

ولو أننا لم نعرف أن البين له وسئلنا لمن هذا البيت إنه لأحد الصوفية يعبر فيه عن مبدأ الإلحاد المعروف عندهم: اتحاد الحب بالمحبوب. ومن ذلك قوله:

يا مَنْ إليك المشتكى أنت العليمُ بحاليَه

وكأنه متصوف يخاطب الذات العلية ضارعاً مستعطفاً، وهو إنما يخاطب صاحبته التي دلعت نار الحب في فؤاده. وهذا الجانب من غزل البهاء جعل بعض قصائده تلتبس عند الأسلاف بقصائد ابن الفارض، من ذلك رائيته المشهورة التي يقول فيها:

غيري على السلوان قادرْ وسوايَ في العشاق غادِرْ
أشكو وأشكر فعلَهُ فأعجبْ لشاكٍ منه شاكر
لا تنكروا خَفَقان قَلْـ ـبي والحبيبُ لديَّ حاضرْ
ما القلبُ إلا دارُهُ ضُرِبَتْ له فيها البشائرْ
يا ليلُ طُلْ يا شوق دُمْ إني على الحالين صابِرْ
لي فيك أجرُ مجاهدٍ إن صحَّ أنَّ الليلَ كافر

والقصيدة في ديوان البهاء زهير، وهي أيضاً في ديوان معاصره ابن الفارض المتصوف المشهور، وفي رأيي أن الالتباس الذي جعل الرواة يظنون أن القصيدة لابن الفارض جاءهم من أنها تحمل فكرة الغيبة والحضور التي يرددها كثيراً ابن الفارض في غزله الرباني، على نحو ما يلاحظ في البيت الثالث، وإن اختلف المنزعان في الفكرة،

وبالمثل البيت الرابع فقد يشير من طرف خفي كسابقه إلى فكرة الاتحاد بـالمحبوب. وفي البيتين: الأول والثاني جناسات ناقصة وفي البيت الأخير تورية بـالكفر بمعنـى الـشرك بالله والمراد الستر. على كل حال يلفتنا الالتباس بين شعر البهاء زهير وابن الفـارض إلى ما قلناه من أن أصداء من الوجد الـصوفي انعكـست في شـعر البهـاء زهـير. ويبـدو أن انعكاسها بدأ مبكراً، إذ نراها واضحة في غزل قصيدة يمدح بها مجد الـدين اللمطـي إذ يقول:

لها خَفَرٌ يومَ اللقاء خَفيرُها ... فما بأْلها ضَنَّتْ بما لا يَضِيرها[٦٧٧]

أعادتُها إن لا يُعادَ مريضُها ... وسيرتُها أن لا يُفَكَّ أسيرُها

وها أنذا كالطَّيْف فيها صبابةٌ ... لعلي إذا نامتْ بليلٍ أزورُها

من الغِيدِ لم توقَدْ مع الليل نارُها ... ولكنها بين الضلوع تُثيرُها

يقاضي غريمُ الشَّوْقِ مني حُشَاشَةً ... مروَّعةً لم يَبْقَ إلا يَسيرها

والصور في القطعة دقيقة فخفر صاحبته أو خجلهـا وحياؤهـا يحرسـها يـوم لقائـه، فلماذا تبخل عليه بما لا يضيرها؟ وهل من عادتها أن لا تعود مريضها ومن سيرتها أن لا تفك قيود أسيرها؟. وهو تضرع وتوسل لطيف. ويقـول إنـه أصـبح كـالطيف شـبحا متضائلا نحيلا. ويتسع به الخيال فيتمنى لو أصبح طيفا حقا وزارها في المنام وتضاعيف الأحلام. وهي صورة طريفة من مبتكرات خياله. ويقول إنها لم توقد نارها لـيلاً كعـادة الناس اكتفاء بإيقادها بين ضلوعه وجوانحه. ويقول إنه لم يبق منه إلا بقية روح مروعة من حبها مفزعة. وفي القطعة جناسات وتصاوير لا نحس فيها بتكلف، بل نحس كأنها

---

(٦٧٧) ضنت: بخلت.

obeikandl.com

جوهر الأبيات ومعانيها. وراء هـذه القطعـة قطـع وقـصائد كثـيرة تـسيل رقـة وخفـة وعذوبة، مع مسها للقلب بما يودعها من كلـمات تـشيع حتـى أيامنـا في اللغـة اليوميـة الدارجة من مثل قوله:

تعيشْ أنت وتَبْقَى ... أنا الذي متُّ عِشقًا
حاشاك يا نورَ عيني ... تَلْقَى الذي أنا أَلْقَى
ولم أجد بين مَوْتِي ... وبين هَجْرك فَرْقَا
يا أنعم الناس بالاً ... إلى متى فيك أشقى
لم يبقى منيَ إلاً ... بقيةً ليس تَبْقَى
قد كان ما كان مني ... (واللهُ خيرٌ وأَبْقَى)

والقطعة تفيض بالسهولة والبساطة والرقـة واللطـف مـع جمـال الجـرس واتـساق الكلمات، ومع ما يداخلها من ألفاظ اللغة اليومية مثل: "مت عشقاً" و"يا نـور عينـي" و"قد كان ما كان منى" وأيضاً مع ما يداخلها من الاقتباس القرآني في الشطر الأخير.

وكان الشعراء المصريين في زمنه وقبل زمنه يستظهرون بعض كلمات الحيـاة العاملـة أو اليومية، ولكنه توسع فيها وأكثر منها كثرة مفرطة، وهي كثرة تجعل غزله يمس أوتار القلوب والأفئدة، ومن طريف غزله:

من اليوم تعارفنا ... ونَطْوِي ما جَرَى منَّا
ولا كانَ ولا صارَ ... ولا قلتُم ولا قُلنا
وإن كان ولابُدَّ ... من العَتْبِ فبالحسنى
فقد قيل لنا عنكم ... كما قيل لكم عنَّا
وما أحسنَ أن نَرْجـــ ... ـعَ للوَصْلِ كما كنَّا

obeikandl.com

والقطعة كلها من اللغة الدارجة، وقد عرف كيف يلتقط منها هذه الكلمات والعبارات الفصيحة، وكأنها لا تفصل من لغتنا اليومية، بل تفصل من القلوب والأفئدة. والقطعة عتاب ولكنه عتاب مملوء لطفاً وظرفاً وتسامحاً ورقة ودماثة، ودائماً تجري في غزله هذه الرقة الحلوة التي تشبه ماء النيل النمير الصافي والتي تجعل القلوب تتعلق بغزله من مثل قوله:

قَصَّروا مدةَ الجَفَا ... طوَّل اللهُ عُمْرَكُمْ
شَرَّفوني بزورةٍ ... شرَّف الله قدْركم
قد صَبَرْتم وليتني ... كنتُ أُعْطِيت صَبْركم
لو رأيتم محلَّكم ... من فؤادي لسرَّكم
لو وصلتم محبَّكم ... ما الذي كان ضرَّكم

والقطعة خفيفة خفة شديدة، والدعاءان في البيتين: الأول والثاني من الأدعية المتداولة على ألسنة المصريين في لغتهم اليومية، وإنه ليتضرع لصاحبته مظهرًا لها ما يحتمله من الصبر وجهده. لعلها تشفق عليه وتخلصه من عذاب الهجر والحرمان. وهو لا يتحرج من إعلان تذلله في الحب. بل من إعلان عبادته لمحبوبته، يقول:

سأشكر حُبًّا زان فيكِ عبادتي ... وإن كان فيه ذِلَّةٌ وخضوعُ
أصلِّي وعندي للصَّبابة رِقَّةٌ ... فكلُّ صلاتي في هواكِ خشوعُ

فغزله فيها ليس شعراً فحسب، بل هو أيضاً صلاة وتراتيل يقدمها لمن شغفت قلبه حبا، بل عبادة وخشوع ودين، يتعبد لها كما يتعبد الوثنيون للوثن، ويأسى لنفسه ولهذا حب الذي فتن به، بل الذي عبث به حتى جعله يعبد محبوبته، يقول:

لي حَبيبٌ عبدْتُهُ ... وَيْحَ مَنْ يعبدُ الوَثَنْ

obeikandl.com

وكأنه يريد أن يسترجع نفسه من محراب هذا الحب، ولكنه لم يسترجعها أبداً، فقد ظل ينشد تراتيل غزله الوجداني البديع.

وكان البهاء زهير يعرف في وضوح ما ينشئ من هذا الغزل الرائع، يدل على ذلك ما رواه الحموي في خزانته من حوار(٦٧٨) له مع ابن سعيد الأندلسي حين أطلعه على كتاب المغرب ورأي الأندلسيين يكثرون في الغزل من أصداف التشبيهات والاستعارات فإنه قال له إن لنا في الغزل طريقاً آخر سماه الطريق الغرامي يقصد هذا الغزل الوجداني. ثم لقيه مرة أخرى وأنشده: "يابان وادي الأجرع" وقال له: اشتهي أن تكمل هذا المطلع ففكر ابن سعيد قليلاً وأنشد: "سقيت غيث الأدمع" فقال البهاء: والله حسن لكن الأقرب إلى الطريق الغرامي أن تقول: "هل ملت من طرب معي". وفي ذلك ما يدل من بعض الوجوه على إحكام البهاء للغة الغزل الوجداني ومعانيه في عصره، وهو ما جعل معاصريه في الديار الشرقية على شواطئ الفرات وفي دمشق والشام وفي القاهرة ومصر يشغفون بديوانه ويروونه، ويشهد بذلك ابن خلكان إذ يقول عنه: "أجازني رواية ديوانه وهو كثير الوجود بأيدي الناس". ومما يدل على ذلك من بعض الوجوه ما جاء في طبعة المستشرق بلمر لديوان البهاء من أنه اعتمد في تحقيقه للديوان على مخطوطة بمكتبة أكسفورد كتبها شرف الدين بن الحلاوي الشاعر الموصلي الأصل الدمشقي الدار والمولد. ونص ابن خلكان في ترجمة البهاء زهير على أن هذا الشاعر لقيه ومدحه بقصيدة أحسن فيها كل الإحسان، وطبعاً طلب إليه أن يجيزه رواية

---

(٦٧٨) خزانة الأدب ص١٠.

obeikandl.com

الديوان فأجازه له. وأنشد ابن تغري بردي لابن الحلاوي قصيدة[٦٧٩] في نهاية الرقة، يتضح فيها تأثره بالبهاء وفيها يقول:

هلالٌ ولكنْ أفْقُ قلبي مَحَلُّهُ غزالٌ ولكن سَفْحُ عيني عَقِيقُهُ[٦٨٠]
على خَدَّه جَمْرٌ من الحسن مُضْرَمٌ يُشَبُّ ولكن في فؤادي حَرِيقُه

وشاع هذا الغزل الوجداني في الشام وغير الشام، وبدون ريب لمصر وشعرائها ابن سناء الملك وابن النبيه والبهاء زهير فضل شيوعه وذيوعه بعدهم في مصر والبلدان العربية.

ابن[٦٨١] مطروح

هو جمال الدين يحيي بن عيسى بن مطروح، ولد بأسيوط سنة ٥٩٢ ونشأ وأقام بقوص دار العلم والأدب والشعر حينذاك، واختلف إلى ما بها من حلقات العلماء والأدباء، وفيها تعرف على البهاء زهير وكان يكبره بنحو عشر سنوات. وأعجب به البهاء، فاتخذه رفيقاً وصديقاً، واستمع إلى أشعاره وملكته الشعرية تتفتح فكان يشجعه. ويبدو أنه حين عين حاكم قوص مجد الدين اللمطي البهاء كاتباله، كما مر بنا في ترجمته، سعى لديه ليسند عملاً إلى صديقه ابن مطروح، يدل على ذلك ما في ديوانه

---

(٦٧٩) النجوم الزاهرة ٧/ ٦٠.

(٦٨٠) العقيق: اسم وديان ومواضع متعددة في المدينة ونجد.

(٦٨١) انظر في ترجمة ابن مطروح وأشعاره ابن خلكان ٦/ ٢٨٥ ومرآة الجنان ٤/ ١١٩ وشذرات الذهب ٥/ ٢٤٧ والنجوم الزاهرة ٦/ ٣٧٠، ٧/ ٢٧ وحسن المحاضرة ١/ ٥٦٧. وديوانه طبع قديما في القسطنطينية سنة ١٢٩٨هـ وهو في حاجة إلى نشرة محققة.

obeikandl.com

من مدائح موجهة لمجد الدين، وأكبر الظن أنه حين سخط مجد الدين على البهاء وأعفاه من منصبه سخط بالمثل على ابن مطروح وأعفاه من عمله. وحاول أن يستل من نفسه سخطه عليه، كما تشهد بذلك قصيدة يستعطفه بها استهلها بقوله:

لك اللهُ إنَّ العفوَ أقربُ للتقوى ومثلُك أَوْلَى مثليَ الصَّفْحَ والعَفْوَا

ولم يجد الصديقان بدا من ترك قوص والاتجاه إلى القاهرة، ومرت بنا مدحة رائعة للبهاء مدح بها السلطان الكامل عقب انتصاره الحاسم على الصليبين ٦١٩ وبالمثل نجد ابن مطروح يمدح الكامل منوهاً بهذا الانتصار بمثل قوله:

يا ناصر الدين الحنيف بسيفه ومذل أهل الشرك والطغيان

وقد يدل ذلك على هجرة الصديقين معًا إلى القاهرة في تلك السنة إن لم يكن قبلها، وكما اتجه البهاء إلى أبناء الملك الكامل يمدحهم وفي مقدمتهم الملك المسعود صاحب اليمن حين قدم منها إلى القاهرة سنة ٦٢١ كذلك مدحه ابن مطروح، ومدح أيضاً عمه الأشرف موسى ممدوح ابن النبيه، وله مدائح مختلفة في أمراء بني أيوب. ويقول ابن خلكان في ترجمته إنه تنقلت به الأحوال في الخدم والولايات، ولا نعرف بالضبط ما هي هذه الخدم والولايات التي عمل بها. ومر بنا أن البهاء زهير وثق صلته الملك الصالح نجم الدين أيوب، ونرى ابن مطروح يلتحق خدمة الملك الصالح حين أصبح نائباً لأبيه الملك الكامل على البلاد الشرقية: الرها والرقة وغيرها في سنة ٦٢٩ وظل معه هناك حتى إذا استولى الملك الصالح على مقاليد الأمور بالقاهرة سنة ٦٣٧ استبقاه في دمشق فترة ثم استقدمه إليه سنة ٦٣٩ وعينه ناظراً في الخزانة، ولم يزل ينعم بقربه وحظوته منه حتى سنة ٦٤٣ إذ عينه وزيراً له في دمشق يدير شئونها، فارتفعت منزلته.

وقدم عليه الملك الصالح في سنة ٦٤٦ ولم تعجبه بعض تصرفاته فعزله من منصبه وسيره مع جيش للاستيلاء على حمص. وسمع بحملة لويس التاسع ومن انضموا إليه من حملة الصليب وأنهم اجتمعوا بجزيرة قبرس لقصد مصر، فسحب جيشه المحاصر لحمص وعاد به إلى مصر في شهر المحرم سنة ٦٤٧ وخيم به على المنصورة وابن مطروح في خدمته وهو متغير عليه متنكر له إلى أن توفي في شعبان سنة ٦٤٧ وقاد ابنه توران شاه المعركة، ودمر الحملة الصليبية، وأسر لويس التاسع وسجن بدار ابن لقمان بالمنصورة والطواشي صبيح يحرسه إلى أن فدى نفسه بأربعمائة ألف دينار وعاد مهزوماً مدحوراً مع فلول جيشه الصليبي إلى البحر المتوسط وما وراءه. وأغلب الظن أن ابن مطروح لم يحضر المعركة فقد عاد بعد وفاة الملك الصالح إلى داره بالفسطاط وانقطع إليها، وشاع أن لويس التاسع يعد حملة ثانية لمصر فكتب إليه قصيدته البديعة:

قُلْ للفَرَنْسِيسِ إذا جئتَهُ ... مقالَ صِدْقٍ من قَؤولٍ نَصِيحْ
آجرَكَ اللهُ على ما جَرى ... من قَتْلِ عُبَّادِ يسوعَ المسيحْ
آتيتَ مصرًا تبتغي مُلْكَها ... تحسِبُ أن الزَّمر – يا طَبْلُ – ريحْ
فساقَكَ الحَيْنُ إلى أَدْهَم ... ضاق به عن ناظريكَ الفَسيحْ[٦٨٢]
وكلُّ أصحابك أودعتَهم ... بحسن تدبيرك بَطْنَ الضَّرِيح
خمسون ألفاً لا ترى منهمُ ... إلا قتيلا أو أسيرًا جَرِيحْ
وفَّقَك الله لأمثالها ... لعلَّ عيسى منكمُ يستريح
وقل لهم إن أضمروا عَوْدَةً ... لأخذ ثأرٍ لو لقصدٍ صحيح
دارُ ابنِ لُقْمان على حالها ... والقَيْدُ باقٍ والطَّواشي صَبيحْ

(٦٨٢) الحين: الهلاك. أدهم: قيد.

obeikandl.com

ويعلق ابن تغري بردي على القصيدة بقوله: "لله دره! فيما أجاب عن المسلمين مع اللطف والبلاغة وحسن التركيب". والقصيدة تمتلئ بالسخرية والتهكم، فقد ظن لويس ظناً كاذباً أن مصر قريبة المنال فإذا من دونها حز رقاب الكثرة من جيشه وأسر البقية في الأغلال. ويسخر منه سخرية قاتلة حين يطلب إليه أن يعيد أمثال تلك الغزوة المشئومة حتى يستريح منهم عيسى وتحز رقابهم جميعاً. ويسخر من البابا ودعوته لهم أن يتجهوا بحملاتهم الصليبية الخاسرة إلى الشرق، ويقول له ساخراً متهكماً: لا تزال دار ابن لقمان التي سجنت فيها على حالها، ولا يزال القيد أو الغل باقياً ولا يزال حارسك صبيح في انتظارك. كلمات مسمومة وكأنها سفود يشويه عليه، مع لطف التعبير ودقته ورهافته ومع الوخز الأليم.

وظل ابن مطروح ملازماً داره إلى أن لبى نداء ربه في مستهل شعبان سنة ٦٥٠ ونراه في السنتين الأخيرتين من حياته طوال مقامه بمنزلة يكثر من الابتهال لربه أن يغفر له، حتى إذا توفي وجد البيتان التاليان في رقعة تحت رأسه:

أَتَجْزَعُ للموت هذا الجَزَعْ ... ورَحْمَةُ ربَّك فيها الطَّمَعْ

ولو بذنوبِ الورَى جِئْتَهُ ... فرَحْمَتُه كلَّ شيءٍ تَسَعْ

ويقول ابن خلكان: "كانت خلاله حميدة جمع بين الفضل والمروءة والأخلاق الرضية، وكانت بيني وبينه مودة أكيدة. وله ديوان أنشدني أكثره". ويبدو أن ديوانه المطبوع لا يحتفظ بجميع أشعاره، ومن أكبر الأدلة على ذلك أننا لا نجد فيه شيئاً من مدائحه في الملك الصالح إلا مقطوعة ذكر فيها عرضا مع أنه ظل في خدمته نحو عشرين سنة. بينما نجد في الديوان غير ملك أو أمير أيوبي، وربما كان حذف مدائحه من

الديوان من صنيع الشاعر نفسه، وكأنما عز عليه أن يعزل من منصبه، فانتقم لنفسه بحذف تلك المدائح.

ومر بنا آنفا أنه نشأت بينه وبين البهاء زهير مودة صافية منذ أيام صباه وشبابه في قوص، حتى كانا كالأخوين، وامتدت بينهما هذه المودة الحلوة طوال حياتهما، وجنيا منها واقتطفا أزهاراً أو ثماراً هنيئة، كما يوضح ذلك ديواناهما وما فيهما من مراسلات شعرية بينهما. وهو مثل صديقه يكثر من شعر الغزل الوجداني غير أنه كان يميل أكثر منه إلى الرمز عن وجده باتخاذه غالباً البدويات رمزا لمحبوباته، وكأنه يريد أن يقرن وجده بوجد مجنون ليلى وأضرابه من شعراء نجد، حيث يبث في وجده وحبه شذا الحنان والشوق الذي يكتظ به من قديم الغزل العذري وما يطوى فيه من حرارة ولوعة، على شاكلة قوله:

هي رامةٌ فخذوا يمينَ الوادي ... وذَروا السيوف تِقُّر في الأغمادِ(٦٨٣)

وحذارِ من لحظاتِ أعينِ عينها ... فلكم صَرَعْن بها من الآسادِ(٦٨٤)

مَنْ كان منكم واثقًا بفؤادِهِ ... فهناك ما أنا واثقٌ بفؤادي

يا صاحبيَّ ولي بِجَرْعاء الحِمَى ... قلبٌ أسيرٌ ماله من فادي(٦٨٥)

سلبتْه مني يوم بانوا مُقْلَةٌ ... مكحولةٌ أجفانُها بِسَواد

وبِحَيَّ من أنا في هواه مَيَّتٌ ... عَيْنٌ على العُشَّاق بالمرصادِ

كيف السبيلُ إلى وصالِ محجَّبٍ ... ما بين بِيض ظُبًا وسُمْر صِعاد(٦٨٦)

---

(٦٨٣) رامة: موضع بالبادية.

(٦٨٤) العين: بقر الوحش.

(٦٨٥) جرعاء الحمى: أرضه ذات الحزونة.

obeikandl.com

حرسوا مُهّفْهَفَ قَدَّهِ بمثقَّفٍ فتشابَه المَّياس بالمَّيادِ(٦٨٧)

وواضح أنه رمز لحبه والتياعه فيه برامة في نجد وظبائها سارحات الأعين اللائي يصرعن بهن الأسد، وقد خلف قلبه أسيراً هناك ولا من يفديه سلبته من عين فاتنة مكحولة أجفانها بسواد آسر، واحد لا يستطيع أن يصل أو يلم بتلك الديار: ديار رامة والحبيبة، فمن دونها سيوف ورماح مسلولة مشرعة، ويعجب أن يحرس قدها الرشيق المتبختر المختال يرمح مشبه لها مياد أو أميَّال. ويقول:

سَفَرتْ وجاءتْ في الغَلائل تَنْثَني فأرتْك حظَّ المجتلي والمجتني
ورنَتْ فما تُغْنِي التمائمُ والرُّقى وأبيك عن لحظاتِ تلك الأعين
بدويَّةٌ كم دونها من ضاربٍ بالسيف مرهوبِ السُّطَا لم يؤمَنِ
لا يخدعَّنك لحظ طَرفٍ فاترٍ أبدًا ولا تأمنْ لعطفةِ لَيِّنِ
أَلْبَسْتني يا هاجري ثوبَ الضَّنا وأخذتَني يا تاركي من مَأْمَنِي

لقد رفعت عن وجهها نقابها فشغفت قلبه حبا وافتتانا، ومدت بصرها إليه فوقع في حبائل أعينها مسحوراً ولم تعد تغنيه التمائم والرقى، وإنها لبدوية أعرابية تحميها السيوف المرهفة. وينصح صاحبه أن لا تخدعه العيون الناعمة ولا القدود اللينة عما يسببان له من الآم وأوصاب دون أن يذوق شيئاً من وصال، ويشكو لصاحته البدوية ضناه وتباريح حبه، يقول:

خذوا حِذْركم من طَرْفها فَهْوَ ساهِرُ وليس بناج من دَهَتْهُ المحاجِرُ
فإن العيون السودَ وهْي فواترٌ تقدُّ السيوف البِيضَ وهْي بَوَاتِرُ

---

(٦٨٦) الظبى: جمع ظبة: حد السيف. الصعاد: جمع صعدة: القناة أو الرمح.

(٦٨٧) المياس: المتبختر. الميادِ: المتايل، والمثقف: الرمح.

ولا تُخْدَعوا من رقَّةٍ في كلامها فإن الحمَّيا للعقول تُخامِرُ
من القاصراتِ الطَّرْف غارتْ لحسنها ضَرائرُها والنيَّراتُ الضَّرائرُ
إذا ما اشتهى الخَلْخَالُ أخبارَ قُرْطها فيا طيب ما تُمْلِي عليه الضَّفائرُ

وهو يحذر من طرف صاحبته، فالسهام دائمة مصوبة منه، ومن تصبه محاجرها تصمي قلبه، ويا للعجب فإن العيون الفاترة الناعمة تقد السيوف الباترة القاطعة، ويحذر من رقة كلامها المعسول فهو كالخمر يذهب بالعقول. ويقول إنها عفيفة مصونة، تغار من حسنها الفاتن قريناتها الحسناوات الكواكب النيرات. والصورة في البيت الأخير رائعة، فضفائر شعرها تطول حتى تلمس خلخالها وكأنما تحدثه بأخبار قطرها، ومن غزله في بواكير حياته:

خدٌّ توقَّد إذ ترقرقَ ماؤُه لَهْفِي على المتوقِّدِ المترقرقِ
حتى الحليُّ لحُسْنها متوسوسٌ فاعجبْ لحسنٍ للجهاد منطِّقِ
يا شمسُ قلبي في هواكِ عُطاردُ لولا تعُّرضه لها لم يُحْرَقِ
لم أنس ما قالتْ وقد لمستْ يدي ماذا لقينا منه أو ماذا لقى
وأقول يا أختَ الغزالِ ملاحةً فتقول لا عاش الغزالُ ولا بقى

يقول إن خد صاحبته المتوهمة حمرة كأنه نار موقدة، وماء جماله ونضرته يتلألأ فيه ويترقرق، مما يملؤه فتنة به ولهفة عليه. ويقول إن حسنها ينطق حتى الجماد، وما وسوسة حليها إلا إعجاب منه بها، وها هو قلبه قد احترق من تعرضه لشمس حسنها كما احترق عطارد أقرب الكواكب السيارة للشمس من تعرضه لنورها الحار المشتعل، ويذكر رقة قلب صاحبته وأنها حين لقيته وسلمتْ أظهرت له عطفا وشفقة، حتى إذا

obeikandi.com

شبهها بالغزال حسناً وملاحة قالت له مدلة: لا عاش الغزال ولا بقى، فهي أكثر منه فتنة وسحرًا وجمالا. ويقول:

هَزُّوا القُدودَ وأرهفوا سُمْرَ القَنا ... واستبدلوا بدلَ السيوفِ الأعْيُنَا

وتقدَّموا للعاشقين فكلُّهم ... أخذ الأمانَ لنفسه إلا أنا

لا خيرَ في جَفْنٍ إذا لم يكتحِلْ ... أرَقاً ولا جسم تجافاهُ الضَّنا

لما انثنى في حُلَّةٍ من سُنْدُسٍ ... قالتْ غصونُ البانِ ما أبقى لنا

شّبَّهْتُه بالبدر قال: ظلمَتني ... - يا عاشقي والله – ظلما بَيَّنا

وهو يتصور هؤلاء الفاتنات كأنهن يقدن معركة رماحها قدوهن وسيوفها عيونهنَّ وكل من حوله يطلب منهن الأمان إلا هو، فقد تعلق بإحداهن، وهو لا يرى الحياة قيمة بدون الحب والسهاد فيه وضنا الجسم والنحول. ويرى صاحبته في حلة سندسية خضراء، فيتصور كأن غصون شجر البان الذي طالما تغني به المحبون تقول: ما أبقت لنا من الحسن والنضرة والجمال، ويشبهها بالبدر فتقول له مدلة كصاحبته السابقة: ظلمتني ظلما بينًا فهي أكثر منه جمالاً وحسناً وروعة. ومن أبياته البديعة التي تتداولها كتب الأدب قوله في بعض غزله.

لبسنا ثيابَ العناقِ ... مزرَّرةً بالقُبَلْ

ولعل في كل ما قدمت ما يصور غزل ابن مطروح الوجداني وما أشاع فيه من الرقة واللطف والدماثة والظرف وعذوبة الروح وخفة الظل.

obeikandl.com

برهان[٦٨٨] الدين القيراطي

هو إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن عسكر، ولد لأبيه سنة ٧٢٦. والقيراطي نسبة إلى قيراط بلدة بمحافظة الشرقية سميت فيما باسم كفر النحال وضمت إلى مساكن مدينة الزقازيق، كان أبوه شيخاً جليلاً ولي القضاء بالمنوفية ودمياط وأسيوط، ودرس في مدرسة كانت تجاور الإمام الشافعي وبمشهد السيدة نفيسة والجامع الأزهر توفي سنة ٧٤٠. ونشأ برهان الدين بالقاهرة وحفظ القرآن الكريم واختلف إلى حلقات العلماء إلى أن برع في الفقه وعلمي الأصول والعربية وأكبَّ على كتب الحديث وأخذها عن أئمتها، ودرس وحدث بالقاهرة. واستيقظت فيه مبكرة موهبته الشعرية، فكان ينظم المدائح ويدبجها في السلطان حسن وغيره، وسلك في شعره طريقة ابن نباتة، وتلمذ له وراسله. وله في وصف شعره ونثره تقريظ بديع احتفظ بفقرات منه الحموي في باب الاقتباس بخزانته. ويقول ابن تغري بردى في ترجمته بالمنهل الصافي: "هو شاعر عصره بعد الشيخ جمال الدين بن نباتة وأقرب الناس إليه من دون تلامذته ومعاصريه من شعراء عصره، مع علمي بمن عاصره من الشعراء ولا حاجة لنا إلى ذكرهم فإنه أرق وأحلى وأرشق". ويقول ابن حجر: "كان له اختصاص بالشيخ السبكي وأولاده

---

(٦٨٨) انظر في ترجمة برهان الدين وأشعاره المنهل الصافي لابن تغري بردي (طبع دار الكتبا ملصرية) ١/ ٧٠ والنجوم الزاهرة ١١/ ١٩٦ وطبقات الشافعية للسبكي ٩/ ٣١٤-٣٩٨ و١٠/ ٣٣١ والدرر الكامنة لابن حجر ٢/ ٣٢ وشذرات الذهب لابن العماد ٦/ ٢٧٠ والعقد الثمين في تاريخ البلد الأمين لتقي الدين الفاسي (طبع القاهرة) ٣/ ٢١٧. وله ديوان أسماه مطلع النيرين طبع بمصر سنة ١٢٩٦هـ ومنه عدة مخطوطات بدار الكتب المصرية.

obeikandl.com

وله فيهم مدائح ومراثي وبينهم مراسلات" ويقول ابن العماد في الشذرات: "له في تاج الدين السبكي غرر المدائح" واحتفظ تاج الدين في كتابه "طبقات الشافعية" بمراسلات بينه وبين القيراطي استغرقت نحو ثمانين صحيفة، وأنشد مرثية له في أبيه مطلعها:

أمسى ضريحُك موطنَ الغفرانِ ومحلَّ وَفْدِ ملائكِ الرحمنِ

ورأى أن يجاور بمكة مثل كثيرين من علماء عصره وقبل عصره، فرحل إليها، وأخذ عنه جماعة من علمائها والقادمين عليها ورووا عنه ديوانه. ويذكر ابن حجر بعض تلاميذه من جلَّة المحدثين في القاهرة أمثال شيخ الحفاظ أبي الفضل العراقي والشيخ بدر الدين البَشْتكي، وفي مكة أمثال جمال الدين بن ظَهيرة وتقي الدين الفاسي المذكور في مصادره، وقد كتب عنه بعض شعره وأجاز له روايته، وما زال طلاب علمه وشعره يعكفون على حلقته بمكة حتى توفي بها سنة ٧٨١. ولبرهان الدين غزل وجداني كثير، أو كما يسميه البهاء زهير غزل على الطريقة الغرامية، غزل يقدمه صاحبه لمحبوبته مؤملاً في الوصال، ودائماً لا وصال بل دموع وأشواق ووصف للصبابة والغرام والوجد الذي لا تنطفئ ناره في قلوب أصحاب هذا الغزل، مع مشاعر غامرة من اللطف والرقة، ومع الألفاظ والأساليب الرشيقة من مثل قوله:

بأبي لحظُ غزالٍ قائلِ في الفلواتِ(٦٨٩)
أخذتْ بابلُ عنه بعضَ تلك النَّفثاتِ
حسناتُ الحدَّ منه قد أطالتْ حَسراتي

(٦٨٩) قائل: من القيلولة وهي وسط النهار، وفعله قال يقيل.

obeikandl.com

أعشقُ الشاماتِ منه وَهْيَ أسبابُ مماتي
إنَّ للموت بأقدا ح جفوني سكراتِ
قلت قد مِتُّ غراما قال لي مَتْ بحياتي

والأبيات تتطاير عن الفم بخفة، وهو يشكو من لحظة غزال يـدوي يقـضي أوقـات قيلولته في الفلوات، غزال ينفث في كل ما حوله السحر، بفتنته وجمـال وخـدوده التـي ملأت قلب الشيخ حسرات، لأنه يتمنى الدنو منها ليتملى بحسنها وما فيها من شامات تزيدها حسنا وجمالا، وإنه ليذوب – أو كما يقـول – ليمـوت وجـدا والتياعـا، وتلـك سكرات الموت تملأ أقداح جفونها، ويتضرع إليها قائلا إنـه مـات غرامـا، فتـضحك في خبث مدلة عليه قائلة له: "مت بحياتي" ومن نفس هذا العين المتدفق السلس يقول:

غرامي فيكِ يا قمري غريمي وذكْرُكِ في دُجَى ليلى نديمي
وملَّنيَ الحميمُ وصدَّ عني ومالي غير دمعي من حَميم
وكم سأل العواذل عن حديثي فقلت لهم على العهد القديم
وعمَّ يسائلون ولي دموعٌ تحدَّثُهم عن النّبَأ العظيم
بدتْ في خدَّها شاماتُ مسْكٍ كحظي أو كلَيْلي أو همومي
إذا نيرانُ خَدَّيْهَا تبدَّتْ رأيتُ بهنَّ جَنَّاتِ النَّعيم
ومن شغفي بِغُصْن القَدَّ منها أغارُ على الغُصون من النسيم

وكأني بصاحبته في الأبيات هي نفـس صـاحبته الأولى، ويقـول إن غرامهـا غريمـة وذكرها نديمة طوال الليل، والتورية في البيت الثاني بديعة فقد ملَّه الحميم والصديق في حب صاحبته، ولم يبق له إلا دمعة الحميم الحارير افقه. ويـسيل البيـت الثالـث صـفاء وعذوبة مع ما فيه من الجناس وكذلك البيت الرابـع ومـا بـه مـن اقتبـاس عـن سـورة

obeikandl.com

"النبأ" وتعجب أن يتساءلوا ودموعه تجري على خدودها، ويقول إن شامات خـدودها الضاربات إلى السواد كأنها نقط مسك أو كأنها مقتطعة من حظه معها أو من ليله أو من هموم حبها المشتعل في حنايا صدره. ويعجب أن يجمع خداها بجمرتهـا المتوهجـة بـين نيران الحجم حرارة وجنات النعيم ورودها الفاتنة. ويعلن غيرته عليها حتى ليغار مـن النسيم إن هب على ما يشبه غصنها من غصون الرياض النَّاضرة. ويقول:

يا مَنْ هجرتُ على هواهم عاذلي ... أيَحِلُّ في شَرْع الهوى أن أُهْجَرَا
طلعتْ بدورُ التَّمِّ من أَزْراركم ... فغدا اصطبارُ الصَّبِّ مُنْفَصِمَ العُرَا
من كل هَيْفَاء القَوام كأنها ... غُصْنٌ يحرِّكُه النسيُم إذا سَرَى
ذُكرتْ فصغَّرها العَذولُ جهالةً ... حتى بدتْ للناظرين فكَّبرا
وجهلتُ معنى الحسن حتى أقبلتْ ... فرأيته فيها يلوحُ مصوَّرا
لما درتْ أني الكليم من الهوى ... جعلتْ جوابي في المحبة لن ترى[٦٩٠]
يا مَنْ إذا ما مَّر حُلْوُ حديثها ... أغناك عن مُرَّ العتيق وأسكرا[٦٩١]
أرخَصْتِ يوم البَيْن سِعْرَ مدامعي ... وتركتِ قلبي بالغرام مسعَّرا[٦٩٢]

وهو يتضرع إلى صاحبته أن لا تذيقه ألم الهجران وأن تنقذه منه، فقـد نفـد صـبره إذ رآها مع صواحبها الفاتنات وهن يمسْنَ مَيْسَ الغصون حين يداعبها النسيم، ويقول إن العذول كان يحاول الغض من جمالها تسرية عن نفسه فلما رآها بهت وصـاح. الله أكـبر:

---

(٦٩٠) الكليم: الجريح. لن ترى: لن تراني.

(٦٩١) يريد بالعتيق الخمر المعتقة.

(٦٩٢) في مسعر تورية لأنها إما من السعر وهو المعنى المتبادر غير المراد، وإما مـن الـسعير أي الجحـيم وهـو المعنى المراد.

obeikandl.com

أما هو فيرى فيها كل معاني الفتنة مصّورة مغرية. ولما علمت مقدار وجده المبرح بها لم يأخذها عليه إشفاق أو رحمة، بل مضت تُدِلّ عليه، وتقول له: لن تراني. ويعود إلى ندائها والتضرع إليها مصورا روعة حديثها وحلاوته المسكرة، ويقول لها: لقد أرخصت مدامعي وأسعرت قلبي أو أشعلته نارا موقدة. وفي البيتين الأخيرين طبقا وجناس مندمجان في هذا الأسلوب السهل السائغ، ويقول:

علموا بأنِّي لا أحولُ فعذَّبوا ... وَدَرَوْا بأني عاشقٌ فتغضَّبوا(٦٩٣)

قتلوا المتَّيم في الهوى وتظلَّموا ... وجَنوا عليه بصدَّهم وتعتَّبوا

ومهفهفٍ لولا حلاوةُ وجههِ ... ما كان مُرُّ عذابِهِ يُسْتَعْذَبُ

إن كان يرضى أن أموت صبابةً ... فجميعُ ما يرضاه عندي طيِّبُ

يا باخلاً وله أجُودُ بهجتي ... رِفْقًا على صَبٍّ عليك يعذَّب

إنْ مِلْتَ فالأغصانُ يُعْهَدُ مَيْلُها ... أو غِبْتَ فالأقمار قد تتغيَّب

وهو يقول إن صاحبته عرفت أنه لا يستطيع حِوَلاً عنها فتمادت في تعذيبه، ولم ينفعه عندها عشقه. فقد أظهرت له سخطا وغضبا، ومع أنها فتكت بمحبها تشتكي منه ظلما وجورا. وما تزال تتجنى عليه، ويقول إن جمال وجهها هو الذي جلب له هذا العذاب المرير، وإنه ليستعذبه إرضاء لها. حتى ليطيب له الموت في سبيلها. ويقارن بينه وبينها، فهو يجود لها بروحه، وهي شحيحة شحا شديدا، لا تجود له حتى بنظرة، ويعلل نفسه قائلا: إن مالت عنه فذلك طبيعي، لأنها غصن رشيق، وطبيعة الأغصان أن تميل مع الرياح، وكذلك إن وعدته وغابت فطبيعة الأقمار أن تغيب عن الآفاق.

---

(٦٩٣) أحول: أتحول

obeikandl.com

وكان القيراطي يكثر من التوريات، واختار له ابن حجة الحموي منها فصلاً[٦٩٤] طريفاً أودعه خزانته، من مثل قوله:

تنفَّس الصبحُ فجاءتْ لنا ... من نحوه الأنفاسُ مِسْكيَّه
وأطربتْ في العود قُمْريةٌ ... وكيف لا تُطْرِبُ عُودَيَّهْ

وعوديَّة لها معنيان: القمرية التي تطرب على عود الشجر، والمغنية الضاربة على العود، والتورية واضحة. ولعل فيما سبق ما يوضح الغزل الوجداني أو الغرامي عند القيراطي، وكان – كما أسلفنا – شيخا من شيوخ الحديث النبوي في عصره، وكان طلابه يختلفون إليه في أخذه عنه بالقاهرة ومكة. ولا ريب في أن إسهام مثله في هذا الغزل يدل دلالة قاطعة على أن موجته بمصر في هذا العصر كانت حادة وأنها عمت حتى شيوخ الحديث وحفاظه من أمثال القيراطي. وراءه كثيرون من الشيوخ الفقهاء والمحدثين المصريين خلفوا دواوين تحمل سيولا من هذا الغزل الوجداني الرقيق أمثال بان دقيق العيد وابن الصائغ الحنفي وابن حجر.

نور الدين[٦٩٥] على العُسَيْلي

من علماء مصر وفضلائها وشعرائها في القرن العاشر الهجري توفي سنة ٩٩٤ للهجرة وكان فقيها شافعيا تتلمذ لشيوخ الأزهر، وأظهر براعة في فنه، وعكف على التأليف والتدريس، وفيه يقول الشهاب الخفاجي: "نور حدقة الزمان ونَوْر (زهر)

---

(٦٩٤) خزانة الأدب للحموي ص٣٨١.

(٦٩٥) انظر في نور الدين العسيلي وترجمته ريحانة الألبا (تحقيق عبد الفتاح الحلو) ٢/ ١٩٧ وما بعدها شذرات الذهب ٨/ ٤٣٤.

obeikandl.com

حديقة الحسن والإحسان وكحل عيون الفضلاء والأعيان" وعاش طويلاً، وتعلق بأخرة السادة البكرية، فقابله الدهر – كما يقول الشهاب الخفاجي – بوجه طليق. ويبدو أن موهبته الشعرية تفتحت مبكرة، فقد غطَّى اشتهاره بشعره على شهرته بالعلم والفقه والفضل، وغلب عليه الغزل من مثل قوله:

سَقَى الحِمَى ولياليه التي سَلفتْ ... من أدمعي ومن الوَسْمِيّ هَتَّانُ(٦٩٦)
لي في الديار سقاها المزن صَيَّبُهُ ... غزالُ حُسْنٍ بديع الخلق فتَّانُ(٦٩٧)
يا رَبْرَبَ الحسن قد بالغتَ في تلفي ... أما لهجركِ يالَمْيَاءُ هجرانُ(٦٩٨)
هلا نظرتِ إلى مُضْناكِ راحمةً ... فكان يشفع منك الحسنَ إحْسَانُ

وهو لا يمل الدعاء بأن يُسْقَى الحمى ولياليَ حبه فيه أمطار الربيع ودموعه الهاطلة أبدا ففي الديار غزال سحره وخلب لبه. ويهتف بسرب الحسن أن يلتفت إليه وبصاحبته لمياء أن تصله بعد طول الهجر والعذاب، حتى ولو بنظرة عطف وإشفاق على مضناها الذي طال عناؤه وشقاؤه وحرمانه. ويقول:

كأنَّ الذي أهَوى على نفسه جَنَى ... فمال على تلك المحاسن بالفَتْكِ
فأغرق خَدَّيه بماءِ جمالهِ ... وأوقع في الظَّلْماء ناظرَه التُّركي
وها جَفْنُه يبكي عليه من الضَّنَا ... وها خَصْرُهُ من ثِقْل أردافه يُشْكي

وهو يجعل المحبوب التركي جانبًا على نفسه، فقد أغرق خديه في ماء جماله أو بعبارة أخرى في رونق حسنه، وكأنما كحل ناظر الأسود بالظلام الداجي فلمع بريقه، ويتخيل

---

(٦٩٦) الوسمي: مطر الربيع. هتان: هطال.

(٦٩٧) المزن: السحاب. صبيه: مطره.

(٦٩٨) الربرب: القطيع من الظباء أو البقر الوحشي والاستعارة واضحة.

كأنما جفنه يبكي على ضناه وكأنما خصرهُ يشكو من ثقل أردافه، وقد استعمل يشكي مثل العامية بدلاً من يشكو الفصيحة، ويقول في إحدى الجواري.

دَبَّتْ له ذُؤابةٌ كحيَّةٍ من خَلْفِهِ
تحمي ضعيفَ خَصْرِه من خارجيَّ رِدْفِهِ

وهو يشبه الضفيرة بحية وكأنها تحمي خصره من ثقل ردفه، وقد عبر عنه بأنه من الخوارج مبالغة، ويقول:

كل فعال الحب محمودة وإن تجافي وتجني وتاه
فوصله قطع لداء الآسى وهجره قطع لقول الوشاه

فهو يرتضي من محبوبته حتى هجرها ليقطع ألسنة الوشاة، وهو جانب فيه من التظرف والرقة ورهافة الشعور ما يمتاز به أهل القاهرة، وله قصيدة بديعة في دولابٍ (ساقية) روض صَّورة فيها ينوح ويئن دائما لفراقه روضَه إذا كان شجرة ضخمة في إحدى الرياض قطَّع أوصالها غبي ودقَّ الحق أنه كان شاعرا بارعا، ومر بنا أنه يكون مع تلميذه يحيي الأصيلي وتلميذ يحيي الشاعر يوسف المغربي مدرسة في الغزل زمن العثمانيين كانت تمتاز بدقة الحسن ورهافة الشعور.

obeikandl.com

٢

شعراء الفخر والهجاء

الفخر والهجاء غرضان قديمان من أغراض الشعر العربي، فمنذ الجاهلية يتغنى الشعراء بمفاخرهم الذاتية ومفاخر قبائلهم وأقوامهم، وبالمثل يتغنون بأهاج فردية تتصل بفرد بعينه، وأخرى جماعة تتصل بالقبائل والأقوام ومثالهم. ولا ريب في أن وتر الفخر الذي شده الشعراء إلى قيثارتهم كان وترا خصبا، إذ وقع الشعراء عليه كثيرا من الألحان الخلقية الرفيعة، مما يتصل بالمروءة والكرم والوفاء والكرامة وغير ذلك من الفضائل الحميدة، كما وقعوا عليه كثيراً من الألحان الحماسية التي تصور بسالتهم الحربية وما أذاقوه أعداءهم من الهزائم الساحقة. وظلت هاتان المجموعتان من الألحان طوال الحقب التالية، وظل العرب في كل مكان يرددونها صحائف تربية مثالية وأناشيد حربية حماسية. وشعراء مصر منذ نشط فيها الشعر يشاركون في المجموعتين، يشارك فيها الأمراء وأبناء الشعب، من ذلك قول العباس بن أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية:(٦٩٩)

لله دَرِّيَ إذْ أَعْدُو على فَرَسِي ... إلى الهياج ونارُ الحربِ تَستَعِرُ

وفي يدي صارمٌ أَفْرِي الرءوسَ بهِ ... في حَدِّه الموتُ لا يُبْقى ولا يَذَرُ

والبيتان من قصيدة حماسية ملتهبة، ومعروف أنه أخطأ في هذه الحماسة وما اقترن بها من شجاعة، إذ وجَّهها إلى أبيه ثائرا عليه. وأخفقت ثورته. وينزل مصر في أيام كافور

---

(٦٩٩) النجوم الزاهرة ٣/ ٢١.

obeikandi.com

الإخشيدي المتنبي، وتستدير حوله ندوة كبيرة تروى شعره وتتدارسه وكلَّ ما فيه من فخر مضطرم وحماسة ملتهبة. وتستقبل مصر الدولة الفاطمية ويدخلها العز الفاطمي، ومعه ابنه الشاعر النابه تميم، وله فخر كثير، وسنفرد له ترجمة عما قليل، ونلتقي بعده بولي الدولة بن خيران صاحب ديوان الإنشاء بمصر في عهد الظاهر والمستنصر المتوفى سنة ٤٣١ ونراه يبدئ ويعيد في الفخر بشعره وكتاباته من مثل قوله:[٧٠٠]

ولقد سموتُ على الأنام بخاطرٍ ... اللهُ أَجْرَى منه بَحْرًا زاخرا
فإذا نظمتُ نظمت رَوْضًا حاليًا ... وإذا نثرتُ نثرت دُرًّا فاخرا

فهو يفتخر بخواطره الغزيرة التي تنسكب من ذهن كأنه بحر زاخر، وهو يهدي منها إلى الناس والآفاق أشعارا رائعة ورسائل بديعة. ونلتقي بغير شاعر فاطمي يفخر بنفسه فخراً حماسياً ملتهباً على شاكلة قول الحسن بن زيد الأنصاري:[٧٠١]

منالُ الثُّريَّا دون ما أنا طالبُ ... فلا لومَ إن عاصَتْ علىَّ المطالبُ
وإني وإن لم يسمح الدهرُ بالْمُنَى ... فلي في كَفالات الرماح مآربُ
تُقَرِّبُ لي مُسْتَبْعداتِ مطالبي ... جيادي وعَزْمي والقَنا والقواضِبُ

فما يطلبه ويتمناه فوق الثريا في أعلى عليين من السموات، وطبيعي أن لا تناله يده أحيانا، ومع ذلك فهو لا ييأس أن ينال من الدهر مطالبه ومآربه بفضل رماحه وجياده وسيوفه القواضب القاطعة وعزمه الذي لا يفل، إنه مملوء فتوة وقوة صلبة ينيلانه كل ما يتمنى. وكان يعاصره الرشيد بن الزبير أخو المهذب الذي ترجمنا له في الفصل الماضي

---

(٧٠٠) معجم الأدباء ٤/ ٨.

(٧٠١) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٢/ ٦٩.

وقلنا هناك إنه وقت لأخيه الرشيد يستعطفه لأخيه بقصيدة رائعة، رد عليها بمجرد سماعها حريته، إذ عفا عنه وأطلقه، ونرى الرشيد يعلن في قوة أن نفسه لم تنكسر ولم يصبها أي وهن بسبب هذا الحادث، يقول:(٧٠٢)

جَلَّتْ لديَّ الرَّزايا بل جَلَتْ هِمَمِي ... وهل يضرُّ جلاءُ الصارم الذَّكرِ
لو كانت النارُ للياقوت محرقةً ... لكان يَشْتبه الياقوتُ بالحجرِ
لا تُغْرَرَنَّ بأطماري وقيمتها ... فإنما هي أصدافٌ على دُرَر
ولا تظنَّ خفاءَ النجم من صِغَرٍ ... فالذَّنْبُ في ذاك محمولٌ على البصرِ

وهو يقول إنه تحمل الرزايا والمصائب به جَلْدًا شجاعا، بل لقد جلت همته جلاء السيف الباتر، ويضرب مثلاً بالياقوت فالنار مهما اضطرمت لا تحرقه، وإلا كان حجراً لا غناء فيه. وينظر إلى أطماره وثيابه البالية فيقول لصاحبه: لا تغرنك هذه الأطمار الخلقة فإنها أصداف وقشور وأغطية للآلئ ثاقبة، ويضرب مثلا بالنجم في السماء تستصغر الأبصار رؤيته، والذنب في الصغر للبصر لا للنجم.

ونمضي إلى زمن صلاح الدين وما حققت مصر في أيامه من مجد حربي عظيم بسحقها الصليبيين في ديار الشام واستخلاص بيت المقدس وغيره من أيديهم ومحقهم محقا لا يكاد يبقى منهم ولا يذر. وكان لابد لمصر من شاعر يتغنى لها بهذا المجد البطولي الذي توجها به صلاح الدين، وتغنى ابن سناء الملك أكبر شعرائها حينئذ ببطولة صلاح الدين وجنده المصريين في قصائد حماسية مضطرمة، كما مر بنا في ترجمته، وليس ذلك فقط، فقد مضى يفخر في أشعاره فخرا عارما، وكأن كل ما تجمَّع في صدر صلاح الدين

---

(٧٠٢) ابن خلكان ١/ ١٦٢.

obeikandl.com

وأبطال جيشه من أحاسيس تجمَّع في صدر ابن سناء الملك وقلبه، فإذا هو يتغنى بمثل هذا النشيد الرائع:[٧٠٣]

سوايَ يخاف الدهَر أو يرهبُ الرَّدَى ... وغيريَ يَهْوَى أن يكون مخلَّدا
ولكنني لا أرهبُ الدهَر إن سَطا ... ولا أحذرُ الموت الزُّؤامَ إذا عَدا[٧٠٤]
ولو مدَّ نحوي حادثُ الدَّهْرِ طَرْفَهُ ... لحدَّثتُ نفسي أن أمدَّ له يَدَا
توقِّدُ عَزْمِي يترك الماءَ جمرةً ... وحِلْيَةُ حِلْمِي تترك السيفَ مِبْرَدا
وأَظْمأُ إنْ أبدي ليَ الماءُ مِنَّةً ... ولو كان لي نَهْرُ المجَّرة موردا
ولو كان إدراكُ الهدى بتذَلُّلٍ ... رأيتُ الهُدَي أن لا أميلَ إلى الهُدَى
وإنك عَبْدي يا زمانُ وإنني ... على الكُرْهِ مني أن أُرَى لك سيِّدا
ولو علمتْ زُهْرُ النجوم مكانتي ... لخَرَّتْ جميعاً نحو وجهيَ سُجَّدا

وكأنه لم يعبر في هذه الأنشودة الفريدة عن شعور كل مصري لزمنه حمل السلاح وسفك به دماء الصليبيين المعتدين الآثمين فحسب، بل لقد عَّبر بها عن شعور كل مصري على مر الزمن بأمجاد أمته الحربية والحضارية. وإنه ليشمخ بنفسه في أعلى الأفلاك والسموات، فإذا هو لا يرهب الدهر ولا يرهب الموت الزؤام، ولو مدا لدهر طرفه إليه لنازله بعزم صادق يُشْعل الماء جمرا ملتهبا ويرد السيف كليلا صَلْدًا لا يقطع. ويمتلئ صدره بإحساس الكرامة، حتى إنه ليظمأ إن أبدى له الماء منة، بل إنه ليموت ظمأ حتى لو كان نهر المجرة مورده وحقق له وروده كل ما أمله، وحتى الهدى لو كان إدراكه بشيء من الهوان لرفضه. ويبلغ من استصغاره للدهر وأحداثه أن يشعر في قوة

---

(٧٠٣) الديوان ص١٦٥.

(٧٠٤) الزؤام: السريع.

بسيطرته عليه حتى كأنما ذلَّ له ودان، بل حتى كأنما أصبح له عبدا مسترَقًّا، وهو مع ذلك يشعر في كبرياء بتعاظم شديد عليه، حتى ليقول إن النجوم الساطعة لو رأت وجهه لخرت ساجدة تقدم له التراتيل، وكأنما تجسدت في روحه مصر الخالدة الجديرة بكل تقديس.

ومن طريف ما يلقانا من الفخر بعده فخر ابن نباتة الكثير بشعره وكان حاملَ لواء الشعر في زمنه، ومن قوله:

من مبلغُ العُرْب عن شعري ودولتِه ... أنَّ أبن عَبَّادَ باقٍ وابنَ زيدونا
إذا رأيت قوافيها وطَلْعَتها ... فقد رأتْ مقلتاك البحَر والنُّونا
كأنَّ ألفاظها في سمع حُسَّدها ... كواكبُ الرَّجم يَحْرقن الشياطينا

وهو يقول إن من سمع شعره عرف أن الأندلس لم تُنْسَ، فلا تزال حية نضرة ولا يزال شعراؤها العظام من أمثال المعتمد بن عباد أمير إشبيلية وشاعره الوجداني ابن زيدون. وقد روى في البحر والنون يريد بهما بحر الشعر ونون القافية في القصيدة لا الحوت، ويسمِّى حساده باسم الشياطين تسقط عليهم أبيات قَصيده كشهب الرَّجْم فيحترقون ويستحيلون رمادا تذروه الرياح. وقلما نلتقي في الحقبة العثمانية بفخر إلا ما يتصل بالشمائل والأخلاق الكريمة.

ومنذ سال الشعر على ألسنة المصريين سال معه هجاء كثير، وكان الشعراء يقذفون بسهامه – كما مر بنا في غير هذا الموضع – الولاة والقضاة كلما انحرفوا عن الصراط السوي على نحو ما يصور ذلك كتاب الولاة والقضاء للكندي. ومعروف أن أحمد بن طولون استقل بمصر وأسس بها الدولة الطولونية، وضم إلى لوائه الشام، وله أعمال

مجيدة كثيرة، ولم يكن يخلو منه ظلم وعسف وسفك للدماء كما يقول ابن تغري بردي وفي كتاب الولاة والقضاة شاعر يسمى محمد بن أبي داود كان كثيراً ما يهجوه مزريا على ما شاده من المارستان وغير المارَسْتان، وفيه يقول من أشعار مقذعة كثيرة حتى بعد وفاته:

وكم ضَجَّةٍ للناس من خَلْفِ سِتْرِهِ تضجُّ إلى قلبٍ عن الله مُغْفَلِ

فقلبه غافل عن ذكر ربه وعن حوائج الناس وهم يضجون خلف حجابه وحرسه. ولا نشك في أن ابن أبي داود ظلم ابن طولون، فقد كان يعني بالرعية وبنى جامعه المشهور وعهد إلى بعض العلماء بالتدريس فيه. وأهاجي المتنبي في كافور الإخشيدي مشهورة، وقد ظلمه بدوره ظلما بيَّنا. وكان المصريون قد احتفوا به حين نزوله في الفسطاط وعقدوا له ندوة كبيرة ظلت طوال مقامه بين ظهرانيهم، وممن لزمه فيها وروى عنه شعره صالح بن رشدين، وعبيد الله بن أبي الجوع وله نقائض وأهاج مع صالح بن مؤنس، وله يقول صالح:(٧٠٥)

هاجيك فيما قاله مادحٌ فأنت في صَفْقتك الرابحُ
يا أيها الصَّعْوُ الذي لم يزل يرقص حتى دقَّه الجارِح(٧٠٦)

وهو يسمى هجاءه له مدحا لأن فيه ذكرا له، ومثله ليس شيئاً حتى يذكر، ويقول له إنك عصفور صغير لا يزال يرقص على الأغصان من غصن إلى غصن حتى يدق عنقه صقر أو نسر جارح. ونمضي إلى زمن الدولة الفاطمية وما أخذت تنشره من عقيدتها

---

(٧٠٥) اليتيمة ١/ ٣٨٩.

(٧٠٦) الصعو: العصفور الصغير.

obeikandl.com

الشيعية الغالية الرافضة. وما زعمته للأئمة من نسبةٍ إلى عالم القدس وأنهم من جوهر روحه مصفي وأنهم يعلمون الغيب مما عرضنا له في غير هذا الموضع. ويروى أن الخليفة العزيز بن المعز صعد المنبر في يوم جمعة، فرأى ورقة كتب فيها شاعر مصري هذين البيتين:(٧٠٧)

بالظلم والجَوْر قد رَضينا ... وليس بالكُفْر والحماقَةْ
إن كنتَ أُعطيت عِلْمَ غَيْبٍ ... فقُلْ لنا كاتب البطاقة

فتناولها العزيز وقرأها ولم ينبس ببنت شفة.

وظل شعراء مصر طويلا مغاضبين لهذه الدولة معرضين عنها، كما أسلفنا، وكان مما أثار حفيظتهم بالإضافة إلى نحلتها المنحرفة اتخاذها وزراء لها من اليهود ممن أعلنوا إسلامهم، وكان كثير من المصريين يشك في صحة إسلامهم وأنهم يتخذون ذلك ذريعة للاستيلاء على الوزارة والمناصب الكبرى في الدولة، وكان منهم صدقة بن يوسف الفلاحي وزير الخليفة المستنصر واتخذ أبا سعد التّسْتُرِيّ اليهودي مدبرا للدولة معه فصاح أحد الشعراء المصريين بالخليفة ساخرا غاضبا:(٧٠٨)

يهودُ هذا الزمانِ قد بلغوا ... غايةَ آمالهم وقد ملكوا
العزُّ فيهم والمال عندهمُ ... ومنهمُ المستشارُ والملك

وهي سخرية من المستنصر قاتلة، مما اضطره إلى النزول على إرادة الشاعر والشعب، فاعتقل الوزير الفلاحي ولقي حتفه على يده. وعلى نحو ما كان المصريون يتعرضون

---

(٧٠٧) النجوم الزاهرة ٤/ ١١٦.

(٧٠٨) حسن المحاضرة ٢/ ٢٠١.

للفاطميين بالهجاء كانوا كذلك يتعرضون لوزرائهم هاجين هجاء مرًّا على نحو ما هجا الشاعر جاسوس الفلك الجرجرائيّ وزيرَ المستنصر وكان أقطع اليدين لخيانة ظهرت عليه في أيام الحاكم، فلما ولي الوزارة استعمل الأمانة الزائدة والاحتراز الشديد فخاطبه جاسوس الفلك قائلاً:(٧٠٩)

يا أحمقًا إسمعْ وقْلْ ... ودَع الرقاعةَ والتحامقْ
أمن الأمانة والتقُّى ... قُطِعَت يداك من المرافق

ولم يكن الوزير مصري الأصل بل كان من جَرْجرايا من أرض العراق. واشتهر الناجي المصري بمقطعاته الهجائية الكثيرة في الأفضل بن بدر الجمالي وزير الخليفة الآمر، وفيه يقول:(٧١٠)

قُلْ لابن بَدْرٍ مقالَ من صَدَقَهْ ... لا تَفْرَحَنْ بالوزارة الخَلَقَهْ
إن كنتَ قد نلتَها مُراغمةً ... فَهْيَ على الكلب بعدكم صَدَقة

وهو هجاء مقذع إقذاعا شديدا. ونرى داود بن مقدام المحلى الملقب برضي الدولة المار ذكره يهجو بعض أصحاب الدواوين وما كانوا عليه من فساد في جمعهم للضرائب، يقول:(٧١١)

وكتّابٍ لهم أبداً حُمَاتٌ ... تُعَدُّ لها الرُّقَى مثل الصَّلالِ(٧١٢)
بأيدٍ تَبْتَدِرْن إلى الرَّشاوِى ... كأيدي الخَيْل أبصرت المخالي

---

(٧٠٩) ابن خلكان ٣/ ٤٠٨.

(٧١٠) الخريدة ٢/ ١٠٣.

(٧١١) الخريدة ٢/ ٤٧.

(٧١٢) حمات: جمع حمة وهي إبرة الزنبور والعقرب والصلال: الأفاعي.

فكأنهم يشبهون الزنابير العقارب والأفاعي، إن لم يقدم لهم الرشاوى لسعوا من يجمعون منهم الضرائب كلما يلسع الزنبور والعقرب بحمتها أو إبرتها وكما يلسع الصَّل أو الأفعى بسمه القاتل. ونلتقي في أثناء ذلك بدعابات ساخرة كقول ابن قادوس يتهكم على الرشيد بن الزبير وكان شديد السواد:(٧١٣)

إن قلتَ من نار خُلِقْـ ـتَ وفُقْتَ كلَّ الناس فَهْمَا
قلنا صدقتَ فما الذي أطْفاك حتى صِرْتَ فَحْما

وهي دعابة قد يقبلها الرشيد لما فيها من فكاهة خفيفة، ولابن قادوس أحيانا هجاء مليء بالسموم وخاصة ممن يضيق بهم كقوله في منافق ما يزال يتلوَّن لكل شخص باللون الذي يعجبه يقول:(٧١٤)

حوله اليومَ أناسٌ كلُّهم يُزْهَي برائِه
وهْو مثلُ الماء فيهم لونُه لونُ إنائه

ونمضي إلى زمن الأيوبيين، ويلقانا ابن سناء الملك ساخطا على بعض معاصريه، يكويهم بسياط هجائه وخاصة من يسمى ابن عثمان، حتى ليود أن يُصْفَعَ بالنعال على حد قوله:(٧١٥)

وكم له من وقعةٍ لم تُبْقِ منه باقيةْ
وما عليه قطُّ من صَفْع النِّعال واقيةْ

---

(٧١٣) الخريدة ١/ ٢٢٩.

(٧١٤) الخريدة ١/ ٢٣٣.

(٧١٥) الديوان ص٨٧٦.

فهو يتصَّوره يُصْفَعُ بالنَّعال ولا مغيث له ولا مجير، وللبهاء زهير بعض مقطوعات في الهجاء، وهو لا يقذع فيه، بل يفسح للدعابة والوخز الخفيف الذي لا يدمي، وقد لا يتعدى وصفه بالثقل كقوله:(٧١٦)

ربَّ ثقيلٍ لبُغْض طَلْعَتِهِ ... أخشاه حتى كأنَّه أجَلي
وكلما قلتُ لا أشاهده ... ألقاه حتى كأنه عملي

وكان الشعراء يتعرضون أحيانا للوزراء يهجونهم كقول ابن مطروح يهجو هبة الله بن صاعد الفائزي مستغلاً اسم أبيه في هجائه:(٧١٧)

لعن الله صاعدَا ... وأباهُ فصاعدا
وبَنِيهِ فنازلاً ... واحدًا ثم واحدا

وهو كصاحبه البهاء زهير لا يتسع في هجائه ولا يقذع فيه ولا يفحش.

ويظل الشعراء طوال عصر المماليك يَريشون سهام الهجاء، ويلقانا في أوائله الجزار والوراق ولهما، أهاج فكهة كثيرة سنعرض لها في غير هذا الموضع، وكان يعاصرهما البوصيري شاعر المديح النبوي الرائع، وكان يعمل موظفاً في دواوين الأقاليم، وله هجاء عنيف في طوائف الموظفين جميعا أو كما يسميهم المستخدمين من كُتابِ خراجٍ وقضاةٍ وغير قضاة، ومن قولهم فيهم:(٧١٨)

ثكلْتُ طوائف المُسْتَخْدمينا ... فلم أر فيهمُ رجلاً أمينا
أقاموا في البلاد لهم جُباةً ... لقَبْض مُغَلَّها كالمُقْطَعينا

---

(٧١٦) البهاء زهير للشيخ مصطفى عبد الرازق ص٢٢.

(٧١٧) النجوم الزاهرة ٧/ ٥٨.

(٧١٨) الديوان ص٢١٨.

obeikandl.com

تحَّيلتِ القضاةُ فخان كلٌّ أمانته وسمَّوه الأمينا
وكم جعل الفقيهُ العدلَ ظُلْماً وصيَّر باطلا حَقًّا مُبينا

فهو يشكو من فساد جميع الموظفين، فعمال الخراج كأنهم من أصحاب الإقطاع وهم يجمعون ما تغله إقطاعاتهم، والقضاة يخونون الأمانة والفقهاء يجعلون بفتاواهم المضللة الظلم عدلا والباطل حقا، ويردد ذلك في أشعار كثيرة تصور فسادهم جميعاً وكيف كانوا يجمعون ثروات طائلة بطرق غير مشروعة. وسنرى لابن دانيال أهاجي فكهة كثيرة في حديثنا عن شعراء الفاكهة. ومما يلاحظ أن المصريين قلما يفحشون في هجائهم، وكثيرا ما يتحول إلى ما يشبه عتابا رقيقا كقول ابن مكانس المتوفى سنة ٧٩٤ هاجيا:(٧١٩)

نَعَمْ نَعَمْ مَحَضْتُهُمْ صِدْقَ الوَلا تطوُّلا(٧٢٠)
وما رَعْوا عهدا ولا مودَّةً ولا ولاَ

وفي كلمة "ولا" الأخيرة تورية واضحة إذ يريد بها مقصور ولاء. ونراه حين يصادر أمواله وبغاله وخيله السلطان الظاهر برقوق لا يشتم ولا يهجو بل يكتفي بقوله:(٧٢١)

رَبَّ خُذْ بالعدل قومًا أهل ظُلْم متوالي
كلَّفوني بيع خَيْلي برخيصٍ وبِغالي

والتورية في كلمة بغالي مع كلمة برخيص – وهو يريد بغاله الحقيقية – واضحة، وهو يعمد إليها في هذا الظرف الحرج من محنته.

---

(٧١٩) ريحانة الألبا للفخاجي (طبعة الحلبي) ص٤١.

(٧٢٠) تطولا: تفضلاً.

(٧٢١) النجوم الزاهرة ١٢/ ١٢٩.

ونظل نلتقي بالهجاء في أيام العثمانيين، من ذلك قول الشهاب الخفاجي من قصيدة جمعها على النمط التالي:[٧٢٢]

يا ضَيْعَةَ الهِمْيان من عائلِ ... قُبَيْل عيدٍ أعوزَ الفُطْرَةْ[٧٢٣]

ويا قَفا المهزوم من فارسٍ ... أدركه في ساحةٍ قَفْرَةْ

وبَهْتَةَ السَّكْران من هاجم ... في ليلةٍ مظلمةٍ قَرَّةْ[٧٢٤]

ويا نَعِيًّا جَاءَ عَنْ واحدٍ ... إلى عجوزٍ مالها أُسْرَةْ

وتمضي القصيدة على هذا النحو الساخر اللاذع المُصْمِي تكيل الذم لمهجوه كيلا وتهزأ به وتسخر منه سخرية قائلة.

وتلقانا مطارحة[٧٢٥] طريفة بين الشاعر المعروف باسم شبانة المتوفى سنة ١٢٠٠ للهجرة والشاعر قاسم بن عطاء الله المتوفى سنة ١٢٠٤، فقد نظم شبانة – يداعب قاسما – قصيدة هجائية طويلة يقول فيها:

سبحانَ من قسمَ النُّحو ... سَ لقاسم وأذلَّ هامَهْ

وكساه ثوبَ جِنايةٍ ... يَخْزَي بها يومَ القيامَةْ

ومضى يتهمه بأنه يعين لصوص البيوت ويسرق الحرير ويسلّ الكحل من العيون، وردّ عليه قاسم هاجيا مداعبا، من نفس الوزن والقافية، وكأنهما يعيدان لنا نقائض جرير والفرزدق يقول قاسم:

---

(٧٢٢) نفحة الريحانة للمحبي ٤/ ٦١٢.

(٧٢٣) الفطرة: النقل في لغة المصريين العامية. الهميان: كيس النقود.

(٧٢٤) قرة: باردة.

(٧٢٥) تاريخ الجبرتي ٢/ ١٢٨.

obeikandl.com

جَلَّ الذي قسم الشَّقا ... لشبانةٍ وله أدامَهْ
بعمامةٍ لو خالها الـ ... ـقَلاَّ توهَّمها برَامَهْ
موروثةٍ عن جَدِّهِ ... من قبل أن تبني القمامة
لو كان يصلحُ للصلا ... ة لحقَّ للقِرْدِ الإمَامَهْ

والقَلاَّ مقصور القَلاَّء وهو من يَقلي اللحوم والأطعمة، والبرام: القدر الذي يُقْلَى فيه. يشير بذلك إلى ضخم رأسه وقذارة عمامته. ولعله يريد بالقمامة كنيسة القيامة بالقدس، وقد بنيت حوالي سنة ٣٢١ للميلاد. والدعابة واضحة في الأبيات. ونقف قليلا عند بعض شعراء الفخر والهجاء:

تميم (٧٢٦) بن المعز

هو تميم بن المعز مؤسس الدولة الفاطمية بمصر، ولد لأبيه سنة ٣٣٧ بمدينة المهدية التي بناها جده عبيد الله المهدي بتونس، وقد تحول عنها ابنه الخليفة المنصور في نفس السنة التي ولد فيها تميم حفيده إلى مدينة أسسها هناك سماها المنصورية، وولد لأبيه بعده على التوالي عبد الله ونزار وعقيل، وكان المعز قد بويع بولاية العهد في حياة أبيه المنصور، وجددت له البيعة حين توفي سنة ٣٤١. وكان في الثانية والعشرين من عمره، وكان حصيفا سَيوسا، دانت له إفريقية من تونس إلى المحيط ما عدا سبتة فإنها ظلت – كما مر بنا في غير هذا الموضع – مع عبد الرحمن الناصر الأموي صاحب الأندلس،

(٧٢٦) انظر في تميم وترجمته وأشعاره اليتيمة ١/ ٤٣٦ وابن خلكان ١/ ٣٠١ والحلة السيراء (طبعة د.حسين مؤنس) ١/ ٢٩١ وحسن المحاضرة ١/ ٥٦٠ وكتاب في أدب مصر الفاطمية للدكتور محمد كامل حسين ص١٧٠ مقدمة ديوان (طبعة دار الكتب المصرية).

obeikandi.com

وسير جوهراً قائده إلى مصر فافتتحها سنة ٣٥٨ – كما مر بنا في غير هذا الموضع – ودخلها المعز في سنة ٣٦٢ وكان عالي الهمة يحكم تدبير الأمور حازماً منتهي الحزم، وأتضح حزمه إلى أقصى حد صرفه ولاية العهد عن ابنه الأكبر تميم، وكان لا يزال في المنصورية بتونس، حين تأكد أنه يسير سيرة معوجَّة منحرفة، مما جعل واليه على صقلية أحمد بن الحسن الكلابي يستأذنه في قتل أحد أبنائه لمشاركته تميما في مجونه.[٧٢٧]

ويبدو أن المعز حاول – دون جدوى – أن يرد ابنه إلى الطريق السوي حتى إذا فشلت محاولته صرف ولاية العهد عنه إلى أخيه عبد الله،[٧٢٨] ولم يلبث عبد الله أن توفي حين نزل مع أبيه في مصر فجعل المعز ولاية العهد لأخيه نزار الذي خلف أباه حين وفاته بالقاهرة ٣٦٤ متسمياً باسم العزيز.

وليس من ريب في أن المعز عُنى بتربية ابنه تميم الذي كان يعدّه لولاية العهد منذ نعومة أظفاره، فأحضر له المعلمين الدينيين واللغويين وعهد إلى بعض دعاة النحلة الفاطمية بتلقينها له، وكانت للغلام موهبة شعر فذة، فأكب على الشعر العربي في أزمنته المختلفة يتزود منه، وسرعان ما استيقظت فيه موهبته، فعكف على اللهو والمجون لا يردعه رادع. وانتقل مع أبيه إلى مصر، فمضى في سيرته، يَحْيا للهو والجون. ويموت أخوه وأبوه فيرثيهما رثاء فاتراً، وهو رثاء يدل على مكنون ضميره وأنه كان يشعر في

---

(٧٢٧) سيرة جوذر (تحقيق د: كامل حسين) ص١٢٠.

(٧٢٨) ذكر ابن الأبار في الحلة السيراء أن السبب في صرف المعز لولاية العهد عن تميم أنه لم ينجب ولداً. غير أن صرفها عنه وهو لا يزال في نحو العشرين من عمره يؤكد السبب الذي ذكرناه فقد كان لا يزال في مطالع شبابه، وقد عاد فصرفها عنه مرة ثانية بعد وفاة أخيه عبد الله. وربما كانت كناية تميم بأبي على قاطعة في أنه أنجب فعلاً.

obeikandl.com

أعماقه بأن أباه سلبه حقه. وهو في ديوانه يكثر من مديح أخيه العزيز، ونحس صدقه في هذا المديح وإخلاصه له، ومع ذلك كان لا يسلم من الوشاة بينه وبين أخيه، مما جعله يبعده مرة إلى عين شمس بجوار القاهرة ومرة ثانية إلى الرملة بفلسطين، ويألم ألما شديدا لغربته وبعده عن ملاعب مجونه، وسرعان ما يرد العزيز إليه حريته. وهما فترتان صغيرتان في حياته الهنيئة بالقاهرة حتى وفاته سنة ٣٧٤.

وكان العزيز يغدق عليه إغداقا عظيما، فقد جعل القصور على بركة الحبش – بمصر القديمة الآن – خالصة له، وكانت تظل على النيل ومن حولها حدائق بديعة، ووهب له بستانا عظيما يعرف باسم المعشوق، غير ما كان يضفي عليه من الأموال الضخمة. وكل ذلك أتاح له أن يحيا حياة ترف ولهو في قصوره وبساتينه ورياضه وفي الأديرة. وكان ينتهز فرصة الأعياد الكثيرة: الأعياد الإسلامية والمسيحية والفارسية، فيشارك الشعب في مرحه وقصفه، سواء فيما كان يقيم من مضارب وسرادقات وقباب ببركة الحبش أو فيما كان يتخذ من قوارب تضاء بالشموع ليلا في النيل، والمغنون والمغنيات يطربون الناس. وهو يمر بزوارقه على قواربهم، ويستمع إلى من معهم ويسمعهم بعض قيانه. وفي ديوانه ما يصور كئوس اللهو والمجون التي كان يعب منها عبا، ومر بنا مديحه لأخيه العزيز وما أذاعه ونشره فيه من مبادئ الدعوة الفاطمية الإسماعيلية وعقيدتها في الإمام وارتفاعه عن البشر بجوهره الروحاني اللطيف وجسده النوراني الشفاف وعقله الكلي الفعال وإسباغ الصفات الربانية عليه. ويتمادى تميم في ذلك ومثله حتى لكأنه داعية من دعاة الدولة ودعاة أخيه العزيز خاصة وحسبنا ما صورناه عنه في حديثنا عن

المديح. وهو في الديوان يضيف إلى هذا المديح فخرا يمتزج أحيانا بعقيدته في الأئمة، وكأنه الإمام المنتظر، إذ يقول:

أنا الصبحُ أنا الشمسُ ... أنا البدرُ الذي يَسْري
أنا المرجوُّ في العُسْرِ ... أنا المرجوُّ في اليُسْرِ
أنا المُسْبِلُ للنُّعْمَى ... أنا الكاشفُ لِلضُّرَّ
أنا الراتقُ للفَتْقِ ... أنا القاصمُ للظَّهْر

وكأنما تجسدت فيه شخصية أحد الأئمة، فهو نور الصبح ونور الشمس ونور القمر ونور الأنوار الذي يستمد منه كل نور، وهو مدَّبر الكون ومقسِّم الرزق المرجو في العسر واليسر والمسبغ للنعمى والكاشف للضر الراتق للفتق القاصم للظهر. ويستمر فيقول إنه هو الحاطم للعظم والجابر للكسر والعالم بالذكر، يريد أنه العارف لبواطن الذكر الحكيم، كما يزعم الإسماعيليون لأئمتهم. ولا يبعد أن يكون مثل هذا الفخر هو الذي كان يتخذه الوشاة أداتهم للوقيعة بينه وبين أخيه العزيز، مما جعله يبعده، كما ذكرنا، مرة إلى عين شمس ومرة إلى الرملة. وتتردد أصداء من هذه المعاني في أشعاره في صوت عال تارة، وتارة ثانية في صوت خفيض، ومن قوله في ذلك:

أبني عليَّ إن نكنْ نُنْمَي إلى ... حَسَبٍ أناف بنا وَجدٌّ أَرْوَعَا(٧٢٩)
فلقد علمتم أنني أغْشَى الوَغَى ... وأنوبُ في الجُلَّى قَؤولا مُسْمِعا(٧٣٠)
ولقد علمتهم أنني رُضْتُ العلا ... يَفَعًا وحاولتُ المكارمَ مُرْضَعا(٧٣١)

(٧٢٩) أتاف: أشرف وارتفع.

(٧٣٠) الجلي: الأمر العظيم. نزولاً: صيغة مبالغة من القول يشير إلى بلاغته في شعره.

(٧٣١) اليفع: الفتى في إبان شبابه.

فدعوا ليَ الشرفَ الذي شَيْدْتُه ... إذ هِضَتموه فانْكفَا وتَضَعْضَعَا(٧٣٢)

لي في المشارق والمغارب جَوْلَةٌ ... يَغْدو بها قلبُ الزمانِ مصدَّعا

فادفع بحد السيف كل ظُلامةٍ ... إن لم تجد يوما سواه مَدْفَعا

فبِذاك أوصاني الوَصِيُّ ورَهْطُه ... وعلىَّ فَرْضٌ أن أُطيع وأسمعا

وهو يخاطب أسرته العلوية ذات الحسب العالي والحظ العظيم واضعا بين يديها شجاعته ونفوذه في الأمور العظيمة برأيه المحكم وشعره البليغ، ويزعم أنه راض العلا وساسها في مطلع شبابه وأنه حاول المكارم منذ كان في المهد مرضعا. وإذن فليعطوه حقه والشرف الذي يمنعونه منه، وكأنه ينذرهم ويهددهم ويتوعدهم إن لم يردوا عنه ظلمهم ويردوا إليه الحق المسلوب، ويزعم أن تلك وصية جده أبى الأوصياء علي بن أبي طالب وأبنائه من الأئمة وأنَّ فرضا عليه أن يسمع ويطيع. ولا ريب في أن هذه المعزوقة التي كان يوقعها كثيرا على قيثارته كان يضيق بها العزيز، غير أن غمتها سرعان ما كانت تنكشف عن صدره حين يستمع إلى مدائح تميم فيه وترديد قدسيته ووجوب طاعته.

ومعزوفة ثانية كان كثيرا ما يعزفها تميم ويلحنها على وتر الفخر في قيثارته، ونقصد ردوده العنيفة على فخر عبد الله بن المعتز العباسي بأسرته العباسية الهاشمية. وله إزاءه موقفان: موقف يختار فيه قصيدة من قصائد ابن المعتز في فخره بأسرته وينقضها نقضا بما يصور من مفاخر أسرته الفاطمية. وموقف ثان لا يتقيد فيه بقصيدة معينة يردُّ عليها، وهو في الموقف الثاني حر يختار أي وزن فيه وأي قافية، أما في الموقف الأول فيتقيد بوزن القصيدة التي يرد عليها وقافيتها على شاكلة ما كان يحدث بين جرير والفرزدق في نقائضهما، ومن قصائد الموقف الأول رائية لابن المعتز استهلها بقوله: "أيُّ رَبْعٍ لآل

(٧٣٢) هضتموه: من هاض العظم إذا حطمه وكان على وشك أن ينجبر.

obeikandl.com

هندٍ ودارِ" عمد تميم إلى نقضها بقصيدة تماثلها في الوزن والرويِّ، وفيها يقول: رادًّا على ابن المعتز والعباسيين جميعا:

ليس عَبَّاسُكم كمثل عليٍّ ... هل تقاسُ النجومُ بالأقمارِ
مَنْ له الصَّهْرُ والمواساةُ والنُّصْـ ... ـرةُ، والحربُ ترتمي بالشَّرار
مَنْ دَعاهُ النَّبيُّ خِدْنًا وسمَّا ... هُ أخًا في الخفاء والإظهارِ
مَنْ له قال أنت مني كهارو ... ن وموسَى أكرمْ به من نِجارِ(٧٣٣)
ثم يوم الغَدِير ما قد علمتم ... خَصَّه دون سائر الحُضَّارِ
مَنْ له قال: لا فَتَى كعليٍّ ... لا ولا مُنْصُلٌ سوى ذي الفَقَارِ(٧٣٤)
مَنْ توطّا الفِراش يَخْلُفُ فيه ... أحمدًا وهْوَ نحو يثربَ سارِ
ولنا حُرْمةُ الولادة والأعْـ ... ـمام والسَّبْق والهدى والمنارِ
نحن أهلُ الكِساء سادسُنا الرُّو ... حُ أمينُ المهيمنِ الجَبَّارِ
حُجَجٌ كلما تأمَّلها العا ... لِمُ بانتْ له بيانَ النهارِ

وتميم يوازن بين جده علي بن أبي طالب وعمه العباس بن عبد المطلب، ويفاخر بأنه صهر الرسول صلى الله عليه وسلم وساعده الأيمن في الحرب، ويشير إلى حديث نبوي ترويه الشيعة: أن النبي عليه والسلام قال: "علي مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي". وهم يستدلون بهذا الحديث على أن علياً ليس أحق بالخلافة من العباس فحسب، بل هو أيضًا – في اعتقادهم – أحق من الشيخين: أبي بكر وعمر بالخلافة. ويذكر يوم غَديرِ خُمٍّ وهو موضع بين مكة والمدينة أثنى فيه الرسول صلى الله عليه

(٧٣٣) نجار: أصل وحسب.

(٧٣٤) منصل: سيف.

وسلم على ابن عمه عليّ، وقال: من كنت مولاه فعلى مولاه، وتذهب الشيعة إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى في هذا اليوم بالخلافة لعلي. ومنذ أواسط القرن الرابع الهجري يتخذ الشيعة هذا اليوم الموافق للثامن عشر من ذي الحجة عيدا هلم. ويشير تميم إلى ما يرويه الشيعة من أن الرسول قال: لا فتى إلا علي ولا سيف إلا ذو الفقار: سيفه. ويذكر أنه هو الذي اصطفاه الرسول لينام في فراشه ليلة خرج مع أبي بكر مهاجرا إلى المدينة، مخترقا حصارا مسلحاً ضربته قريش حول بيته، حتى لا تنتبه إلى خروجه، وكانت قد بيَّتت القضاء عليه (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِّ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُّ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ). ويقول إنهم يشتركون مع العباسيين في أنهم سلالة أعمام رسول الله ويرتفعون فوقهم درجات بأنهم أبناء بنت رسول الله السيدة فاطمة الزهراء. ويشير إلى ما تقصّ الشيعة من أن الرسول ألقى كِساءً عليه وعلى السيدة فاطمة وعلى زوجها وابنيهما الحسن والحسين وكان سادسهم – كما يقول تميم – جبريل وقال: نحن أهل البيت في خبر يرددونه. ويذكر جهاد علي المبرور في غزوات الرسول وخاصة في بدر وأحد وخيبر وكيف أبلى فيها جميعا بلاء عظيما ويقول هذه كلها براهين ساطعة كالشمس بأفضلية عليٍّ وارتفاع منزلته على عمه، ويهدد العباسيين بحرب مبيدة تعصف بهم عصفا شديدا.

وتميم في الموقف الثاني الذي لا ينقض فيه قصيدة بعينها لابن المعتز يلحَ على هذه المعاني نفسها في رده على العباسيين وفخره عليهم فخرا مضطرما بشرر كثير، يريد به أن يثبت أن العلويين أحق بالخلافة من أبناء عمومتهم سواء من جهة إرثهم لها عن طريق جدهم وعلى وجدتهم فاطمة بنت الرسول عليه الصلاة والسلام أو عن طريق وصاية

الرسول بها لعلي أو عن طريق خدماته الجلَّي للدين الحنيف ونَصْره. ويمد طرفا من هذا الجدل إلى بني أمية وهو يقصد أصحاب الأندلس في أيامه، وكان أخوه العزيز كتب إلى صاحبها الأموي – ولعله المستنصر بن عبد الرحمن الناصر – كتابا يسبَه فيه ويهجوه، فكتب إليه: "أما بعد فإنك قد عرفتنا فجوتنا ولو عرفناك لأجبناك والسلام" فاشتد ذلك على العزيز وأفحمه عن الجواب.(٧٣٥) ولعل ذلك ما جعل تميماً يتصدى للأمويين ويفخر عليهم بمثل قوله:

إن قُرَيْشًا بِعُلا هاشم ... تفخر في عَقْوة عِرَّيسِها(٧٣٦)

إن يك من ياقوتها هاشمٌ ... فعبد شمسٍ من ضَغابيسها(٧٣٧)

اسْمُ إلى الصفوة من هاشم ... أهل معاليها وتَقْدِيسها

دَعْ عبدَ شمس وأباطيلَها ... فقد بدا اللهُ بِتَنْكيسِها

قبيلةٌ ما طهَّرَ اللهُ مَنْ ... شايعها من إثم تنجيسها

فهاشم جد الرسول والعلويين فخر قريش في ساحة غِيلها الملتف، وهو وبنوه ياقوت قريش ومعدنها النفيس أما بنو أمية فحجارة صلده، وللهاشميين بفضل الرسول علاهم وقدسيتهم، أما عبد شمس وبنوه فأصحاب أباطيل مزورة، وقد هدم الله دولتهم في المشرق، وإنها لقبيلة آثمة إثما فظيعا. وإنها لتصم كل من شايعها وصمة شنيعة. ويستمر فيذكر سفكهم لدم الحسين وسبيهم لمن كن معه من النساء، مسجلا بذلك عار عليهم لا يماثله عار.

---

(٧٣٥) ابن خلكان ٥/ ٣٧٢.

(٧٣٦) عقوة: ساحة. عريس: غيل الأسد.

(٧٣٧) الضغابيس: جمع ضغبوس: الضعيف الذميم.

طلائع[٧٣٨] بن رُزّيك

أرمني الأصل قدم إلى زيارة مشهد الإمام علي بن أبي طالب النجف، وكان لا يزال شابا واعتنق مذهب الشيعة الإمامية، وتعرَّف في أثناء زيارته له على شخص يسمى ابن معصوم يبدو أنه كان من دعاة الفاطميين، فحبَّب إليه زيارة القاهرة والانتظام في خدمة القوم، ولقيت دعوة الرجل من نفسه قبولا حسنا، فسار إلى مصر، وترقى في خدمة الفاطميين حتى ولَّوه حاكما لمنية الخصيب بالصعيد (المنيا الآن) وحدث أن تآمر عباس الصنهاجي وزير الخليفة الظافر مع ابنه نصر على قتل الخليفة سنة ٥٤٩ وتمت المؤامرة، فاستغاث بيت الفاطميين بطلائع ضد عباس، فأقبل يريد محاربته حتى إذا قرب من القاهرة فر عباس بما نهب من أموال القصر الفاطمي إلى الشام، وقتله الصليبيون في الطريق. ودخل طلائع القاهرة فخلعت عليه الخلع الخاصة بالوزارة ونعت بالملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين. وكان قد ولى الخلافة الفاطمية ابن للظافر تلقب بالفائز (٥٤٩ – ٥٥٥هـ) وكان صبيا لا يعدو خمس سنوات، فدبر الدولة طلائع وأحسن تدبيرها، حتى إذا توفي الفائز بعد نحو ست سنوات اختار للخلافة بعده طفلا لم يبلغ الحلم من الأسرة هو عبد الله بن محمد الملقب بالعاضد، وزوَّجه ابنته، وأصبح صاحب الأمر كله في الدولة. وأخطأ إذ قطع رواتب الخاصة، فلم يدر عام في خلافة

---

(٧٣٨) انظر في طلائع وترجمته وأشعاره الخريدة ١/ ١٧٣ والمغرب (قسم القاهرة) ص٢١٧ وابن خلكان ٢/ ٥٢٦ والجزء الخامس من النجوم الزاهرة في مواضع مختلفة (انظر الفهرس) وخطط المقريزي ٣/ ١٩٢ وبني عمارة اليمني كتابه النكت العصرية عليه وعلى حياته وأمجاده ومدائحه ومدائح غيره فيه، ونشر محمد هادي الأميني ديوانه في النجف، وأودع في مقدمته ثبتاً مفصلاً بمصادر ترجمته.

العاضد حتى دُبِّرت له مؤامرة لقتله، فقتل سنة ٥٥٦ ويقال إن العاضد نفسه هو الذي أعمل الحيلة في قتله لاستبداده بالأمر من دونه، وخاصة أنه كان شيعياً لا على مذهب الفاطميين الإسماعيلي ولكن على مذهب الإمامية. ويقول المقريزي: "كان رجل وقته فضلا وعقلا وسياسة وتدبيرا". ولم يكن يستر عقيدته الإمامية بل كان يعلنها ويجادل فيها الفقهاء الإسماعيليين، وصنف في ذلك كتابا سماه "الاعتماد في الرد على أهل العناد" ويقول المقريزي إنه جمع له الفقهاء وناظرهم عليه. وكان يجادل أيضا بقوة من مذهب المعتزلة في القدر وأن الإنسان حر الإرادة لا مجبر كما يقول القدرية، وله في ذلك قصيدة سماها: "الجوهرية في الرد على القدرية" ومن قوله في الرد عليهم:

يا أمة سلكتْ ضلالاً بَيِّنًا ... حتى استوى إقرارُها وجُحودُها

مِلْتُمْ إلى أنَّ المعاصي لم يكن ... إلا بتقدير الإله وُجُودها

لو صحَّ ذا كان الإله بزعمكم ... منعَ الشريعةَ أن تُقامَ حدُودُها

وقد فتح أبوابه للشعراء، وكثير منهم كانوا يختلفون إلى مجلسه في منزله وخاصة الجليس بن الحَباب والمهذب بن الزبير وابن قادوس، وأصبحت القاهرة لعهده كعبة للقصاد من شعراء البلاد العربية أمثال ابن الدهان الأصلي وعمارة اليمني، ولكل هؤلاء الشعراء فيه قصائد طنانة، وفيه يقول العماد: "نفق في زمانه النظم والنثر واستقر بإحسانه الحمد والشكر وقرب الفضلاء، واتخذهم لنفسه جلساء، ورحل إليه ذوو الرجاء، وأفاض على الداني والقاصي بالعطاء". وقد أدار العماد كثيرا من تراجمه في القسم المصري من كتابه الخريدة عليه وعلى مدائحه. وألف في أيامه الرشيد بن الزبير

كتابهِ "جنان الجَنان ورياض الأذهـان" في معاصريـه مـن الـشعراء ومادحيـه وافتتحـه بترجمته، كما ألف شاعره الجليس بن الحباب كتابا قصره على مدائح الشعراء فيه.

وقد حقق محمد هادي الأميني ديوانه ونشره بالنجف في نحو مائة وخمس وعـشرين صحيفة، ويقول ابن خلكان أنه رأى ديوانه وإنـه كـان يقـع في جـزءين، وكـأن ديوانـه المنشور إنما هو مقتطفات من ديوانه الأصلي، واتهمـه بعـض معاصريـه بـأن كثـيرا مـن أشعاره ليس له وإنما هو من صنع شاعريه: الجليس بـن الحبـاب والمهـذب بـن الـزبير، ويبدو أنها تهمة غير صحيحة، وأنه ربما كان يرجع إلـيهما لتـصحيح بعـض أشـعاره إن صح ما قيل من أنهما كانا يصلحان له شعره. وأكثر الديوان المنشور في مـديح آل البيـت دائما محزونون منذ مقتل الحسين وقد اتخذوا يوما يندبونه فيه هو يوم عاشوراء، وجعلوا شعارهم السواد، وهو سواد يطبع كثيراً من أشعار طلائع بالتشاؤم والتفكير الكثـير في الموت، حتى في يومه البهيج يوم جلوسه في الوزارة إذ نرى الدنيا تتحـول بهجتهـا أمـام عينيه حزناً وشؤماً وموتاً، وإذا هو ينشد حين تربعه في دست الوزارة:

انظُر إلى ذي الدارِ كم ... قد حلَّ ساحتَها وزيرُ
ولكن تبخْتَرَ آمنًا ... وَسْطَ الصفوفِ بها أمير
ذهبوا فلا والله ما ... بقىَ الصغيرُ ولا الكبيرُ
ولمثلِ ما صاروا إليـ ... ـه من الفناء غَدًا نصيرُ

وكان طلائع شجاعا بل مثالا عاليا مـن الـشجاعة والبطولـة، فمـضى يعـدُّ الجـيش المصري لحرب الصليبيين ونازلهم مرارا برا وبحرا، وظل ينازلهم ويقاتلهم طوال أيامه، حتى لقبه معاصروه بأبي الغارات، فقد كان جيشه لا يني آيبا ذاهبا إلى مواقعة الصليبين

وسحق جموعهم في جنوبي فلسطين ودقَّ أعناقهم وسفك دمائهم في حزونها وسهولها وعلى سفوح جبالها، وله في تصوير ذلك قصائد كثيرة من مثل قوله:

توالتْ علينا في الكتائب والكتبِ ... بشائرُ من شَرْق البلاد ومن غَرْبِ
جعلنا جبالَ القَدْس فيها وقد جرتْ ... عليها عتاقُ الخيل كالنَّفْنَفِ السُّهْبِ(٧٣٩)
وقد أصبحتْ أوعارُها وحُزونها ... سهولاً تُوَطَّا للفوارس والرَّكْب
ولما غدتْ لا ماءَ في جَنَباتها ... صَبَبْنا عليها وابلاً من دم سَكْبِ(٧٤٠)

وهو فرح مبتهج بنصر جيشه على حَملة الصليب وما أذاقهم من التقتيل ونَثْر دمائهم على جنبات فلسطين حتى سالت هناك أنهاراً. وكثيراً ما كان يرسل ببشائر انتصاراته على الصليبين إلى صديقه أسامة بن منقذ الشَّيْزَرِيّ وكان قد زار مصر وأقام فيها مدة أيام عباس الصهاجي وانعقدت بينه وبين طلائع صداقة فكان يخبره بانتصاراته حتى يستشير نور الدين صحاب حلب لتضييق الخناق على حَملة الصليب، وكانت فرحته بالغة حين انتصر الجيش المصري بقيادة ضرغام عليهم في سنة ٥٥٣ نصرا عظيما، وصور ذلك لأسامة في ميمية استهلها بقوله:

ألا هكذا في الله تمضي العزائم ... وتمضي لدي الحرب السيوف صوارم(٧٤١)
وتغزى جيوش الكفر في عقر دارها ... ويوطا جماها والأنوف رواغم(٧٤٢)
خيول إذا ما فارقت مصر تبتغي ... عدا فلها النصر المبين ملازم

---

(٧٣٩) عناق الخيل: كرامها. النفنف: الفلاة. السهب: المستوى.

(٧٤٠) وابلاً: مطراً شديداً. السكب: الهاطل السائل.

(٧٤١) الصوارم: جمع صارم وهو السيف القاطع.

(٧٤٢) عقر: وسط.

obeikandl.com

يسير بها ضرغام في كل مأزق وما يصحب الضرغام إلا الضراغم(٧٤٣)
فقولوا لنور الدين لا فل حده ولا حكمت فيه الليالي الغواشم(٧٤٤)
تجهز إلى أرض العدو ولا تهن وتظهر فتوراً أن مضت منك حارم

وهو يشيد بجيش مصر الباسل وانتصاره المدمر للصليبين: انتصار أسده الهادرة، ويدعو أسامة إلى إبلاغ نور الدين هذا الانتصار، وكان حملة الصليب قد استولوا منه على حصن حارم تجاه أنطاكية وعقدوا معه هدنة، ويدعوه إلى نقض ما أرم معهم والاستعداد لحربهم حتى يضيق عليهم في الأطراف الشمالية كما يضيق الجيش المصري في الأطراف الجنوبية.

وكان الأسطول المصري لا يزال يجوب سواحل الشام ويفتك بسفن الصليبين وأغار على عكا وثغر بالقرب من حمص يسمي أَنْطَرطوس ونكَّل في الثغرين بحملة الصليب وسفنهم فكتب طلائع إلى أسامة قصيدة يسأله فيها أن يبشر الملك العادل نور الدين بذلك ويستنهضه لفتح القدس يقول:

إن بعض الأسطول نال من الإفـ ـرنج ما لا يناله التأميل
فحوى من عكا وأنطرطوس عدة لم يحط بها التحصيل
أبلغن قولنا إلى الملك العا دل فهو المرجو والمأمول
قل له كم تماطلا لدين في الكفـار فاحذر أن يغصب الممطول
سر إلى القدس واحتسب ذاك في الله فالسير منك يشفي الغليل

(٧٤٣) الضراغم: جمع ضرغام وهو الأسد.

(٧٤٤) الغواشم: الشديدة الظلم.

obeikandl.com

وواضح أن جيوش مصر وأساطيلها لعهد طلائع كانت ما تـزال تغـدو وتـروح إلى حملة الصليب منزلة بهم الهزائم تلو الهزائم. ودائما يستحث طلائع في حماسيّاته إلى أسامة صاحب نور الدين أن يزحف إلى حملة الصليب شمالا، بينما يزحف هـو إلـيهم جنوبـا، حتى يقعوا بين شقي الرحا فتدور عليهم الدوائر. ولعل في ذلك مـا يـشير بوضـوح إلى أن مصر لم تقصر في واجبها إزاء حملة الصليب لعهد طلائع، وكانـت تُعَـدُّ حتـى أيامـه مقصرة في القيام بهذا الواجب، قصَّرتْ أيام الأفضل بن بدر الجمالي ومـن جـاء في إثـره من الوزراء، فلما ألقيت مقاليد الأمور إلى طلائع وضع نصب عينيه أن تنهض بواجبها، فجهز الجيوش والأساطيل وأمدها بالرجال والعتاد ودائما يهيب في كثير مـن حماسـياته بنور الدين أن يهجم عليهم شمالا بينما يهجم عليهم جنوبا، حتى يمزَّقوا كل ممزَّق، غـير أن يدا آثمة امتدت إليه، فحالت دون أمانيه في الانتصار الحاسم على حملـة الـصليب إذ قضت عليه، ورثاه عمارة وغيره من الشعراء مراثي حارة.

ابن[٧٤٥] الذّرْويّ

هو الوجيه علي بن يحي الذَّرْوِيّ أصله أو أصـل آبائـه مـن ذروة بلـدة بـاليمن، وفي ترجماته ما يدل على أنه نشأ بمصر إن لم يكن ولد بها، وهو من شعراء الدولتين الفاطمية والأيوبية، ويقول ابن سعيد: إنه رأى ديوانه وقرأ فيه مدائح في الخليفة العاضد في صباه وأخرى في صلاح الدين وأخيه العادل والقاضي الفاضـل وابـن شـكر وزيـر العـادل.

---

(٧٤٥) انظر في ابن الذروى وترجمه وأشعاره الخريدة ١/ ١٨٧ والمغـرب (قـسم القـاهرة) ص٣٣٣ و٣٤١ والفـوات ٢/ ١٨٨ وحـسن المحـاضرة ١/ ٥٦٥ و٢/ ٤١٦ والروضـتين ٢/ ٢٧ وفي مواضـع متفرقـة والخزانة ص١٢٣ وابن خلكان في مواضع من تراجمه (انظر الفهرس) .

ويذكر بعض المعاصرين أنه توفي سنة ٥٧٧ وقد ذكره العماد في الخريدة التي ألفها في أوائل العقد الثامن من القرن السادس، فقال إنه شاب نشأ في هذا الزمان، وفي كلام ابن سعيد المار أنه مدح الخليفة الفاطمي العاضد في صباه، وذكر أنه مدح ابن شكر وزير العادل منذ سنة ٥٩٥ ولم يذكر السيوطي في حسن المحاضرة تاريخ وفاته، غير أنه ذكره بعد ابن سناء الملك المتوفى سنة ٦٠٨ وكل ذلك يؤكد أنه لحق القرن السابع وعاش فيه فترة من الزمن.

وكان ابن الذروي شاعرا مجيدا نَّوه به معاصروه في المديح، وأنشد له ابن شاكر في الفوات مقطعات غزلية بديعة، ويبدو أن ابن سعيد لم يكن يعجب به، إذ قال إنه اطلع على ديوانه فوجده دون ما كان يظن، ومن غزلياته قوله:

يا بان إن كان سكان الحمى بانوا ... ففيض شأني له في إثرهم شان

من لي بأقمار أنس في دجى طرر ... أفلاكها العيس والأبراج أظعان(٧٤٦)

من كل قانية الخدين ناهدة ... لو كان للضم أو للثم إمكان

وفي البيت الأول توريتان فكلمة بان الأولى نوع من الشجر طالما ذكره المحبون، وبانوا بعدها بمعنى بعدوا، ولفظ شأن الأول: واحد الشئون وهو مجاري الدمع و "شان" في آخر البيت بمعنى خير. والصورة في البيت الثاني تامة وبديعة، فهو يتمنى لو يلقى أقمارا مضيئة في ليال شديدة من الطرر، ويقول إنهن ركبن العيس فكأنما تحولت بهن أفلاكا وتحولت الأظعان أبراجا. ولعل موهبته الشعرية لم تبرز في فن كما برزت في

(٧٤٦) الطرر: جمع طرة وهي مقدمات شعر المرأة الذي تصففه على جبهتها. العيس: الإبل.

فن الهجاء، وقد اشتهرت له قصيدة فيه نظمها في شاعر معاصر له أحدب هو ابن أبي حُصَيْنة وفيها يقول:

لا تظنن حدبة الظهر عيبا ... فهي للحسن من صفات الهلال
وكذاك القسى محدوبات ... وهي أنكى من الظبا والعوالي[٧٤٧]
وإذا ما علا السنام ففيه ... لقروم الجمال أي جمال[٧٤٨]
وأرى الإنحناء في منسر الكاسر ... يلقى ومخلب الرئبال[٧٤٩]
قد تحليت بانحنار فأنت الـ ... ـراكع المستمر في كل حال
وتعجلت حمل وزرك في الظهر ... فأمنا في موقف الأهوال
كون الله حدبة فيك إن شئت ... من الفضل أو من الإفضال
فاتت ربوة على طود حلم ... منك أو موجة ببحر نوال
ما رأتها النساء إلا تمنت ... لو غدت حيلة لكل الرجال
وإذا لم يكن من الهجر بد ... فعسى أن تزروني في الخيال

وهو هجاء مؤلم أشد الإيلام، إذ يعرض فيه حدبة ابن أبي حصينة على أنها ميسم جمال وصفة من صفات الحسن في الهلال، ويأخذ في بيان حسنها وفضائلها، فالقسي أشد فتكا من أسنة السيوف والرماح، وهي مصدر جمال كالسنام للجِمال، وما كان الانحناء عيبا في منقار النسور ومخلب الأسد الهصور. ويتصوره راكعا مدى حياته، ويعود فينفي عنه تقواه وصلاته، ويقول إن حدبته وزر كبير مجسَّد تعجل حمله في دنياه.

---

(٧٤٧) الظبا: جمع ظبه وهي حد السيف. والعوالي: الرماح.

(٧٤٨) قروم الجمال: عظامها.

(٧٤٩) منسر الكاسر: منقار الطير الجارح. الرئبال: الأسد.

ويعود إلى السخرية والتهكم فيقول إنها ربوة تعلو طود حلمه أو موجة تعلو مياهه، ويبلغ من السخرية به مبلغًا بعيدًا حين يزعم له أن النساء تعدها حلية وتتمنى لو تحلَّى بها كل الرجال. ويتمادى في سخريته، فيقول إنه مفتون برؤية جماله، ولكنه هاجر له أبدا فيتمنى لو رآه. خيالا في منامه وأحلامه. ويخز فقيها متأدبا وخز الإبر فيقول فيه:

هو في الفقه ماهر لا يباري ... وأديب في جملة الشعراء
لا إلى هؤلاء – إن طلبوه – ... وجدوه ولا إلى هؤلاء

فهو يدعي الفقه وإذا طلبه الناس بين الفقهاء لم يجدوه وهو يدعي الأدب وإن طلبه الناس بين الأدباء افتقدوه، وهو يشير إلى الآية الكريمة في سورة النساء: (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء). وكان يعاصره في شبابه شاعر يسمى هبة الله بن وزير دخل معه حماما فقال ابن وزير:

لله يوم بحمام نعمت به ... والماء ما بيننا من حوضه جاري
كأنه فوق شفاف الرخام ضحى ... ماء يسيل على أثواب قصار

والقصَّار: مبيض الثياب وغاسلها، وكأن الشاعر غفل، فشبه الماء بالماء. وانتهز الصديق ابن الذروي الفرصة، فقال على البديهة:

وشاعر أوقد الطبع الذكاء له ... فكاد يحرقه من فرط إذكاء
أقام يجهد أياماً قريحته ... وشبه الماء بعد الجهد بالماء

وشاع الشطر الأخير على ألسنة المصريين إلى اليوم لكل من يصيبه مثل هذا العي في الكلام عمدا أو غفلة. وكأن أحدا لم يكن يسلم من لسان ابن الذروي حتى الأصدقاء، بل أيضا حتى الطبيعة، إذ نجده يهجو النَّيلوفر، وهو ما يسمى في الريف المصري باسم

البشنين وهو زهر متفاوت الزرقة والحمرة بديع المنظر، ولم يشفع له حسنه عند ابن الذَّرْوي فعمد إلى هجائه بقوله:

ونيلوفر أبدى لنا باطناً له ... مع الظاهر المخضر حمرة عندم[٧٥٠]

فشبهته لما قصدت هجاءه ... بكاسات حجام بها لوثة الدم[٧٥١]

وكأنه يريد أن يقول إنه يستطيع أن يقبِّح كل حسن مهما يكن حسنه حتى زهر النيلوفر الذي طالما تغنى به الشعراء المصريون من قبله ومن حوله، وقد تغنوا به طويلاً من بعده.

أحمد[٧٥٢] بن عبد الدائم

هو شهاب الدين أحمد بن عبد الدائم الشَّرمْساحي نسبة إلى شَرِمْساح: بلدة قريبة من المنصورة في شمال الدلتا، ولد في أوائل زَمن المماليك سنة ٦٦٣ وأقبل مثل لداته على الدراسات الدينية واللغوية، وأكبَّ على الشعر حتى مهر فيه غير أنه يتجه به إلى زهد وتصوف ولا إلى غزل ومديح، وإنما اتجه به إلى الهجاء يسلق الناس بلسانه ويخافون شره فيبادرون إلى إعطائه بعض النوال. ولم يقف بهجائه عند أهل مصر فقد كان يرحل إلى دمشق ويتخذ هناك نفس الوسيلة، ويقال إنه دخل على قاضيها شهاب الدين الخُوَيِّي وقدم إليه قصيدة هجو فردها إليه وقال له: كأنك ذاهل، فقال له: لست بذاهل، بل

---

(٧٥٠) العندم: خشب أحمر يتخذ للصباغة.

(٧٥١) الحجام: محترف أخذ الدم بالمحجم.

(٧٥٢) انظر في أحمد بن عبد الدائم وترجمته وأشعاره الفوات ١/ ٨٦ والدرر الكامنة لابن حجر ١/ ١٧١ والنجوم الزاهرة ٩/ ٩، ٢٤٩.

صنعت ذلك عمدا لأشتهر فإنك إذا أدبتني قال الناس: ما هذا؟ فيجيبهم المؤدبون: هذا غريم القاضي، فأشتهر، فوصله وعفا عنه. وكان لا يقف في الهجاء عند حد، إذ كان يستخدمه كما رأينا في هجو القضاة كذباً وبهتاناً، وبالمثل كان يستخدمه في هجو علماء الدين غير متورع، من ذلك أن المظفر بيبرس الجاشنكير كان يقرب منه في سلطنته بعد خلع الناصر بن قلاون لنفسه سنة ٧٠٨ كلا من الفقيه ابن عَدْلان وزميله الفقيه ابن المرحل الدمياطي، حتى إذا دار العام عزل نفسه وعاد الناصر بن قلاون، ولم يضع ابن عبد الدائم الفرصة، فقد مدح الناصر بقصيدة يهنئه فيها بعودته إلى عرشه ويهجو المظفر بيبرس ويعرض بصحبته لشمس الدين محمد بن عدلان وصدر الدين محمد بن زين الدين الملقب بابن المرحَّل وبابن الوكيل، ومن قوله فيها:

ولى المظفر لما فاته الظفر ... وناصر الحق وافي وهو منتصر
فقل لبيبرس إن الدهر ألبسه ... أثواب عارية في طولها قصر
لما تولى تولى الخير عن أمم ... لم يحمدوا أمرهم فيها ولا شكروا[٧٥٣]
وكيف تمشي به الأحوال في زمن ... لا النيل وافي ولا وافاهم مطر
ومن يقوم ابن عدلان بنصرته ... وابن المرحل قل لي كيف ينتصر؟

وكان قد تصادف أن المطر لم يسقط في سنة ٧٠٩ بأرض مصر وقصَّر النيل في فيضانه أجدبت بعض البلاد وارتفع السعر. وعفا الناصر عن الشيخين في انضمامهما ضده إلى بيبرس الجاشنكير، وكان ابن عدلان يتولى نيابة الحكم فأعفاه عنها، ومَّر به ابن عبد الدائم فأنشده:

---

(٧٥٣) تولى الأولى بمعنى تقلد الحكم. وتولى الثانية بمعنى أدبر وأعرض.

والله ما سرني عزل ابن عدلان

فقال له: جزيت خيراً. فأكمل البيت قائلاً:

من غير صفع ولا والله أرضاني

وشاعت القصيدة. وكان آخر شيخ رماه بسهام هجائه قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة وكان يشرف على الأوقاف، وكأنه أراد أن يبتزه، وكانت فيه صرامة فازداره فانتقم لنفسه بهجائه وهجاء ابنه سنة ٧١٣ وكان فقيها ورعا مثل أبيه، وتمضي القصيدة على هذا النمط.

متى يسمع السلطان شكوى المدارس وأوقافها ما بين عاف ودارس[٧٥٤]

يموت عديم القوت بالجوع حسرة ويشبع بالأوقاف أهل الطيالس[٧٥٥]

وأخذ يتهم القاضي وابنه بعظائم هما منها براء، وكلها كذب وبهتان وافتراء، وكاد القاضي ينزل به عقاباً صارماً لولا أن تدخل بعض الأمراء واستعفاه فعفا عنه. وازدراه الناس بعد هذه الحادثة ازدراء شديدا، وساءت حالته، فإن لحوم العلماء مسمومة. وأخذ ينتقل في البلاد لا يتحرى طريق الرشاد إلى أن عاجلته منيته حوالي سنة ٧٢٠ وكأنما كان غمة زالت عن صدور الناس والشيوخ في زمنه.

---

(٧٥٤) عاف ودارس: ممحو زائل.

(٧٥٥) الطيالس: جمع طليسان وهو كساء كان خاصاً بعلماء الدين تمييزاً لهم.

obeikandl.com

حسن[٧٥٦] البدري الحجازي الأزهري

يقول الجبرتي في ترجمته: "كان عالما فصيحا مفوها متكلما منتقدا على أهل عصره وأبناء مصره" ويقول كان أبوه ملازماً لقراءة كتاب الصحاح الستة: صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن ابن ماجة وسنن أبي داود وسنن النسائي وجامع الترمذي. وقد تفتحت موهبة الابن في سنة مبكرة وعنى بنظم كثير من المتون العلمية مثل رسالة الوضع للعلامة العضد، والدرة السنية في الأشكال المنطقية ورموز الجامع الصغير، وكانت وفاته سنة ١١٣١ للهجرة. وكان قد أصبح شاعرا كبيرا ويصف الجبرتي شعره فيقول: له في الشعر طريقة بديعة وسليقة منيعة، على غيره رفيعة، وقلما تجد في نظمه حشوا أو تكملة، وله أرجوزة في التصوف في نحو ١٥٠٠ بيت على طريقة الصادح والباغم ضمنها أمثالا ونوادر وحكايات، وديوانه على حروف المعجم سماه ياسمين: "تنبيه الأفكار للنافع الضار وإجماع الإياس من الوثوق بالناس شرح فيه حقيقة شرار الخليقة من الناس، المنحرفة طباعهم عن طريقة قويم القياس". وواضح من تسميته لديوانه أن شعره أو جمهوره على الأقل لم يكن مديحاً وهجاء وغزلاً وعتاباً وما إلى ذلك من موضوعات الشعر المعروفة إنما كان نقداً للمجتمع، وهو نقد يشوبه كثير من الذم لسلوك الناس حتى ليدعوا إلى اعتزالهم لما يتصفون به من الطمع والجشع والأنانية، والعاقل من اجتنبهم وفر منهم فرار السليم من الأجرب لا من الأباعد فحسب بل أيضا من الأقارب، يقول:

أخي فطنا كن واحذ الناس جملة ولا تك مغرور الظنون الكواذب

---

(٧٥٦) انظر حسن البدري الحجازي الأهزري تاريخ الجبرتي ١/ ٧٥ وما بعدها.

obeikandl.com

ولا سيما نوع الأقارب إنهم عقابك في الدنيا وعقر العقارب(٧٥٧)

ويستمر في هجو الأقارب وأنهم يتمنون الموت لك، إن كنت ثريا ليرثوك، وإن كنت فقيرا كنت لديهم خسيسا أخس من الكلاب. وهو على هذا النحو سيء الظن بالناس حتى بالأقرباء من ذوي الرحم، وكاد لا يسلم من سياط ذمه وهجائه أحد حتى المتصوفة، يقول فيهم من قصيدة طويلة:

احذر أولي التسبيح والسبحة والصوف والعكاز والشملة(٧٥٨)

قد صار إبليس لهم تابعاً يقول يا للعون والنجدة

مما حويتم علموني فما لي عنكم في المكر من غنية

لكم قيادي وانقيادي وما مثلكم في الناد والندوة(٧٥٩)

وأنتم تاج ي على هامتي ماهمت إلا كنتم همني(٧٦٠)

وهو طبعا يقصد نفرا من المتصوفة حادوا عن طريق التصوف وانحرفوا عن واجباته ومسئولياته، وتورطوا – كما يقول في القصيدة – في بعض الآثام، وكان يؤذيه منهم من يدعون الجنون وتظنهم العامَّة أقطابا وأولياء، حتى إذا ماتوا شادوا لهم أضرحة وجعلوها مَزارا، يقول:

ليتنا لم نعش إلى أن رأينا كل ذي جنة لدى الناس قطبا

علما هم به يلوذون بل قد تخذوه من دون ذي العرش ربا

---

(٧٥٧) عقر: بيت أو منزل.

(٧٥٨) الشملة: شال كالطيلسان يتلفع به على المنكبين والصدر.

(٧٥٩) الناد: النادي حذفت الياء لضرورة الشعر.

(٧٦٠) همت: من هام يهيم إذا خرج على وجهه لا يدري أين يتوجه.

obeikandl.com

إذ نسوا الله قائلين فلان عن جميع الأنام يفرج كربا
وإذا مات يجعلوه مزاراً وله يهرعون عجماً وعربا

وكأننا بإزاء داعٍ مصري يدعو ضد الصوفية ومن كانت تسميهم العامة بالمجذوبين وتقيم لهم الأضرحة والمزارات وتطلب منهم الدعاء أحياء وتقدم لهم النذور أمواتا. ومع كثرة أشعاره في هذا الجانب لم تترك وراءها في مصر أثرًا. على أننا نجده يوجه ذمه وهجاءه – ظلما وعدوانا – لبعض رجال الدين كما وجهه إلى المتصوفة، وهو في ذلك كله يسرف في هجائه وذمه، فلا رجال الدين انصرفوا عن التقوى ولا المصريون اتخذوا أقطاب الصوفية أربابا.

obeikandl.com

٣

شعراء الطبيعة ومجالس اللهو

عاش شعراء مصر على ضفاف النيل وفي وديانه ورياضه، ينعمون بمياهه المتدفقة العذبة وبما ينشئ من غروس وزروع وثمار وأزهار، وهو يجري نافثًا لعابه من حوض إلى حوض، باثًّا الحياة والجمال في كل ما يمسه، مما جعل العرب يلقبون مصر حين فتحوها بأنها فردوس الدنيا. وقد وصفها القرآن الكريم بأنها جنات وعيون وزروع ومقام كريم. وفي كل مكان نعم الشعراء بهذه الجنات يسرَّحون الطرف فيها والخيال، فتتكون لديهم حاسة الجمال، ويتعمقهم الشعور بما خص الله ديارهم من هذا النعيم الذي يقصر أي وصف عن تصويره. وطبيعي أن يتردد ذكر النيل على ألسنة الشعراء وذكر مشاهد رياضه الفاتنة وقواربه وسفنه الشراعية. ويحدثنا ابن قيس الرقيات حين زار مصر لعهد واليها عبد العزيز بن مروان في العصر الأموي عن رحلة نيلية له من الفسطاط إلى حلوان. وعُنى شعراء مصر بعده بوصف مثل هذه الرحلة ووصف النيل وزوارقه وسفنه، غير أن الشعر المصري في عصر الولاة لم يبق منه القليل وإلا بقية تتصل بالأحداث والولاة والقضاة احتفظ بها الكندي. وتبدو العناية بتدوين أشعار الشعراء منذ عهد الدولة الطولونية، ونجد المريمي القاسم بن يحيي شاعر خمارويه يخص النيل بقصيدة بديعة يصور فيها مراكبه بمثل قوله:(٧٦١)

(٧٦١) انظر مقالاً عن المريمي لهلال ناجي بمجلة الكتاب العراقية في العدد الثامن من السنة الثامنة.

obeikandl.com

ومطايا لا يغتدين ولا يسأمن كد البكور بعد الرواح[٧٦٢]

أصلها البر وهي ساكنة في البحر سكنى إقامة لا براح

وإذا أوقرت فذات وقار وإذا أخذت فذات مراح[٧٦٣]

جاريات مع الرياح وطورا كاسرات بالجرى جد الرياح

ساريات لا يشتكين سرى الليل ولا يرتقبن ضوء الصباح

لا يخفن الغمار يقذفن فيها ويخفن المرور بالضحضاح[٧٦٤]

ويطنب في تصوير المراكب، فهي في الماء وهي خالية تماما من الماء، وهي ذات أجنحة بيضاء وإن لم يكن لها جناح حقيقي، وهي من البيض ويطلي شطرها الأسفل بالقار، فهي بيضاء سوداء من ذوات الألواح لا الأرواح، وتقر على الشاطئ فتسكن دون ذلة في السكون، وتسير على صفحة النيل وتجدّ في سيرها دون اعتزام جماح، وكأنها على الماء قصور متحركة، وتنساب في النيلة خفيفة خفة الأفاعي، وتتجمع أحيانا فتظنها كباشا سودا تقابلت للنطاح. ومع ضؤولة ملاحها يحسن تدبير جريها مع الرياح مكافحا في ذلك أشد الكفاح، وله مساعدون يكثرون من الصياح حتى كأن السفن تجري خوفا من صياحهم. وهو تصوير بديع للسفن السابحة في النيل من شاطئ إلى شاطئ ومن مكان إلى مكان. ويوجز تميم بن المعز القول في وصف النيل وسفنه فيقول:[٧٦٥]

يوم لنا بالنيل مختصر ولكل يوم مسرة قصر

---

(٧٦٢) الرواح: الرجوع في العشي.

(٧٦٣) أوقرت: حملت حملاً ثقيلاً. المراح: المراح والنشاط.

(٧٦٤) الغمار: جمع غمر وهو الماء الكثير العميق الضحضاح: الماء القليل لا عمق فيه.

(٧٦٥) ديوان تميم ص٢٤١.

والسفن تجري كالخيول بنا صعدا وجيش الماء منحدر

فكأنما أمواجه عكن وكأنما داراته سرر(٧٦٦)

والصورة الأخيرة للنيل بديعة، فكأن أمواجه عُكَن أو تثنّيات أمامية لأجساد عارية وكأنما فَّواراته أو داراته في فيضانه السُّرر أو النقر الصغيرة أو النُّكت في بطون من كن يهدين إلى النيل من عرائسه. ولتميم أشعار كثيرة في وصف الحدائق والأزهار والثمار. ومن أوصافه الطريفة قوله في الناعورة:(٧٦٧)

تئن وليست بمحزونة أنين المحب الكئيب الحزين

فتنطق بالصوت لا من فم وتقذف بالدمع لا من جفون

كأن لها ميتاً في الثرى فأدمعها همع كل حين(٧٦٨)

إذا زمرت أطربت نفسها فغنت بمختلفات اللحون

غناء يرقص كيزانها ويظهر فيهن وثب المجون

فتهوي فوارغ في بئرها وتصعد منها ملاء العيون

والناعورة تئن أنين المحب اليائس الحزين وتشكو لا بفم وتبكي لا من عين، وتلحّن مختلف اللحون وكيزانها ترقص هاوية وصاعدة ممتلئة، لا تلتقي أبدا. ولظافر الحداد أشعار كثيرة في الرياض والثمار والأزهار، ومن قوله في النخل وبُسره أو بلحه:(٧٦٩)

النخل كالهيف الحسان تزينت فلبسن من أثمارهن قلائدا

---

(٧٦٦) العكن: جمع عكنة وهي مانثني من ظاهر البطن وطياتها.

(٧٦٧) الديوان ص٤٢٤.

(٧٦٨) همع: سوائل.

(٧٦٩) حسن المحاضرة ٢/ ٤٣٥.

obeikandl.com

وكأنها في خياله فاتنات تتزين حول جيدها بعقد البسر الزمردية والياقوتية، ويشبه طلعها الأخضر وهو لا يزال مغلقا على سنابل البلح البيضاء في أول تكونها بسلاسل من فضة يضمها حق من خشب الصندل طيب الرائحة. أما حين يتفتح الطلع ويظهر بلحه الأخضر المتصل بسنابله الصفراء فمكاحل من زبرجد رءوسها مسَّها الذهب: وأما الخوص الأخضر وتحته البلح الأحمر فزبرجد يثمر عقيقا" وكأنما الطبيعة جميعها من حول الشاعر جواهر نفيسة.

ويتغنى ظافر ببركة الحبش في مصر القديمة وكانت تشرف عليها قصور تميم، كما يتغنى بجزيرة الروضة التي يفترق النيل عندها أمام القاهرة وسرعان ما يجتمع، ويجعلها منه هي وأختا لها بجوارها بمنزلة السراويل، ويعجب ابن قلاقس بغروب الشمس وراء النيل فيقول:(٧٧٠)

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربة ... وأعجب لما بعدها من حمرة الشفق

غابت وأبدت شعاعاً فيه يخلفها ... كأنما احترقت بالماء في الغرق

وللهلال فهل وافي لينقذها ... في إثرها زورق قد صيغ من ورق(٧٧١)

وهي صورة خيالية بديعة، فقد غابت الشمس بل احترقت في النيل وخلَّقت فيه شعاعا، كما خلفت على صفحة الأفق حمرة الشفق، ويتسع به الخيال فيتصور الهلال زورقا من فضة جاء لإنقاذها من الغرق، ويموج بصدر البهاء زهير الحنين إلى مصر

---

(٧٧٠) الديوان ص٧٥.

(٧٧١) ورق: فضة.

obeikandl.com

وهو مع الملك الصالح في الديار الشرقية نواحي الفرات، فيتشوق إلى النيل ورحلاته النيلية فيه، وينشد:[٧٧٢]

حبذا النيل والمراكب فيه ... مصعدات بنا ومنحدرات
ولياليَّ بالجزيرة والجـ ... ـزيرة فما اشتهيت من لذاتي
بين روضي حكى ظهور الطواويـ ... ـس وجو حكى بطون البزاة[٧٧٣]
حيث مجرى الخليج كالحية الرقطاء ... بين الرياض والجنات
هات زدني من الحديث عن النيـ ... ـل ودعني من دجلة والفرات

إنه يذكر ذكرى عطرة رحلاته النيلية وأمواج النيل تصعد بقاربه وغيره من القوارب وتنحدر، وماتني صاعدة منحدرة، كما يذكر ذكرى عطرة مجالس أنسه في الجيزة وجزيرة الروضة والطبيعة متبرجة بأزهارها وورودها من حوله وهي مختلفة الألوان البهيجة كأنها ألوان الطواويس في جو صاف صفاء بطون البزاة الطائرة، والنيل يجري في خلجانه وبين رياضه كأنه حيات تسعي، حيات لا تنفث السم بل تنفث الحياة في الوديان والسهول الخضراء الجميلة، ويخفق قلب البهاء مرارا بهذا الحنين في أشعاره. وتُظِلُّ مصرَ أيامُ المماليك ويَظَلُّ الشعراء يتغنون بالطبيعة المصرية ومفاتنها الرائعة من النيل وقواربه ونزهاته وأشجاره وأزهاره، ولابن مكانس المتوفى سنة ٧٩٤ وَصْفٌ لشجرة سَرْو باسقة قصد موضعها مع بعض رفاقه، وَوَصَفَ معها القارب المطلي بالقمار الذي ركبوه، يقول:[٧٧٤]

---

(٧٧٢) البهاء زهير ص٢.

(٧٧٣) البزاة: جمع بازي وهي جنس من الصقور الصغيرة طويلة الساق والذنب.

(٧٧٤) خزانة الأدب للحموي ص٤٢٤.

مالت على النهر إذ جاش الخرير به كأنها أذن مالت لإصغاء
كأن صمغتها الحمرا بقشرتها الـ ـدكتاء قرص على أعكان سمراء
تسعي إليها على جرداء جارية من آلة كهلال الأفق حدباء
سوداء تحكي على الماء المصندل شامة على شفة كالشهد لعساء

والتصوير في الأبيات بديع، فشجرة السرو المائلة على النيل كأنها أذن مالت لتصغي إلى خَريره، ويتخيلها لونها الأحمر الداكن وهي منحنية على أمواج النيل في فيضانها كأنها قرص ملتصق بطيات بطن لسمراء عارية، ويقول ابن مكانس إنهم سعوا إليها في سفينة حدباء كهلال الأفق سوداء، ويتخيلها على ماء النيل الداكن المعطر عطر خشب الصندل شامةً مطبوعة لا على خَدٍّ، وإنما على شفة ضاربة إلى السواد تقطر شهدا وعسلا مصفى.

وبجانب شعر الطبيعة المصرية ومفاتنها لجميلة نجد شعراء يتغنون بمجالس الأنس والشراب، وقد زار مصر – كما مر بنا – أبو نواس أكبر من تغنوا بالخمر وكئوسها وسقاتها وندمائها، ولكن يبدو أنه لم يخلف من مجونه أثرا أو آثارا واضحة، لأن الشعب المصري بطبيعته معتدل ولا يجترئ على ما حرمه الدين، وفي رأيي أن المصريين إنما كانوا يحاكون شعراء العصر العباسي في المديح وغير المديح ودفعتهم هذه المحاكاة أو قل دفعت نفرا منهم نلتقي به منذ أيام الطولونيين إلى التغني بالخمر، أما إدماناً عليها وإما محاكاة وتقليدا لأبي نواس وأضرابه. وكان أول ما ساعد على ظهور هذا النفر أن أحمد بن طولون مع تمسكه بالدين كان لا يتحرج من معاقرة الخمر ومثله ابنه خمارويه، ويقال

إنه كان يشرب أربعين رطلاً من النبيذ.(٧٧٥) فحاكاهما بعض الشعراء في احتساء الخمر، وأخذوا يقصدون لها الأديرة، واشتهرت منذ هذا الحين أربعة أديرة ذكرها الشابشتي في كتابه الديارات، وهي دير القُصَير على قمة الجبل الشرقي ويشرف على طرة والنيل وكان خمارويه كثيرا ما يزوره، ودير مَرْحنَّا بمصر القديمة على شاطئ بركة الحبش، ودير نهيا بالجيزة، ودير طمويه بجوار حلوان. ويلقانا في أيام الإخشيديين غير شاعر يعكف على كئوس الخمر حتى الثمالة، يتقدمهم أحمد بن محمد بن طباطبا نقيب الأشراف العلويين بمصر، وفيها يقول:(٧٧٦)

أأترك الشرب والأمطار دائمة ... والطل منها على الأشجار منثور
والغصن يهتز كالنشوان من طرب ... والورد في العود مطوي ومنشور

وإذا كان نقيب الأشراف يشربها حتى الثمالة فقد حاكاه غير شاعر من مثل سعيد المنبوز باسم قاضي البقر وصالح بن مؤنس ومحمد بن عاصم وابن أبي العصام، وكان الأخيران يلمان بالأديرة، وكان ثانيهما خاصة يتهتك في شربها ويجترئ على الدين في غير استحياء حتى ليقول في وصف مجلس آثم من مجالسه:(٧٧٧)

مجلس لا يرى الإله به غيـ ... ـر مصل بلا وضوء وطهر
سجد للكئوس من دون تسبيـ ... ـح سوى نعمة نعمة لعود وزمر

فهو يعيش معيشة مزرية ماجنة أشد ما يكون المجون مستهترة أسوأ ما يكون الاستهتار.

---

(٧٧٥) النجوم الزاهرة ٣/ ٦٣.

(٧٧٦) المغرب (قسم الفسطاط) ص٢٠٣.

(٧٧٧) المغرب (قسم الفسطاط) ص٢٧٣.

obeikandl.com

ونلتقي بتميم بن المعز، ومر بنا أباه حرمه من ولاية العهد لانحرافه وسوء سلوكه وما سمعه من مجونه، وله في الخمر أشعار كثيرة، وقد يسوق الحديث فيها منفردة، وقد يجمع بينها وبين جمال الطبيعة أو بينها وبين بعض صواحبه، ومن قوله فيها وفي الورد:(٧٧٨)

ووردٍ أعارته الغواني خدودها ... وأهدي إليه المسك أنفاس مفتوقة
كأن الندى فيه مدامع عاشق ... أريقة غداة البين في خد معشوقه
أدرنا كئوس الراح في جنباته ... على حسن مرآه ورقة توريقه

وواضح أنه يحسن التصوير، فالورد خدود الغواني وهو عبق بشذا المسك، وكأن الندى فيه دموع عاشق تناثرت على خد معشوقه يوم الفراق، وهو يشرب على حسنه ورقة أوراقه. ومن طريف ماله في المزج بين الخمر وصحابته قوله:(٧٧٩)

ناولتها مثل خديها مشعشة ... صرفا كأن سناها ضوء مقباس(٧٨٠)
فقبلتها وقالت وهي ضاحكة ... وكيف تسقي خدود الناس للناس
إذا تناولت خدي كنت نائلة ... نفسي وهذا لعمري غير منقاس

والفكرة بديعة، فالخمر تشبه خديها بلونها ووهجها، وتناولت كأسها منه وقبلته مازحة قائلة له: كيف تسقي خدود الناس للناس؟ وكأنه قدَّم لها خدودها لتشربها، بل كأنه قدم لها نفسها، وهل من أحد يشرب نفسه، وإنه لقياس غريب، بل لا ينقاس.

---

(٧٧٨) الديوان ص٢٩٨.

(٧٧٩) الديوان ص٢٤٩.

(٧٨٠) المقباس: شطة النار.

obeikandl.com

وقبس منه الفكرة ابن هانئ الصغير المتوفى لأواخر العهد الفاطمي، إذ يقـول في خمريـة له:(٧٨١)

ومهفهف أبدى الشباب بخده ... صدغا فرقرق ورده في آسه(٧٨٢)
تتلهب الصهباء في وجناته ... فتسير من عينيه في جلاسه
حتى إذا ملأ الزجاجة خده ... نوراً وفاح الخمر من أنفاسه
خال الزجاجة أفعمت بمدامة ... فدنا ليشرب نوره من كاسه

وهو يقول إن صدغ الشعر أو خصلته تمتزج بخده كما يمتزج الآس الأبيض بالورد، ويتسع به الخيال فيقول إن الخمر تتلهب في خده فتلهب السحر في عينيه فيسير منهما إلى جلاسه، حتى إذا ملأ خده الكأس نورا ظنها ملئت خمرا، واستحال ظنه يقينا ودنـا مـن الكأس يريد أن يحتسيها، ولابن سناء الملك خمريات مرحة في لغة سهلة سلسة من مثـل قوله:(٧٨٣)

أين كئوسي وأين أكوابي ... فهي وحق المجون أولى بي
يبدو عيها الحباب إن مزجت ... مثل عيون بغير أهداب
تأتي ويأتي السرور يتبعها ... كأنه واقف على الباب
أسجد شكراً لها إذا طلعت ... كأن كأسي لدى محرابي

---

(٧٨١) الخريدة (قسم مصر) ١/ ٢٧٠.

(٧٨٢) رقرق: مزج.

(٧٨٣) الديوان ص٣٤.

obeikandi.com

وهو يصور في خمرياته مرحًا وابتهاجًا، ومَّر بنا أنه كان يعيش في بُلَهْنِيَةٍ ونعيم، وقلما كان يعترضه في حياته شوك يؤذيه، فهي ورد عطر، وهي ترف، وكل وسائل الترف مهيأة له، لذلك لا نعجب إذا رأيناه مرحا في خمرياته.

وكانت حياة ابن النبيه هنيئة لينة ناعمة مثله، مما جعل خمرياته تطفح بالمرح والابتهاج والشعور بأن كل ما في الكون والطبيعة رائق شائق، ومن طريف خمرياته قوله:(٧٨٤)

باكر صبوحك أهنا العيش باكره ... فقد ترنم فوق الأيك طائره(٧٨٥)
والليل تجري الدراري في مجرته ... كالروض تطفو على نهر أزاهره(٧٨٦)
فانهض إلى ذوب ياقوض لها حبب ... تنوب عن غثر من تهوي جواهره
حمراء في وجنة الساقي لها شبه ... فهل جناها مع العنقود عاصره
ساق تكون من صبح ومن غسق ... فابيض خداه وأسودت غدائره(٧٨٧)
تعلمت بانة الوادي شمائله ... وزورت سخر عينيه جاذره(٧٨٨)
فلو رأت مقلتا هاروت آيته الـ ... ـكبرى لآمن بعد الكفر ساحره

والفرحة تسري في الخمرية، وتلف كل شيءٍ فيها، فالطير يتغنى فرحا على الغصون، والسماء منَّورة بكواكبها الساطعة، وحباب الكأس كأنه ثغر الحبيبة، والخمر حمراء

---

(٧٨٤) الديوان ص٩١.

(٧٨٥) الأيك: الشجر الملتف.

(٧٨٦) الدراري: الكواكب المتلألئة. المجرة: مجموعة من النجوم تبدو كوشاح أبيض.

(٧٨٧) الغسق: الظلام. الغدائر: الضفائر.

(٧٨٨) الجآذر: جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية المعروفة بجمال عينيها.

obeikandl.com

كخدها وكأنما الجاني اقتطف خمرته مع عنقودها وما أجمل بياض خديها المشرقين وسواد ضفائرها البهيجة، وكأنما قبست بانة الوادي رشاقتها، وزورت جآذره سحر عينيها الخلابتين، ولو رآه هاروت لآمن بربه وكفَّ عن سحره.

ويكثر من الخمريات شعراء اللهو والخمر في أوائل عصر المماليك مثل الجزار والوراق وابن دانيال وسنتحدث عنهم بين شعراء الفكاهة. ولعل مما يشهد بأن كثيرين ممن كانوا ينظمون الخمريات إنما كانوا ينظمونها محاكاة وتقليدًا ولم يكونوا يتعاطون الخمر ولا تورطوا في إثمها أن نجد فقيها كبيرا من فقهاء زمن المماليك هو صدر الدين محمد بن عمر المشهور باسم ابن المرحَّل وابن الوكيل المتوفى سنة ٧١٦ ينظم فيها خمرية تداولها الرواة في عصره وبعد عصره استهلها على هذا النمط:(٧٨٩)

ليذهبوا في ملامي أية ذهبوا — في الخمر لا فضة تبقى ولا ذهب
لا تأسفن على مال تمزقه — أيدي سقاة الطلا والخرد العرب(٧٩٠)
فما كسوا راحتي من راحها حللا — إلى وعروا فؤادي الهم واستبلوا

وقد مضى يحبَّب فيها ويغري بها على عادة المجان، مما جعل بضع الناس يتهمه بمعاقرتها وقدم للقضاء وثبتت براءته من وزرها الآثم، وعاد إلى دروسه وعاد إليه طلابه. وللشيخ برهان الدين القيراطي الذي مرت ترجمته بين شعراء الغزل خمريات بدوره، وكان فقيها ومحدثا، وكأنه ينطق بلسان شاعر ماجن كبير، إذ يقول:(٧٩١)

كم ليلة نادمت بدر سمائها — والشمس تشرف في أكف سقاتها

---

(٧٨٩) الفوات ٢/ ٥٠٢.

(٧٩٠) الطلا: الخمر. الخرد: جمع خريدة وهي البكر الحيية.

(٧٩١) المنهل الصافي ١/ ٧٢.

والبدر يستر بالغيوب وينجلي كتنفس الحسناء في مرآتها
خالفت في الصهباء كل مقلد وسعيت مجتهداً إلى جاناتها
أمحرك الاوتار إن نفوسنا سكناتها وقف على حركاتها
ومليحة أرغمت فيها عاذلي قامت إلى وصل برغم وشاتها
يا خجلة الأغصان من خطراتها وفضيحة الغزلان من لفتاتها

والقيراطي إنما يستخدم مهارته الفنية التي صَّورناها في غير هذا الموضع، ليدل على براعته في محاكاة المجان لزمنه، بل لعل أحدا من معاصريه لا يستطيع اللحاق به في مثل هذه الأبيات، وهو يجمع فيها بين جمال الطبيعة في الليالي القمرية وبين الصبهباء أو الخمر وصاحبته أو الغزل، وهي طويلة، وقد نوه بها الأسلاف طويلا لروعتها الموسيقية والتصويرية.

وأخذ يزاحم الخمر في عصر المماليك تعاطي الحشيش، وحين أمر الظاهر بيبرس سنة ٦٦٦هـ. بإغلاق حانات الخمور وحطم دِنانها أمر بحرق الحشيش، وأشار إلى ذلك ابن دانيال في بعض شعره ويقول حين أبطلت المنكرات في أيام السلطان لاجين سنة ٦٩٦ وفي مقدمتها الخمر والحشيشة:(٧٩٢)

احذر نديمي أن تذوق المسكرا أو أن تحاول قط أمراً منكراً
ذي دولة المنصور لاجين الذي قهر الملوك وكان سلطان الورى
إياك تأكل أخضرا في عصره ياذا الفقير يصير جسمك أحمرا

والأخضر: الحشيش. ويشير إلى العقاب الشديد الذي سينزل بمتعاطيه، ونهى ابن دانيال بالمثل عن تعاطي الخمر. وسرعان ما يذهب عصر لاجين كما ذهب عصر الظاهر

(٧٩٢) فوات الوفيات ٢/ ٣٨٨.

obeikandl.com

بيبرس، ويعود نفر من الناس إلى الحشيشة والخمر، وممن تعلق بها ابن الصائغ، وله فيها عدة(٧٩٣) مقطوعات من مثل قوله:

قم عاطني خضراء كافورية　　قامت مقام سلافة الصهباء
يغدو الفقير إذا تناول درهما　　منها له تيه على الأمراء

ووصفها بأنها كافورية لأنه كان يزرع منها كثير ببستان كافور في القاهرة، ويلقانا كثيرون يفضلون عليها الخمر لمجالسها وكئوسها ودنانها وقيانها.

وتظل الحشيشة والخمر على ألسنة الشعراء في الحقبة العثمانية، ومما نقرأ لهم قول أبي المواهب(٧٩٤) البكري المتوفى سنة ١٠٣٧ للهجرة:

وقهوة تنضح مسكا ولا　　بدع ففي الفنجان شكل الغزال(٧٩٥)
تديرها هيفاء ممشوقة　　خود تثنت في برود الدلال(٧٩٦)
بغرة أو طرة وزعت　　أفكارنا بين الهدى والضلال
تقول للشمس وقد أقبلت　　تلثمي ما أنت إلا خيال

وربما كان من أسباب شيوع الخمريات على ألسنة بعض الشيوخ أيام المماليك والعثمانيين أنها كانت قد شاعت على ألسنة الصوفية من أمثال ابن الفارض وابن عربي متخذين من نشوئها رمزًا لنشوة الحب الإلهي، فلم يجد كثيرون حرجا في نظمها ومحاولة

---

(٧٩٣) انظر في هذه المقطوعات كتاب دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين للدكتور محمد كامل حسين ص١٠٧ وما بعدها.

(٧٩٤) ريحانة الألبا ٢/ ٢٢٦.

(٧٩٥) قهوة: خمر.

(٧٩٦) خود: الشابة الحسنة.

obeikandl.com

التفنن فيه. ونقف عند نفر من شعراء الطبيعة ومجالس اللهو، وكلهم من الشعراء أيام الفاطميين، أما من جاءوا بعدهم فقد مزجوا بين المجون والفكاهة الشعبية وسنخصهم ببعض الحديث.

ابن[٧٩٧] وكيع التنّيسي

يسوق ابن خلكان لابن وكيع نسبا طويلا، فيقول هو الحسن بن علي بن أحمد بن محمد بن خلف الضبي، ووكيع لقب جده محمد بن خلف، ويذكر أنه كان من أهل القرآن والفقه والنحو والسير وأيام الناس وأخبارهم، وله مصنفات كثيرة، ويقول إنه كان نائبا في الحكم بالأهواز في إيران لعبدان الجواليقي وإنه توفي سنة ٣٠٦ ببغداد، ويذكر عن الشاعر أنه بغدادي ومولده بتنّيس، وهي مدينة كانت بقرب بورسعيد الحالية، وتمتد في بحيرة المنزلة، واشتهر أهلها[٧٩٨] بصناعة النسيج والتفوق في صناعة الثياب الشفافة والملونة، ويذكر المؤرخون والجغرافيون أنها كانت تكتظ بالجنان والكروم والفواكه والأشجار والأزهار والطيور من كل لون، وأكثر أغذية أهلها السمك، وهم مياسير أصحاب ثراء، وأكثرهم حاكة، وهم يحبون النظافة والدماثة والغناء واللذة وأكثرهم يبيتون سكارى. ويبالغ الأسلاف في وصف ما كان بهذه المدينة أو الجزيرة التي اندثرت من مشاهد طبيعية ومن جنات ورياض. وفيها ولد ابن وكيع كما يقول ابن خلكان ولا نعرف تاريخ مولده، أما وفاته فمعروف تاريخها وهو سنة

(٧٩٧) انظر في ابن وكيع وترجمته وأشعاره اليتيمة ١/ ٣٥٦ وتتمة اليتيمة ١/ ٢٩ وحلبة الكميت في مواضع مختلفة والعمدة لابن رشيق (طبعة أمين هندية) ٢/ ٢١٦ وابن خلكان ٢/ ١٠٤.

(٧٩٨) انظر فيهم نقول المقريزي عنهم في كتابه الخطط ١/ ٣٣١ وما بعدها.

٣٩٣ وكذلك مكانها وهو مسقط رأسه تنَّيس. ولا نعرف الأسباب التي دفعت أباه إلى اتخاذ تنيس دار مقام له ولأسرته، وقد نشأ فيها الشاعر وتثقف. ويبدو أنه طلب المزيد من الثقافة والتعرف على أدباء القاهرة فرحل إليها، وكانت شاعريته تفتحت فلفت إليه الأنظار، ولا ندري متى كان ذلك تماما، غير أن من المؤكد وجوده في القاهرة حين نزلها المتنبي سنة ٣٤٦ ويبدو أن صلة انعقدت بينه وبين ابن حِنْزابة وزير كافور، وكانت العلاقات قد ساءت بينه وبين المتنبي، حينئذ رأينا ابن وكيع يؤلف كتابا في سرقات المتنبي سماه المنصف إرضاء للوزير، ويقول ابن رشيق في العمدة: "سماه كتاب المنصف، مثل ما سُمِّيَ اللديغ سليما، وما أبعده عن الإنصاف". ولم يكن المتنبي من ذوق ابن وكيع، وبون بعيد بين ذوقيهما، فالمتنبي شاعر جاد منتهى الجد، لا يعرف اللهو ولا الخمر ولا المجون، وابن وكيع شاعر ماجن منتهى المجون، فاندفع يريد أن يسقط المتنبي من عليائه وأنى له ذلك؟! ويبدو أنه كان ثريا، فأعانه ثراؤه على انغماسه في المجون، ويدل على هذا الثراء أننا لا نجد رواة شعره يذكرون له قصائد في ابن حُنْزابة ولا في الخلفاء الفاطميين وقد عاصر منهم المعز والعزيز والحاكم، فحسبه دائماً كأس وطاس، حتى ليؤثرهما على توالي منصب الخلافة الرفيع يقول:

وإن أتوك فغقالوا كن خليفتنا ... فقل لهم إنني عن ذاك مشغول
وأرض الخمول فلا يحظى بلذته ... إلا امرؤ خامل في الناس مجهول
واسفك دم القهوة الصهباء تحي به ... روحي فإن دم الصهباء مطلول(٧٩٩)

(٧٩٩) مطلول: مهدر لا يطلب ثأره.

obeikandl.com

فهو يؤثر حياة الخمول والمجون على حياة العزة حتى ولو كانت الخلافة، ويبدو أنه تمثل كل ما في ديوان أبي نواس من مجون حتى الجانب السيئ عنده جانب الغلمان، إذ نراه يداعب غلاما نصرانيا في مربعة مزدوجة طويلة أشرنا إليها في الفصل الماضي، شكا له فيها من حبه وعذابه فيه، ومضى يتوعده تظرفا إن لجَّ في هجره أن يشكوه إلى القساوسة والرهبان والأسقف والمطران والبطرك، ويقول له كيف تحل قتل الروح وهو ما لم يأت به المسيح ولا أخبر به يوحنا ومتى ولوقا ومرقص.

وكل ذلك على سبيل الدعابة، ونظن ظنا أنه لم يكن متورطا في هذا الإثم، وكل ما في الأمر أنه هو ومن نظموا فيه بعده على مر السنين. إنما كانوا يحاكون فيه مجان بغداد تظرفا ودعابة على نحو ما يتضح في مربعة ابن وكيع المزدوجة. وربما كان من أسباب ذلك كثرة النصارى في تنيس كما يقول المقريزي وكثرة حاناتهم فيها ومن بها من السقاة والغلمان. ومن المؤكد أنه كان لا يطيل مكثه في القاهرة فهو دائم الرجوع إلى بلدته ناعما بثرائها فيها ومشاهدها الطبيعية. وله بجانب هذه المزدوجة المربعة مزدوجة ثانية في وصف فصول السنة يبدؤها بوصف فصل الصيف وحره وغباره وما يجلب لشارب الخمر من الصداع، ويتلوه بفصل الخريف وأهويته واختلاف برده وحرَّه، ويتبعه بفصل الشتاء وما فيه من برد وأمطار وزكام وحاجة مدمني الخمر فيه إلى الدفء وإيقاد النار ثم يفيض في بيان محاسن الربيع المنتشرة في كل عناصر الطبيعة من شمس وقمر وطيور ورياض وأزهار وثمار، ومما ينعم به شارب الخمر ويجد فيه هناءه. ونقتطف الأبيات التالية من خمرية له جمع فهيا بين وصف الخمر ووصف الطبيعة في الربيع وصفَ مشغوف بها مفتون، يقول:

أبدى لنا فصل الربيع منظرا ... مبثله تفتن ألباب البشر

فالأرض في زي عروس فوقها ... من أدع القطر نثار من درر[٨٠٠]

أما ترى الورد كخدي كاعب ... راودها، فامتنعت منه بشر

كأنما الخمر عليه نفضت ... صباغها أو هي منه تعتصر[٨٠١]

أخجله النرجس إذ جادله ... فاحمر من فرط حياء وخفر

وانظر إلى الأطيار في أرجائه ... إذا دعا الثاكل فيها وصقر[٨٠٢]

كأنها – تصفر في رياضها – ... سرب قيان فوق بسط من حبر[٨٠٣]

والنسك في عصر الصبا كأنه ... من قبحه خلع عذار في الكبر[٨٠٤]

فاشرب عقاراً لو أصابت حجراً ... لطار من خفته ذاك الحجر

كأنما الاوطار فيها جمعت ... فليس في العيش لجافيها وطر[٨٠٥]

وإنما أطلنا في اقتطاف هذه الأبيات لندل على براعة ابن وكيع في تصوير الطبيعة تصوير الصب المفتون بها، فهي عروس جميلة موشاة بألوان زاهية، ورأتها السماء فعشقتها وأخذت تبكي بأجفان المطر، وما أروع الورد، إنه كوجنتي فتاة راودها ولهان بها، فانثنت حياء وتضرجت وجنتاها خفرا. ويعجب ابن وكيع أشد العجب هل الخمر نفضت لونها القاني على الورد أو هي معصورة منه ومستخرجة، أو لعل النرجس جاد

---

(٨٠٠) النثار: ما ينثر على العروس ليلة الزفاف من الدراهم الفضية.

(٨٠١) صباغها: لونها.

(٨٠٢) الثاكل: من فقدت ابنا لها.

(٨٠٣) حبر: جمع حبرة، وهي القطعة من نسيج الحرير.

(٨٠٤) خلع العذار: كناية عن التهتك والإغراق في المجون.

(٨٠٥) الوطر: الأمنية.

obeikandi.com

له فاحمَّر لقوة حجته خجلا. وفي أرجاء هذا الروض البديع يغني الطير غناء شجيا مؤثرا، وكأنه أسراب قيان تغني فوق بسط من سندس وحرير. ويدعو إلى اللهو واللذة في زمن الصبا والشباب، ويزعم أن النسك وهجران المتاع في بواكير الحياة ذميم مثل خلع العذار والمجون في الكبر. وكأنه نظم في هذه الخمرية في شبابه. ويزعم ما زعمه أبو نواس قبله من أن الخمر لو مست حجرا لمسَّه السرور، وأنها مجمع الأوطار والمنى. ودائما يقول إنه عاكف على شرب الخمر وسط مباهج الطبيعة، غير مُرْعَوٍ ولا مزدجر على شاكلة قوله:

جانبت بعدك عفتي ووقاري ... وخلعت في طرق المجون عذاري
خوفتني بالنار جهدك دائباً ... ولججت في الإرهاب والإنذار
خوفي كخوفك غير أني واثق ... بجميل عفو الواحد القهار
انظر إلى زهر الربيع وما جلت ... فيه عليك طرائف الأنوار
ناحت لنا الأطيار فيه فأرهجت ... عرس السرور ومآتم الأطيار(٨٠٦)
فاشرب معتقة كأن نسيمها ... مسك تضوعه يد العطار(٨٠٧)
مع مسمع حلفت له أوتاره ... أن لا تنافر رنة المزمار
فطن يحرك كل عضو ساكن ... تحريكه لسواكن الأوتار

وهو يعلن لصاحبه أنه انغمس في المجون غير مصغ لتخويفه له من عذاب النار، إذ يأمل في عفو الله وغفرانه، وهو يكرر هذه النغمة كثيرا في خمرياته، ويقول له: انظر إلى ما حولك من جمال الطبيعة الساحر وما فيها من بدائع النور والزهر وما ينتشر فيها من

(٨٠٦) أرهجت: أثارت.

(٨٠٧) تضوعه: تذكي رائحته وتنشرها.

obeikandl.com

نواح الطير الذي يستثير حزنه. كما يستثير فيه السرور والفرح. ويدعوه إلى شرب الخمر ذكية الرائحة وسط مباهج الطبيعة على ألحان مغن حاذق يجيد العزف حتى ليحرك في السامع كل عضو ساكن منه تحريكه لسواكن أوتاره. وفي كتاب اليتيمة قطعة كبيرة من شعر ابن وكيع. وكان له ديوان رآه ابن خلكان سقط من يد الزمن، ولو وصلنا لعرفنا بوضوح مدى تأثيره في الشعراء المصريين بعده وفيما نظموه من شعر الخمر والطبيعة، ومع ذلك ففي رأينا أن هذه القطعة كافية في بيان أثره فيمن خلفوه. وهذه هي أول مرة نلتقي فيها بشاعر في إقليم عربي يعيش للخمر و الطبيعة ولا يعنى أي عناية بالمديح.

الشريف[٨٠٨] العَقِيليّ

هو علي بن الحسين بن حَيْدرة ينتهي نسبه إلى عقيل بن أبي طالب، وتاريخ مولده غير معروف وكذلك تاريخ وفاته، غير أن الثعالبي ترجم له في اليتيمة باسم أبي الحسن العقيلي وأردف الاسم بكلمة رحمه الله والثعالبي ترجم لشعراء أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس، وقد يفهم من قوله رحمه الله، أن العقيلي لابد أن يكون قد توفي قبل وفاته ومعروف أن الثعالبي توفِّي سنة ٤٢٩، ويقول ابن سعيد في المغرب: "سألت عن العقيلي جماعة من أهل مصر فلم أر فيهم من يتحقق أمره، وقال لي أحد الشرفاء المعنيين بأَنساب الشرف: كان في المائة الرابعة". وقد يشهد لذلك أننا نجد في ديوانه أبياتا ينوه فيها بالحسين بن جوهر وزير الحاكم، وكان من بين من قتلهم سنة ٤٠١. ويبدو أن

(٨٠٨) انظر في الشريف العقيلي وترجمته وأشعاره اليتيمة ١/ ٤١٥ والمغرب (قسم الفسطاط) ص٢٠٥ وقد أنشد ابن سعيد قطعة كبيرة من شعره وراجع الفوات ٢/ ٩٩ والفن ومذاهبه في الشعر العربي ص٤٨٣ ومقدمة ديوانه (طبع الحلبي) . بتحقيق د. زكي المحاسني.

obeikandl.com

كلمة "رحمه الله" في اليتيمة وضعها الثعالبي – إن كان هو الذي وضعها – خطأ أو سهوا فقد جاء في خطط المقريزي ما يشَير إلى أن العقيلي امتدت حياته حتى سنة ٤٤٨ إذ ذكر أنه أنشد المستنصر الفاطمي صبيحة يوم عرفة في هذه السنة:

قم فانحر الراح يوم النحر بالماء ولا تضح ضحى إلا بصهباء(٨٠٩)

أدرك حجيج الندامى قبل نفرهم إلى منى قصفهم مع كل هيفاء

فخرج المستنصر في ساعته بروايا الخمر تُزْجي بنغمات حُداة الملاهي وتساق، حتى أناخ بعين شمس (بجوار القاهرة) في كبكبة من الفسَّاق فأقام بها سوق الفسوق على ساق، يقول: "وفي ذلك العام أخذه الله وأخذ أهل مصر بالسنين"(٨١٠) وكأن ذلك كان في أول عام من أعوام المجاعة المشهورة لعهد المستنصر التي بدأت سنة ٤٤٢ وظلت سبع سنوات، حتى هلك الحرث والنسل. والخبر يدل على أن الشريف العقيلي عاش على الأقل حتى هذه السنة، ويستدرك صاحب المغرب على من ذكر له أنه كان في المائة الرابعة قائلا: "وقفت في الخريدة (للعماد الأصبهاني) على ترجمته فدلَّ على أنه متأخر العصر عن المائة الرابعة". ولعل في ذلك كله ما يشهد بأنه عاش مطالع شبابه في القرن الرابع، وامتدت به الحياة فعاش دهرًا في القرن الخامس.

وهو من أهل الفسطاط، وكان ثريا ثراء مفرطا حتى قال ابن سعيد: كان له بها متنزهات، وهو في ذلك مثل تميم بن المعز، فهما جميعا من سكانها وأصحاب البساتين والقصور بها، غير أن تميما شُغل في ديوانه بمديح أبيه وأخيه العزيز، أما العقيلي فكما

---

(٨٠٩) انحر: اذبح. يوم النحر: يوم الأضحى. تضحي تذبح الأضحية. الصهباء الخمر.

(٨١٠) خطط المقريزي ٢/ ٥٨٣ والسنين: الجدب.

يقول ابن سعيد "لم يكن يشتغل بخدمة سلطان ولا مدح أحد" وشهد بذلك ديوانه فليس فيه مديح لخليفة من الخلفاء الفاطميين، فيه فقط بعض إخوانيات قليلة، وكذلك بعض فخر وهجاء، ولا نبالغ إذا قلنا إنه استغرقه شعر الطبيعة والخمر والحب وكأنه امتداد لابن وكيع التنيسي.. ينظم أشعاره لنفسه ويتغنى لها بالطبيعة ومفاتنها مازجًا بينها وبين الخمر في نشوة وفرح ومسرة. ونشعر كأنما ينتفض أمامها انتفاضا يعم كيانه كله، وهو يشاهد جداولها ومياهها ورياضها وأشجارها وأزهارها وبركها، حتى لتتحول أمامه معبدًا ما يزال يقدم إليه تراتيله مصحوبة ببخور الخمر وشذاها، وكأن حياته وعبادته إنما تأتلف من الطبيعة والخمر وكئوسهما المترعة، وهو يدعو دائما إلى احتساء هذه الكئوس، وكأنه يعب من الطبيعة ما يعب من فتنها، ثم يعب من الخمر ما يعب من دِنانها، مع القدرة البارعة على التصوير والتحول بالمناظر الواسعة في الطبيعة إلى مناظر مركزة، كالكَّوة تتجمع فيها الأشعة فتتحول إلى ما يشبه قوس قزح رائع بديع، يقول داعيا إلى المتاع بجمال الطبيعة وشرب الخمر العتيقة:

الغيم ممدود السرادق ... والزهر مفروش النمارق(٨١١)
والقاش قد نقشت لنا ... منه المجالس والمرافق
أشجاره وثماره ... مثل الترائب والمخانق(٨١٢)
قد غنت الأطيار في ... طرقاته كل الطرائق
فاعتق فؤادك فيه من ... رق الهموم بشرب عاتق(٨١٣)

(٨١١) النمارق: الوسائد.

(٨١٢) المخانق: القلائد.

(٨١٣) العاتق: الخمر.

فالأقحوان غصونه بيض النواصي والمفارق

ومراود الأمطار قد كحلت بها حدق الحدائق

والطبيعة من حوله قد تجمعت في حفل بسرادق بهيج وسائده من الزهر الملون، وكذلك مجالسه ومتكآته كأنما قد قُطِّعت وفُصِّلت من القاش أو من نسيج حريري متعدد الأصباغ، بينما تطلّ عليه من الأشجار والثمار الترائب والقلائد. والطير تشدو وتغني، منظر فاتن ومَغْنى ساحر، جدير بالشراب المزيل للهموم، والأقحوان يتمايل على أغصانه وكل ما في الحدائق آخذ زينته وزخرفه، حتى العيون لم تنس كحلها، عيون الأزهار البديعة، فقد ناولتها الأمطار مراود تتم بها زينتها وحسنها الفاتن. ومن قوله في مطلع الربيع.

قد بيضت قبة السماء وزوقت قاعة الفضاء

فالسماء بسحبها البيضاء الممتدة على الأفق من كل جانب كأنها قُبَّة بُيِّضت، والربيع بأزهاره وأنواره كأنه قاعة متألقة نُقِشَت ونُمِّقَتْ بمنمنمات الربيع وزخارفه البديعة. وعلى نحو ما تتجسد الطبيعة في مناظر يتمثل فيها التجميع والحشد والتركيز يكثر عنده التشخيص وبث الحياة في عناصر الطبيعة من مثل قوله:

قد حبا طفل الصباح بين دايات الرياح

وقوله:

السحب ترضع من بنات الأرض ما جعل الربيع لها الغصون مهودا

وقوله:

أمهات الثمار بين الروابي تائهات بلبس خضر الثياب

وبنات الكروم تجلي بما قد صاغه الماء من عقود الحباب

obeikandl.com

فطفل الصباح يحبو بين دايات الرياح والسحب ترضع أزهار الأرض على مهود الغصون، وأمهات الثمار من الأشجار يملؤها التيه والدلال بثيابها الخضراء، والماء يجلو الخمور من بنات الكروم بما يصوغ لها من عقود الحباب. وعلى هذا النحو ما نزال نحس عند الشريف العقيلي سحرا كان يحس إزاءه بنشوة كنشوة الخمر، وكان لا ينسى النشوتين جميعا حتى في غزله كقوله:

قامت قيامة روحها لرواحي ... إن النوى لقيامه الأرواح
وبكت فصار الدمع في وجناتها ... مثل الحباب على كئوس الراح
وكأن صفحة وجهها لما بكت ... روض يرصع ورده بأقاحي

وقرار هذه الأبيات الروض وما يرصعه من أنوار وأزهار وهو القرار العام لشعره، فهو شاعر الرياض ومباهجها، وهي أنشودته أو أناشيده التي ظل يتغنَّى طوال حياته بها وبما كانت تُلْقى في وهمه وخياله من رؤى وأحلام وأشباح لا تكاد تحصى، مما جعل الاستعارة المكنية القائمة على التشخيص تكثر في أشعاره كثرة مفرطة، مع التفوق فيها والبراعة، ولاحظ ذلك الصفدي من قديم فقال: ":ما رأيت أحدا من شعراء المتقدمين أجاد الاستعارة مثله ولا أكثر من استعاراته اللائقة الصحيحة التخيل".

obeikandl.com

ابن[٨١٤] قادوس

هو أبو الفتوح محمود بن إسماعيل الدمياطي المشتهر باسم ابن قادوس، من شعراء النصف الأول من القرن السادس الهجري، ذكره أبو الصلت الشاعر الأندلسي نزيل مصر في رسالته التي ألفها عن الشعراء المصريين حوالي سنة ٥١٠ مما يدل على أن نجمه أخذ يلمع ويتألق في المحافل الأدبية بالقاهرة منذ هذا التاريخ. وله مدائح مختلفة في الأفضل بن بدر الجمالي المقتول. كما مر بنا سنة ٥١٥. ويبدو أن نجمه ظل يصعد في الأدب حتى عمل في الدواوين الفاطمية، وما زال يترقَّى بها حتى أُسندت إليه – مع الموفق بن الخلال – رياسة ديوان الإنشاء، واستمر يتقلدها حتى نزل به القضاء سنة ٥٥١ للهجرة. ورياسته لهذا الديوان تجعلنا مهيئَّين لأن يكون شعره – مثل النثر المصري الكتابي في تلك الحقبة – مرصعا بالبديع، كقوله في الأفضل:

مليك تذل الحادثات لعزه ... يعيد ويبيدي والليالي رواغم
وكم كربة يوم النزال تكشفت ... بحملاته وهي الغواشي الغواشم[٨١٥]
تشيد بناء الحمد والمجد بيضه ... وهن لآساس الهوادي هوادم[٨١٦]

---

(٨١٤) انظر في ابن قادوس وترجمته وأشعاره الخريدة (قسم شعراء مصر) ١/ ٢٢٦ والرسالة المصرية في المجموعة الأولى من نوادر المخطوطات نشر عبد السلام هرون وحسن المحاضرة للسيوطي ١/ ٥٦٣ ومقالاً لنا عنه في مجلة الثقافة العدد ٦٨٩.

(٨١٥) الغواشي: النوازل: الغواشم: القاهرة.

(٨١٦) البيض: السيوف.

obeikandl.com

وواضح أن في البيت الأول طباقا بين "يعيد ويبدي" وأن في البيت الثاني والثالث جناسا ناقصا بين "الغواشي والغواشم" وكذلك بين "الهوادي وهوادم". وكان بارعا في صنع ما يسمى في البديع بحسن التعليل، إذ كان يعرف كيف ينفذ إلى تعليلات طريفة إن هو رضى عن شيء، فإنه يلتمس له ما يحسَّنه كقوله الذي أنشكدناه بفواتح الفصل في جارية سوداء:

يلومني في ظبية مخلوقة من كحل
والحجر الأسود لم يخلق لغير القبل

فهو يرد عن السواد في الجارية قبحه، إذ يجعلها مخلوقة من كحل العيون الذي تتزين به النساء، وقد مضى يقول – كما مر بنا – إن السواد هو الذي يمنح العين السوداء بصرها ونورها، وما يبلغ حجر كريم ما يبلغ الحجر الأسود من القدسية، حتى لينهال عليه الحجاج بالقبل. وفي أشعاره توريات يصنعها تظرفا. وكل شيء يؤكد أنه كان شاعرا بارعا، غير أن ديوانه سقط من يد الزمن، وهو في شعره يتغنى بالخمر وينفذ في وصفه لها إلى تصاوير بديعة، ويبدو أنه كثيرا ما كان يشربها مع صحبه في الأديرة، يقول:

قم قبل تأذين النواقيس واجل علينا بنت قسيس
عروس دن لم يدع عتقها إلا شعاعاً غير ملموس
تجلي علينا باسماً ثغرها فلا تقابلها بتعبيس
مذهبة اللون إذا صفقت مذهبة للهم والبوس
نار إلى النار دعا شربها وشردقت بالعقل والكيس
في روضة كانت أزاهيرها كأنها ريش الطواويس

obeikandl.com

وهو يحتسيها مع رفاقه في بستان دير، وهو يعبّ منها متمليا بجمال الطبيعة، وهي تجلي عليهم عروسا رشيقة معتقة، كأنما لم يبق منها عتقها إلا شعاعاً يفرّج الهموم حين يمسُّ الحلوق، وإنها لذات ثغر باسم بما يطفو عليها من حَباب، وابن قادوس يشربها وهو غير ناس أنها محرمة وأنه يتناولها من يد إبليس، وكأنه آمل في عفو ربه. وعلى نحو ما كان يمزج بين الخمر والطبيعة، محتسيا كئوس النشوة منهما جميعها، كذلك كان يمزج بينها وبين الغزل في مثل قوله:

وليلة كأغماض الطرف قصرها ... وصل الحبيب ولم تقصر عن الأمل
بتنا نجاذب أهداب الظلام بها ... كف الملام وذكر الصد والملل
وكلما رام نطقا في معاتبتي ... سددت فاه بطيب اللثم والقبل
وبات بدر تمام الحسن معتقي ... والشمس في فلك الكاسات لم تفل(٨١٧)
فبت منها أرى النار التي سجدت ... لها المجوس من الإبريق تسجد لي
راح إذا سفك الندمان من دمها ... ظلت تقهقه في الكاسات من جدل(٨١٨)
فقل لمن لام فيها إنني كلف ... مغرى بها مثل ما أغريت بالعذل(٨١٩)

والخمرية بديعة يصَّور فيها ابن قادوس ليلة من أروع ليالي وصاله، يعاتب فيها صاحبته مصرحا بما اقتطفا فيها من أزهار الوجد والوله والصبابة، بينما شمس الخمر تتفلَّت أشعتها من أفلاكها في الكئوس مشرقة غير غاربة، ويشعر كأنها نفس النار التي طالما سجد لها المجوس تسجد له حين تصب من إبريقها في كأسه، ويعجب أن يسفك

(٨١٧) تفل: تغرب.

(٨١٨) جذل: سرور.

(٨١٩) العذل: اللوم.

obeikandi.com

دمها الشارب فتسيل من الدن إلى كأسه غير محزونة، بل مستبشرة، بل ضاحكة مقهقهة لشدة فرحها وسرورها. ويقول لعاذله في شربها كفي عذلا، فإنني مولع بها ولوعك باللوم والعذل. وحسبنا هذه الخمرية وسابقتها لندل على تفوق ابن قادوس في تصوير الشغف بالخمر إما حقيقة وإما محاكاة لشعراء بغداد من أمثال أبي نواس ومعاصريه.

عبد[٨٢٠] الباقي الإسحاقي المنوفي

من شعراء القرن الحادي عشر الهجري أيام العثمانيين، ولد بمنوف وبها نشأ، وتلقى العلم على شيوخها، ثم نزل القاهرة وأكبَّ على حلقات علمائها ينهل منها، حتى أصبح من علمائها، وعُنى بالتاريخ، وكان شاعرا بارعا، ويصفه المحبي بأنه تجاوز في الرقة الحد وأنه يمتاز بحلاوة معانيه وعذوبة مبانيه، ومازال ينظم الشعر حتى توفي بمسقط رأسه سنة ألف ونيف وستين، وقد أنشد له طائفة من أشعاره، استهلَّها بخمرية ممزوجة بالغزل على هذا النمط.

تمشت لنا تخجل الكوكبا ... فناديتها مرحبا مرحبا
أدارت بحضرتنا قهوة ... وطافت بكأس الطلا مذهبا[٨٢١]
رنت ورمتني بألحاظها ... وقد أذكرتني عهد الصبا
وغنت لنا فطربنا لها ... ويا حسن ذاك الذي أطربا

---

(٨٢٠) انظر في عبد الباقي الإسحاق وترجمته نفحة الريحانة للمحبي ٤/ ٥٨٩ وكذلك كتابه: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ٢/ ٢٨٩.

(٨٢١) الطلا: الخمر.

obeikandl.com

وهو يتغزل بساقية مغنية أسرت لبَّه، وقد دارت عليه بكئوس الخمر، وهو ينتشي بها وبجمال المغنية كما يقول، مصَّرحا بذلك مجاهرا في غير مداراة. وفي قصيدة ثانية يذكر مجلسا للهو والغناء نعم به بين مشاهد الطبيعة في عفاف لا يدانيه عفاف. ومن قوله في خمرية راقصة:

رقص المجلس أنسا ... فاجعل الجرة كأسا
واسقني بالزق والطاس ... فإني طبت نفسا
وأقم للهو واللذات ... في حاني عرسا
كيف لا وهي تريني ... في دجا الظلماء شمسا
وتقيم الميت حيا ... بعد ما جاور رمسا

وهو لغرامه بالخمر وشغفه بها يريد أن يحتسيها جرارا وزقا وطاسا لا كأسا فحسب، وتصَّور نفسه كأنما يعيش في حان يخالها فيه شمسا، ترد إلى الموتى الحياة، تعبيرا بذلك عن شدة تعلقه بها، ويقول:

امل لي الكاس تماما ... واسقني جاما فجاما[٨٢٢]
اسقني بالكوب والكاس ... فرادى وتواما[٨٢٣]
ثم بالجرة فالجرة ... حتى أترامى
اسقني حينئذ بالزق ... حتى لا كلاما
ثم أزهى موضع في الروض ... فاختره مقاما

(٨٢٢) الجام: إناء من قضة.

(٨٢٣) توام: توأم: من الاثنين إلى مازاد.

obeikandl.com

وهو صَبٌّ بالخمر يريد أن يحتسيها حتى الثمالة، بل يريد أن يشربها أرطالا جاما فجاما وكئوسا وأكوابا وَجَّرات متوالية حتى يفقد الكلام ويغيب عن حسه، وهو يشربها في أزهى موضع بالروض قد عبقت فيه الأزهار بأريجها العطر. وكأنما يعيد الإسحاقي في أيام العثمانيين ذكرى أبي نواس وأمثاله من الماجنين العباسيين.

٤

شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

مَّر بنا أن مصر عرفت الزهد والنسك الديني من قديم، ويكفي أنها هي التي أنشأت في المسيحية نظام الرهبنة الذي شاع منها وانتشر في العالم المسيحي. وقد أقبلت على الإسلام بمجرد اعتناقها له ونزول العرب المسلمين فيها تنهل منه، ورأيناها تسهم منذ زمن الولاة في نشر مذهبي مالك والشافعي، كما أسهمت في القراءات عن طريق مقرئها المشهور: ورش. وأكبت على الحديث النبوي وتفسير الذكر الحكيم وأخذت تدرسهما كما تدرس القراءات والفقه، وتكونت لها طبقات من علماء الدين ومن الوعاظ والقصاص، وكان كل من شدا منهم شعراء نظم في الزهد والوعظ أبياتا كان يتداولها الناس على نحو ما كانوا يتداولون أشعار الإمام الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ وظلوا يتداولون بعده أشعار منصور بن إسماعيل الفقيه الشافعي المتوفى سنة ٣٠٦ من مثل قوله:(٨٢٤)

كن بما أوتيته مغتبطاً ... تستدم عمر القنوع المكتفى

(٨٢٤) نكت الهميان ص٢٩٨.

إن في نيل المنى وشك الردى وقياس القصد عد السرف

كسراج دهنه قوته فإذا غرقته فيه طفى

وهو يدعو إلى القناعة والاكتفاء بالقليل وعدم التطلع إلى مُنًى عريضة يكون فيها حَتْف صاحبها، ويقول لابد من القصد والاعتدال لتظل للإنسان مُنَّته وقوته، أما إذا أفرط وتجاوز الاعتدال والقصد فإنه لاشك صائر إلى الهلاك. وإذا تركنا الفقهاء إلى الشعراء وجدناهم يرددون بعض أشعار زاهدة وبعض مواعظ، واتخذوا – كما أسلفنا – من زوال الدولة الطولونية عبرة كبرى للدهر ونكباته، وأخذت العظة وما يتصل بها من شعر الزهد تتكاثر على ألسنة الشعراء، ولتميم بن المعز قصيدة في القرافة ومقابرها وما تبعث في النفس من خشية الله، وفيها يتجه إلى ربه قائلا أو مناجيا:(٨٢٥)

رجوتك يا رب لا أنني أطعتك طوع أولى الانتهاء

ولكنني مؤمن موقن بأنك رب الورى والسماء

وأنك أهل لحسن الظنون وأنك أهل لحسن الرجاء

فهو يرجو الله ويعبده لا خشية عقابه ولا خوف ناره، ولكنه يعبده لأنه أهل لعبادته، فهو رب الكون، رب الأرض والسماء، وهو يرجوه للرجاء لا لشيء وراءه من مآرب الحياة أو مآرب الآخرة. فشيء من ذلك لا يعلق بنفسه، وإنما يعلق بها اليقين والإيمان بأنه الرب الأعلى الخليق بكل عبادة وكل رجاء.

---

(٨٢٥) ديوان تميم ص٢٧.

obeikandl.com

ومن يتصفح ديوان الشريف العقيلي شاعر الطبيعة والخمر يجده يختم كل قافية من قوافيه المرتبة على الحروف الهجائية بأبيات واعظة، كأنما يكفر بها عما نظمه من مجون في نفس القافية، كقوله في قافية الباء.(٨٢٦)

أيها التائه الذي	ضل عما يراد به
إن للعرض وقفة	أمرها غير مشتبه
فانتبه قبل أن ترى	مذنباً غير منتبه

ووعظيات الشريف ليس فيها روح، لسبب طبيعي وهو أنه لم يكن شاعر وعظ وزهد، وإنما كان شاعر خمر وطبيعة، ومع ذلك فأغلب الظن أنه هو الذي أوحى لشعراء الموشحات الأندلسية في الحقب المتأخرة بفكرة الموشحات المكفرة لموشحاتهم الماجنة.

ونلتقي بظافر الحداد بعد تميم، وهو يذكّر دائما بالموت كقوله:(٨٢٧)

كن من الدنيا على وجل	وتوقع سرعة الأجل
تخدع الإنسان لذتها	فهي مثل السم في العسل
أنت في دنياك في عمل	والليالي فيك في عمل

فالسعيد في رأي ظافر من وضع الموت نصب عينيه، ولم يغتر بمتاع الحياة ولذتها فهي كالسم في العسل، لا تزال تسري في الجسم، ولا تزال الأيام والليالي تعمل عملها

(٨٢٦) ديوان الشريف العقيلي ص٧٩.

(٨٢٧) الخريدة ٢/ ٨.

obeikandl.com

فيه، حتى يفنى فجأة وعلى غير أهبة أو انتظار، ولابن النضر يدعو دعوة حارة إلى الزهد والقناعة:(٨٢٨)

جهاد النفس مفترض فخذها ... بآداب القناعة والزهادة
فإن جنحت لذلك واستجابت ... وخالفت الهوى فهو الإرادة
وإن جمحت بها الشهوات فاكبح ... شكيمتها بمقمعة العبادة
عساك تحلها درج المعالي ... وترفعها إلى رتب السعادة

وهو يحض على جهاد النفس وترويضها على الزهد في طيبات الحياة، فإن خالفت هواها وأصغت لك فهي الأمنية المبتغاة، وإن استعبدتها الشهوات فاكبح جماحها بالنسك والعبادة، فهي خير مؤدب ومروَّض مذلل لها حتى ترقى إلى درج المعالي وتصعد إلى رتب السعادة. ومن تبتلاته إلى ربه:(٨٢٩)

يا مستجيب دعاء المستجير به ... ويا مفرج ليل الكربة الداجي
قد أرتجت دوننا الأبواب وامتنعت ... وجل بابك عن منع وإرتاج
نخاف عدلك أن يجري القضاء به ... ونرتجيك فكن للخائف الراجي

وهو تبتل وتضرع رقيق إلى الذات العلية، إذ يدعو الله المفرج لظلمات الكربة، الكاشف لليلها الداجي، أن يفتح له الأبواب بعد أن أُغْلِق دونه كل باب، وإنه ليتعلق بالأمل في رحمته رحمة تمنع العدل أن يجري القضاء به متوسلا بخوفه ورجائه في رحمة الله الواسعة، ولابن سناء الملك:(٨٣٠)

---

(٨٢٨) الخريدة ٢/ ٩٥.

(٨٢٩) الخريدة ٢/ ٩٢.

(٨٣٠) الديوان ص٧٨٧.

obeikandl.com

أقول داري وجيراني مغالطة والقبر داري والأموات جيراني
في وحشة القبر والدود المقيم به شغل لنفسي عن داري وبستاني
سأوسع القبر بالأعمال أصلحها جهدي وألبس زهدي قبل أكفاني

فليست داره هي الدار الحقيقية وليس جيرانه هم جيرانه الحقيقيون، فداره الحقيقية القبر وجيرانه الأموات حول قبره، وإنها لدار مفزعة، دار وحشة وديدان تنتظره، دار ضيقة وسيحاول أن يمد أطنابها بالأعمال الصالحة، وسيسرع إلى ثياب الزهد في الحياة الدنيا يلبسها قبل أن يلبس أكفانه وينزل رمسه وحفرته المظلمة.

ويكثر ابن مطروح من مناجياته لربه كقوله:(٨٣١)

يا من علا في ملكه فاقترب ومن بدا في نوره فاحتجب
ومن هو القصد لأهل النهي والمطلب الأسنى وكل الأرب
عودتني الأنس فلا تنسني وهبني الرحمة فيما تهب

وهو يتضرع إلى ربه الذي علا في ملكوته وهو أقرب إليه من حبل الوريد، والذي يملأ الدنيا نورا وضياء من حوله، وهو محتجب لا يراه أحد، والذي هو المقصد والمطلب الأسى وكل الأرب والأمل، والذي عوده الأنس به، أن لا ينساه وأن يهبه من خزائنه العلية ورحمته الواسعة.

ويظل شعر الزهد والتبتل إلى الله مزدهرا زمن المماليك، من ذلك قول عبد الملك الأرمنتي القوصي المتوفى سنة ٧٢٢ متعلقا بعفو ربه:(٨٣٢)

قالت لي النفس وقد شاهدت حالي لا تصلح أو تستقيم

---

(٨٣١) ديوان ابن مطروح مع ديوان العباس بن الأحنف ص٢١٢.

(٨٣٢) طبقات الشافعية للسبكي ١٠/ ٩٨.

obeikandl.com

بأي وجه تلتقي ربنا والحاكم العدل هناك الغريم
فقلت حسبي حسن ظني به ينيلني منه الغيم المقيم
قالت وقد جاهرت حتى لقد حق له يصليك نار الجحيم
قلت معاذ الله أن يبتلى بناره وهو بحالي عليم

والمراجعة بين عبد الملك ونفسه طريفة، فهي تلومه على حاله المعوجة وسلوكه غير الصالح وتقول بأي وجه تلقي غريمك وهو ربك، فيرد عليها بأنه حسن الظن بإلهه وعفوه، وأنه سيدخله جنات النعيم، فتسأله متعجبة أتجهر بذلك ولا تخفيه، لقد حقت عليك النار. فيقول معاذ الله أن يصليه ربه الجحيم وهو العالم بحاله وصحة نيته في إيمانه.

ويقول الحافظ المحدث شمس الدين أبو المعالي ابن القماح المتوفى سنة ٧٤١ للهجرة:(٨٣٣)

اصبر على حلو القضاء ومره واعلم بأن الله بالغ أمره
وأثبت فكم أمر أمضك عسره ليلاً فبشرك الصباح بيسره
واضرع إلى الله الكريم ولا تسل بشرا فليس سواه كاشف ضره

وهو يدعو إلى الرضا بكل ما يأتي به القضاء من حلو ومر، فتلك إرادة الله ولا راد لأمره، وينصح بالثبات حتى تنكشف ظلمة الغمة وتسفر عن بشرى مضيئة ضوء الصباح وأن يلجأ الإنسان إلى ربه ويضرع إليه، فهو وحده كاشف الغم ومفرِّج المحن.

---

(٨٣٣) السبكي ٩/ ٩٣.

obeikandl.com

ونلتقي بتبتلات وأدعية كثيرة عند الشيوخ، من ذلك قول قاضي القضاة ابن التنسي المالكي المتوفى سنة ٨٥٢ للهجرة:(٨٣٤)

إله الخلق قد عظمت ذنوبي ... فسامح ما لعفوك من مشارك
أغث يا سيدي عبداً فقيراً ... أناخ ببابك العالي ودارك

فهو يتضرع لربه أن يعفو عن ذنوبه، ويستغيث به، فهو عبد فقير من عباده، ألقى عصاه ببابه، آملا في قبول تضرعه، ويورِّي توريةً واضحة في قوله: "دارك" فمعناه القريب الدار الحقيقية بدلالة كلمة الباب قبلها، والمعنى البعيد المقصود أن يدركه قبل أن ييأس من عفوه ورحمته.

ويلقانا زهد كثير في الحقبة العثمانية من مثل قول محمد بن أحمد الحتادي في الدعوة إلى القناعة وأن لا يفكر الإنسان في رزق الغد:(٨٣٥)

تأن ولا تجزع لأمر تحاوله ... فخير اختيار المرء ما الله فاعله
تفيأ بظل الله من روض قوله ... ألست بكاف تلحقنك فواضله(٨٣٦)
وعز تهن دنياك واغن بتركها ... ولا تحفلن بالرزق فالله كافله

فهو يدعو إلى الصبر في طلب الرزق وأن لا ييأس الإنسان، بل يدع شأنه لربه فإنه ضامن رزقه ولن ينساه، وحرى بالإنسان أن يستظل بمثل قوله: (أليس الله بكاف عبده) مؤمنا بأنه يتكفل بعباده ولا يترك ظامئا إلا سقاه ولا عاريا إلى كساه، وما العز

---

(٨٣٤) النجوم الزاهرة ١٥/ ٥٣٩.

(٨٣٥) سلاقة العصر لابن معصوم (طبع القاهرة) ٤١٨.

(٨٣٦) تفيأ: استظل.

obeikandl.com

الحقيقي إلى رفض الدنيا وما الغنى الحقيقي إلا تركها وعدم التعلق بها وأن لا يشغل الإنسان نفسه برزق الغد، فالله كافله وضامنه.

وقد تحدثنا في الفصل الأول عن نشأة التصوف بمصر وأنه أخذ طريقه فيها إلى الظهور منذ سنة ٢٠٠ للهجرة ولم يلبث ذو النون المصري المتوفى سنة ٢٤٥ للهجرة أن رفع صرحه سامقا، إذ يعد المؤسس الحقيقي للتصوف الإسلامي وترتيب أحواله ومقاماته، وقد ذكرنا أطرافا من آرائه الصوفية وبعض تلاميذه من أعلام الصوفية بعده في الشام والعراق وإيران، وكأن مصر التي يرجع إليها الفضل في قيام نظام الرهبنة في المسيحية يرجع الفضل إليها أيضا في قيام التصوف في أركان العالم الإسلامي، أو قل بعبارة أدق يرجع الفضل في قيامه إلى أحد أبنائها وهو ذو النون المصري، ومرَّ بنا تصوير ذلك من بعض الوجوه وكيف أنه كان أول من وضع تعريفا للوجد الصوفي وأول من ذكر كأس المحبة الربانية التي هي جوهر التصوف وقوامه، ومن ضيائها استمد في قوله مخاطبا ربه:(٨٣٧)

لك من قلبي المكان المصون ... كل لوم على فيك يهون
لك عزم بأن أكون قتيلاً ... فيك والصبر عنك ما لا يكون

وكأنه أول قتيل بل أو شهيد في الحب الإلهي، فقد سبح في بحاره وغرق بين أمواجه، غرق في مياه عميقة، مادًّا بصره إلى القاع وأعمق الأعماق، يريد أن يرتوي وأن يحظى بأمانيه من الوصال، محتملا في ذلك جهودا مضنية، وفي ذلك يقول:(٨٣٨)

---

(٨٣٧) ابن خلكان ١/ ٣١٦.

(٨٣٨) طبقات الصوفية للسلمي ص٢٧.

أموت وما ماتت إليك صبابتي ولا قضيت من صدق حبك أوطاري

تحمل قلبي فيك مالا أبثه وإن طال سقمي فيك أو طال إضراري

فصباباته بالحب الإلهي لا تنقضي، إنه لا يزال يريد أن يكو حبه لربه لا يدانيه حب، ولا يزال يجد فيه نصبا وشقاء، ولذته التي لا تحد إنما هي في هذا الشقاء والنصب الذي لا يشبهه نصب. وتناول كأس هذه المحبة منه كثيرون في العالم الإسلامي. ويدور الزمن بمصر دورات وندخل في هذا العصر: عصر الدول والإمارات، وسرعان ما تنشأ بمصر الدولة الفاطمية الإسماعيلية، وكانت تعارض التصوف حتى لا يطغى على عقيدتها التي صورناها في غير هذا الموضع وبَصرف المصريين عنها، ومن هنا تراجعت موجته في عهدها، ومع ذلك فينبغي أن لا نظن أنه تلاشى، فقد ظل حبله ممدودا بعد ذي النون. ومَّر بنا من متصوفتها بعده أبو بكر الدقاق الكبير المتوفى سنة ٢٩٠ وبنان الحَّمال المتوفى سنة ٣١٦ وأبو علي الروذباري المتوفى سنة ٣٢٢ ويعد السيوطي بعض أسماء لمتصوفة ظهروا في عهد الدولة الفاطمية(٨٣٩) مثل ابن الترجمان المتوفى سنة ٤٤٨ ويقول عنه: كان شيخ الصوفية بديار مصر. ونلتقي بأخرة من أيام الفاطميين بصوفي كبير هو ابن الكيزاني وسنترجم له عما قليل. ومرَّ بنا أنه أخذ يتضح في التصوف منذ قيام الدولة الأيوبية اتجاهان، اتجاه فردي فلسفي واتجاه جماعي سني، ومثل الاتجاه الأول ابن الفارض وسنخصه بترجمة، ومن تلاميذه ابن الخيمي محمد بن عبد المنعم المتوفى سنة ٦٨٥ ولم يتجه بتصوفه اتجاه ابن الفارض الفلسفي، بل وقف به عند الوجد والحديث عن الشوق وأكثر من ذكر معاهد الحب على طريقة العذريين، واشتهر بأنه

(٨٣٩) حسن المحاضرة ١/ ٥١٥.

obeikandl.com

تنازع مع محمد بن إسرائيل صوفي الشام في قصيدة صوفية واحتكما إلى ابن الفارض، فشهد لابن الخيمي أنها من نظمه، وفي فوات الوفيات قطعة من شعره، ومن قوله في الذات الإلهية:(٨٤٠)

وحجب عنا حسنه نور حسنه فمن ذلك الحسن الضلالة والهدى
فيا نار قلبي حبذا أنت مصطلي ويا دمع عيني حبذا أنت موردا

وشعره الصوفي يهبط عن شعر ابن الفارض كثيرا. وكان يعاصره كتاكت المصري الواعظ المقرئ المتوفى سنة ٦٨٤ ونحس عنده قبسا من ابن الفارض في مثل قوله:(٨٤١)

حضروا فمذ نظروا جمالك غابوا والكل مذ سمعوا خطابك طابوا
فكأنهم في جنة وعليهم من خمر حبك طافت الأكواب
أنت الذي ناولتني كأس الهوى فإذا سكرت فما على عتاب

ويقول ابن تغري بردي إنها قصيدة مشهورة عند الفقراء يريد الصوفية، وواضح أنه يصور في هذه الأبيات الغَيْبة التي طالما صورها ابن الفارض والتي تغني عنده السكر وفقدان الوعي، فقد غاب عن وعيه حين أحس بمشاهدته للجمال الرباني وكأنما طافت أكواب الخمر الإلهية، وتناول منها كوبا، جعله يغيب عن الوجود شاعرا بوجد لا يشبهه وجد، وجد بالجمال الإلهي المطلق الذي يسري في كل كائن جميل مستمدا منه حسنه وجماله، يقول:(٨٤٢)

من أنت محبوبه ماذا يغيره ومن صفوت له ماذا يكدره

---

(٨٤٠) الفوات ٢/ ٤٦٥.

(٨٤١) انظر ترجمة كتاكت في الفوات ١/ ١٠٨ النجوم الزاهرة ٣٦٤.

(٨٤٢) النجوم الزاهرة ٧/ ٣٦٥.

هيهات عنك ملاح الكون تشغلني والكل أعراض حسن أنت جوهره

وكأن الله يشاهَدُ في كل جميل بالكون، أو قل كأن كل جميل يستمد منه جماله، أو يشاهد فيه جماله، وفكرة الشهود سنعرض لها عند ابن الفارض عرضا أكثر سعة. وبدون ريب أثر ابن الفارض في صوفية مصر وغير مصر بعده آثارا تضيق وتتسع حسب مواجد الصوفي.

ويلقانا صوفي من أتباع ابن عربي، مر بنا ذكره في الفصل الأول، وهو عبد العزيز بن عبد الغني الحسني المتوفى سنة ٧٠٣ وفي شعره ما يدل على تلمذته لابن عربي إذ يقول:(٨٤٣)

وجدت بقائي عند فقد وجودي فلم يبق حد جامع لحدودي
وألقيت سري عن ضميري ملوحاً برمز إشاراتي وفك قيودي
فأصبحت مني دانياً بمعارفي وقد كنت عني نائباً بجمودي

ويقول ابن حجر معلقًا على الأبيات: "وهذا نَفسُ الاتحادية لا شك فيه". يريد أن الأبيات تصدر عن فكرة الاتحاد بالذات العلية التي كان يؤمن بها ابن عربي، وكان له ديوان كبير، ويذكر له قصيدة نونية طويلة اسمها اليعسوب وهي ملكة النحل.

ومن المؤكد أن النزعة الفلسفية في التصوف بمصر كادت تنحسر بعده إلا قليلا، إذ مضت مصر تؤثر التصوف السني وما أشاعه من الطرق الصوفية الكثيرة، وقد أفضنا في بيان ذلك بالفصل الأول، وكان من أهم الطرق التي تأسست بها الطريقة الشاذلية،

(٨٤٣) الدرر لابن حجر ٢/ ٤٨٤.

obeikandl.com

ومن أهم أصحابها ابـن عطـاء الله الـسكَنْدريّ الـصوفي الـواعظ تلميـذ مؤسـسيها أبي الحسن الشاذلي وأبي العباس المرسي، ومن شعره قصيدة يقول فيها:(٨٤٤)

ويا صاح إن الركب قد سار مسرعاً ... ونحن قعود ما الذي أنت صانع
أترضى بأن تبقى المخلف بعدهم ... صريح الأماني والغرام ينازع
وهذا لسان الكون ينطق جهرة ... بأن جميع الكائنات قواطع

فهو يهتف بصاحبه أن يتبع ركب المحبوب ولا يتخلف، حتى لا يفقد أمانيه ويضيع منه حبه، بل إن الكون كله ليهتف به أن يرحل وراءه ويهاجر له، فجميـع الكائنـات مـا تزال مهاجرة تتبعه. وكثير من شعر هؤلاء الصوفية كانوا ينظمونه لـيردده المنـشدون في الذكر بين صفوف الذاكرين الله كثيرا ليملئوهم حماسة وإمعانا في ذكر الله وتسبيحه، من مثل قول عبد الغفار بن أحمد بن نوح القوصي الصوفي المتوفى سنة ٧٠٨ للهجرة:

أنا أفتي أن ترك الحب ذنب ... آثم في مذهبي من لم يحب
ذق على أمري مرارات الهوى ... فهو عذب وعذاب الحب عذب
كل قلب ليس فيه ساكن ... صبوة عذرية ما ذاك قلب

ويكثر هؤلاء الشعراء من الصوفية في أيام المماليك، ومن أشهرهم برهان الـدين بـن زَقَّاعه، المتوفى سنة ٨٥٩ عن سن عالية، وكان يتبرك به السلطان برقوق وابنه الـسلطان فرج، وله في الحب الصوفي ومواجده أشعار كثيرة من مثل قوله:(٨٤٥)

رأى عقلي ولبي فيه حاراً ... فأضرم في صميم القلب نارا
ألا يا لائمي دعني فإني ... رأيت الموت حجا واعتماراً

---

(٨٤٤) النجوم الزاهرة ٨/ ٢٨٠.

(٨٤٥) المنهل الصافي ١/ ١٥٤ والنجوم الزاهرة ١٤/ ١٢٦.

obeikandl.com

وأهل الحب قد سكروا ولكن صحا كل وفرقتنا سكارى

وهي نار كانت لا تزال مشتعلة في قلوب الصوفية، نار حبهم للذات العلية، نار لا تنطفئ أبدا في أثناء حبهم بل جهادهم الشاق العنيف في هذا الحب، الذي كانوا لا يزالون يرحلون إليه رحلتهم الصوفية المجهدة حجًّا وعمرة، وما يزالون راحلين هائمين مفضين إلى سكر لا يدانيه سكر، متجردين عن كل رغبة في النفس، حتى لكأنما تتعطل إرادتهم ويموت كل شيء إلا رغبتهم الجامحة في الوجد الرباني.

ويلقانا شعراء صوفية كثيرون في كل طريقة من طرق الصوفية بل إن كثيرين من أصحاب هذه الطرق التي كان يرثها الأبناء عن الآباء كانوا شعراء ويجري الشعر على ألسنتهم على نحو ما نقرأ عند السادة الوفائية الشاذلية، والسادة البكرية في أيام المماليك وأيام العثمانيين من مثل قول علي بن وفا:

تغيبت عن عيني فغيبك شاهدي ووجهك مشهودي وما عنك عائق

فإن غبت فالأشباح مني مغارب وإن لحت فالأرواح مني مشارق

ويتلو الشهاب الخفاجي البيتين بطائفة من أشعار أبنائه ويقول لهم أنفس قدسية أُفِيضَتْ عليها العوم اللدنية.(٨٤٦) ونشأ للصوفية وطرقهم من قديم مريدون كثيرون كانوا لا يزالون ينوَّهون بأصحاب طرقهم وأساتذتهم، وقد يبالغون في ذلك، فيطلبون منهم الهداية إلى طريق التقوى والصلاح.(٨٤٧)

(٨٤٦) ريحانة الألبا ٢/ ٢٠٨ وما بعدها.

(٨٤٧) تاريخ الجبرتي ٢/ ٢١٢.

obeikandl.com

وكان المديح النبوي يقترن بشعر التصوف من قديم، ومنذ حسان بن ثابت وكعب بن زهير والشعراء يمدحون الرسول صلى الله عليه وسلم. وأخذت هذه المدائح تتكاثر منذ القرن الرابع الهجري، تكاثرت على ألسنة أهل السنة مجسدين في الرسول المثل الكامل للمسلم في نسكه وجهاده في سبيل نشر دعوته ورسالته النبوية، وكذلك على ألسنة الشيعة ذاهبين إلى أن نوره المحمدي يتجسد في أئمتهم من بعده. وبالمثل على ألسنة المتصوفة. وقد أخذوا منذ الحلاج يشيعون فكرة الحقيقة المحمدية وأن الرسول مبدأ الوجود الروحي للحياة الإنسانية، بل مبدأ النور في الكون، منه يستمد ضياءه. وقد مضى كل هؤلاء المادحين ينوهون بصحابة الرسول وبمعجزاته المادية ومعجزته الكبرى القرآنية، مع التوسل إليه بطلب الشفاعة يوم العَرْض وأن يكون دائما معينا لهم ونورا هاديا. وما زال الشعراء المصريون – مثلهم مثل شعراء العالم الإسلامي يتغنون بمديح الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى إذا نشبت الحروب الصليبية، وكانت حربا دينية، أخذ حملة الصليب يهاجمون رسول الإسلام برسائل منكرة، واندلعت الحروب بين المسلمين وبينهم فكان طبيعيا أن يزدهر المديح النبوي للرد على أعداء الإسلام من جهة، ومن جهة ثانية لرفع سيرته العطرة وجهاده في نشر رسالته شعارا يتخذ منه الذائدون عن حمى الإسلام القدوة الحسنة دالعا فيهم الحماسة لدق أعناق الصليبيين وسحقهم سحقا ذريعا. وكاد لا يخلو ديوان شاعر مصري حينئذ من مدحه أو مدائح نبوية، وخاصة منذ ظهور البوصيري أبنه مادح مصري للرسول، بل أنبه مادح عربي له على الإطلاق، وسنخصه بكلمة، ولكثيرين من معاصريه مدائح نبوية طنانة، ونكتفي بأن نشير من بينهم إلى شيخ الإسلام تقي الدين محمد بن علي المشهور باسم ابن دقيق

العيد المتوفى سنة ٧٠٢ وله أكثر من مدحة نبوية، ومن قوله في مديحه صلى الله عليه وسلم:[٨٤٨]

لم يبق لي أمل سواك فإن يفت ودعت أيام الحياة وداعاً
لا أستلذ لغير وجهك منظرا وسوى حديثك لا أريد سماعاً

وكان العَزازي معاصره المار ذكره بين الوشاحين يكثر من المديح النبوي، ومن قوله في بعض مديحه للرسول الكريم:[٨٤٩]

أفي النبيين برهاناً ومعجزة وخير من جاءه بالوحي جبريل
سل الإله به سيفا لملته وذلك السيف – حتى لحشر – مسلول
ويل لمن جحدوا برهانه وثنى عنان رشدهم غي وتضليل

ولابن سيد الناس صاحب السيرة النبوية المتوفى سنة ٧٣٤ للهجرة ديوان خصَّه بمديح الرسول صلى الله عليه وسلم سماه "بشرى اللبيب بذكر الحبيب" مخطوط بدار الكتب المصرية. ولابن نباته وبرهان الدين القيراطي مدائح نبوية مختلفة، ويظل الشعراء يمدحون الرسول الكريم مدائح كثيرة ويطرد ذلك في الحقبة العثمانية عند الشهاب الخفاجي وغيره،[٨٥٠] كما يطرد التوسل به وطلب الشفاعة، على نحو ما نجد عند عبد الله الإدكاوي من مثل قوله متوسلا:[٨٥١]

---

(٨٤٨) الفوات ٢/ ٤٨٧.

(٨٤٩) المنهل الصافي ١/ ٣٤٣.

(٨٥٠) وانظر نفحة الريحانة للمحبي (طبعة عيسى البابي الحلبي) ٤/ ٤١٣ وما بعدها، وقد أنشد المحبي في كتابه قطعاً كثيرة من المدائح النبوية.

(٨٥١) تاريخ الجبرتي ١/ ٣٥٣.

obeikandl.com

يا رب بالهادي الشفيع محمد　　من قد بدا هذا الوجود لأجله
كن لي معيناً في معادي واكفني　　هم المعاش وما أرى من ثقله
واستر بفضلك زلتي واغفر بعد　　لك سيئتي واشف الحشا من غله

وهو يضرع إلى الله متوسلا إليه بالرسول الشفيع يوم القيامة لأهل دينه أن يكون عونا له في معاده ومعاشه، وأن يغفر له ذنوبه ويستر عيوبه، وحري بنا أن نتوسع قليلا في الحديث عن بعض شعراء التصوف والمديح النبوي:

ابن(٨٥٢) الكيزاني

هو محمد بن إبراهيم الكناني المقرئ الواعظ الشافعي، مصري الدار، من شعراء الحب الإلهي وما يتصل به من الأحوال والمقامات، اشتهر باسم ابن الكيزاني، من شعراء مصر في النصف الأول من القرن السادس الهجري، إذ توفي سنة ٥٦٢ للهجرة، وقد رأى ابن سعيد صاحب كتاب المغرب الذي زار مصر في العقد الخامس من القرن السابع الهجري ديوانه يباع بكثرة في سوق الفسطاط وسوق القاهرة، غير أنه لم يصلنا إذ سقط من يد الزمن، وقد دوَّن منه العماد الأصبهاني في كتابه "الخريدة" طائفة كبيرة من شعره، تصور إلى حد بعيد مواجده الصوفية، ونراه يقدم لها بأنه "فقيه واعظ مذكر حسن العبارة مليح الإشارة لكلامه رقة وطلاوة، ولنظمه عذوبة وحلاوة... وله

(٨٥٢) انظر في ترجمة ابن الكيزاني وأشعاره المغرب لابن سعيد (القسم الخاص بالفسطاط) ص٢٦١ وما بعدها، وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٣١٩ والخريدة (قسم مصر) ٢/ ١٨ وابن خلكان ٤/ ٤٦١ وطبقات الشافعية للسبكي ٦/ ٩٠ والوافي بالوفيات للصفدي ١/ ٣٤٧ والنجوم الزاهرة ٥/ ٣٦٧، ٣٧٦. وراجع مقالين لنا عن ابن الكيزاني في مجلة الثقافة، العددين ٦٩٢، ٦٩٣.

obeikandl.com

ديوان شعر يتهافت الناس على تحصيله وتعظيمه وتبجيله، لما أودع فيه من المعنى الدقيق، واللفظ الرشيق، والوزن الموافق، والوعظ اللائق، والتذكير الرائع الرائق. ودفن عند قبر الشافعي" ويقول عنه: عالم بالأصول والفروع، عالم بالمعقول والمشروع، مشهور بالتحقيق في علم الأصول، وكان ذا رواية ودراية بعلم الحديث ومعرفة بالقديم مكون الحديث إلا أنه ابتدع مقالة ضلَّ بها اعتقاده، وزلَّ في مزالقها سَداده، إذ ادعى أن أفعال العباد قديمة والطائفة الكيزانية بمصر على هذه البدعة إلى اليوم مقيمة "وهم أشباه الكرامية بخراسان" فهو عالم بالسنة والفقه والشريعة والفلسفة وعلوم الأوائل، غير أنه صاحب مقالة خاصة تشبه مقالة الكرامية في خراسان. ويقول المقدسي الذي زار مصر في أواخر القرن الرابع الهجري إنه كان لهم محلة بالفسطاط، ومن الممكن أن تكون هذه المحلة ظلت حتى عصر ابن الكيزاني، وهو بذلك كان كراميا صوفيا، أو صوفيا على مذهب الكرامية القائلين بالتشبيه على الذات العلية للعباد، وهو تشبيه كان يقترن بالتنزيه، وتبدو الفكرة معقدة ولكن من الممكن تصورها، فأنت إذ تشاهد كائنا جميلا ترى فيه خالقك، مع تنزيهه عن أن يكون هو نفس الكائن الجميل. وليست هذه الفكرة كل ما يميز الكرامية، فقد كانوا يعتقدون – كما اعتقد الكيزانية – فكرة القدم في أفعال العباد لا في العلم الإلهي، وما دام العلم الإلهي قديما فهي قديمة مثله. ومر بنا آنفا أن العماد قال إنه كانت تتبعه بمصر لعهده في النصف الثاني من القرن السادس الهجري فرقة كانت تعتنق نحلته، ويقول القفطي المتوفى سنة ٦٤٦: "لابن الكيزاني بمصر وسواحل الشام فرق تنتمي إليه في المعتقد وأكثرهم بحوف مصر" ويقول ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١: "بمصر طائفة ينسبون إلى ابن الكيزاني ويعتقدون مقالته". وفي ذلك

ما يدل على أن منزعه الصوفي ظل معروفا بمصر وظل لـه أتبـاع طـوال القـرن الـسابع الهجري على الأقل. ويبدو أنه كان هناك من يعارضه في حياته وبعد مماته، فقد ذكروا أن الفقيه نجم الدين الخبوشاني نبش قبره في عهد صلاح الدين وأخرج منه عظامه، وقال: "لا تتفق مجاورة زنديق إلى صدِّيق" ويقصد بالـصديق الـشافعي. وقـد نقلـه إلى سـفح المقطم، يقول ابن خلكان: "وقبره مشهور هناك يزار، وزرته مرارا، رحمـه الله" ويقـول ابن تغري بردي: "لا يلتفت لقـول الخبوشـاني فيـه لأنهـما أهـل عـصر واحـد، وتهـور الخبوشاني معروف". وتجمع كتب التراجم عـلى أنـه كـان ورعـا زاهـدا، بـل متـصوفا متقشفا، وقد أنشد له العماد أكثر من ثلاثمائة بيت في الحب الإلهي، تسيل عذوبة ورشاقة وخفة من مثل قوله:

تلذ لي في هوى ليلي معاتبتي ... لأن في ذكرها برداً على كبدي
وأشتهي سقمي أن لا يفارقني ... لأنها أودته باطن الجسد
وليس في النوم لي ما عشت من أرب ... لأنها أوقفت جفني على السهد
ولو تمادت على الهجران راضية ... بالهجر لم أشك ما ألقى إلي أحد
اللوم أشبه بي منها وإن ظلمت ... أنا الذي سقت حتفي في الهوى بيدي

ولو أننا لم نعرف قائل هذا الشعر وأنه من الصوفية لظنناه شاعرا عذريا، فهو يـشكو الصد والهجر ويرمز عن الذات الإلهية بليلى، ويتمادى في العتاب، معلنا سقمه وسـهده، بل لقد عرض نفسه للموت والهلاك. وابن الكيزاني مثله مثل شعراء الحب الإلهي جميعا فقد رفعوا كل الحواجز بينهم وبين أصحاب الغزل العذري، معبرين بما في غـزلهم مـن حسية واضحة عن رموز ومعان صوفية، حتى لنرى ابن الكيزاني يقول:

أتزعم ليلى أنني لا أحبها ... وأني – لما ألقاه – غير حمول

فلا ووقوفي بين ألوية الهوى وعصيان قلبي للهوى وعذولي
لو انتظمتني أسهم الهجر كلها لكنت على الأيام غير ملول
ولست أبالي إذ تعلقت حبها أفاضت دموعي أم أضر تحولي
وما عبثي بالنوم إلا تعلل عسى الطيف منها أن يكون رسولي

وهل من فارق بين هذه الأبيات وأبيات الحب العذري؟ إنه ليذكر وقوفه بمعاهد الهوى وعصيانه للعذول أو العواذل وصبره على الهجران الأليم وما يعاني فيه من البكاء والنحيب والسقم والنحول، ويأمل في طيف يزوره في الحلم ليلا، ولكن لنحذر هذا الفهم الظاهري للأبيات فابن الكيزاني إنما يتخذ ذلك كله رموزا عن معاني حبه وهيامه بالذات العلية، وهو هيام لا نهائي غير محدود بحس ولا ما يشبه الحس، هيام كله لوعة ووجد، وجد سماوي علوي يندلع شرره في كل جسمه وجوارحه وحشاه وهو صابر لا يتألم ولا يشكو، بل يجد لذة لا يبلغها وصف في ألمه، حتى ليبذل دمه في سبيل حبه طائعا مختارا، فهو النور الذي يضيء في جنبات قلبه وفؤاده، وهو الخمر الروحانية التي سرت في شراييه، فلم يعد يملك إزاءها حولا ولا قوة، يقول:

جر كيف شئت فلست أول عاشق كأس المحبة في محبته سقى

إنه لم يعد في حال صحو بل أصبح في حال سكر بالعشق الإلهي الذي لا حدود ولا ضفاف له، عشق ما إن يأمل فيه بلقاء محبوبه، حتى يبتعد عنه، تاركا له الحسرات والدموع، لقد كان شهوده قاب قوسين أو أدنى، وسرعان ما طار الحلم وولي الأمل، وينادي ابن الكيزاني:

يا حادي العيس اصطبر ساعة فمهجتي سارت مع الركب
لاتحد بالتفريق عن عاجل رفقاً بقلب الهائم الصب

وهو يعبر عن ضياع الأمل في لقاء المحبوب بالرحلة ولوعاتها الممضة في نفوس العشاق تعبيرا رمزيا عن آلامه وأوصابه وأوجاعه النفسية، فلم يعد يستطيع اللحاق بمحبوبه فضلا عن مشاهدته. وعلى نحو ما يعبر عن ذلك تعبيرا حسيا بالرحلة كذلك يعبر عنه – كما عبر المحبون العذريون طويلا – ببكاء الديار والوقوف على الأطلال الدارسة أو العافية، بمثل قوله:

بربكما عرجا ساعة ننوح على الطل الدارس
ففيض الدموع على رسمه يترجم عن حرق البائس

ودائما يتعلق ابن الكيزاني بخيط من الأمل في مشاهدة محبوبه، ونوره يتألق له ولا يراه، ويبحث عنه بين الأطلال، ويسأل عنه العِيسَ، وهي ملحة في المسير، لتلتفت إليه، وهو هائم على وجهه غارق في دموعه، ونار الحب تتقد في أحشائه، يقول:

يا من يتيه على الزمان بحسنه اعطف على الصب المشوق التائه
أضحى يخاف على احتراق فؤاده أسفاً لأنك منه في سودائه

ودائما تلقانا عند ابن الكيزاني هذه اللوعة ونارها التي توشك أن تحرق والتي ما يزال يذوقها ويصطلي بها مالكه عليه قلبه مستأثرة منه بكل شيء، إنه ليس حبا فقط، بل هو حب ومحنة أو هو سعادة وعذاب، وهو راض بذلك كل الرضا، حتى لا يطلب لحُبّه دواء ولا شفاء، يقول:

اصرفوا عني طبيبي ودعوني وحبيبي
عللوا قلبي بذكره فقد زاد لهيبي
طاب هتكي في هواه بين واش ورقيب
لا أبالي بفوات النفس مادام نصيبي

obeikandl.com

ليس من لام وإن أطنب فيه بمصيب

جسدي راض بسقمي وجفوني بنحيبي

إن الداء هو نفس الدواء وإن العلة هي نفس الشفاء، وهو لا يفكر في برء من علة أو داء، لأنها سعادته الغامرة، وحقًّا إنها يثيران حريقا في فؤاده، غير أن ما يشربه معها من رحيق المحبة الربانية المصفي ينسيه الحريق وناره المتلظية التي لا تنطفئ في سويداء فؤاده أبدا.

ابن(٨٥٣) الفارض

هو عمر بن كمال الدين علي الفارض، كان أبوه من حماة بسوريا، هاجر منها في مطالع شبابه إلى القاهرة، وفيها رزقه الله ابنه عمر سنة ٥٧٦ للهجرة، فهو مصري المولد والمنشأ والمربى والحياة. كان أبوه من علماء الفقه والشريعة ولقب بالفارض لكتابته الفروض على النساء والرجال. وِلِيَ نيابة الأحكام بالقاهرة والفسطاط، ويقال إنه عُرضت عليه وظيفة قاضي القضاة فأباها ولزم قاعة الخطابة بالجامع الأزهر يتنسَّك، وعُنى بابنه فألحقه بدروس العلماء بالعلوم الشرعية واللسانية، حتى إذا شبَّ دفعه إلى

(٨٥٣) انظر في ابن الفارض وترجمته وأشعار النجوم الزاهرة ٦/ ٢٨٨ وابن خلكان ٣/ ٤٥٤ وميزان الاعتدال ٣/ ٢١٤ وعبر الذهبي ٥/ ١٢٩ والبداية والنهاية ١٣/ ١٤٣ ولسان الميزان ٤/ ٣١٧ وشذرات الذهب ٥/ ١٤٩ وحسن المحاضرة ١/ ٥١٨ وكتاب ابن الفارض والحب الإلهي للدكتور محمد مصطفى حلمي وكتابنا فصول في الشعر والنقد ص١٩٧ وما بعدها. وديوانه طبع بمصر مراراً طبعات مستقلة، وطبع مع شرح عبد الغني النابلسي وهو شرح صوفي رمزي، ومع شرح حسن البوريني على ظاهر اللفظ دون تأويل.

obeikandi.com

التقوى وعبادة الله ومعاشرة المستضعفين من المتصوفة في الجبل الثاني من المقطم، وهناك أخذ عمر يتجرد للعبادة والنسك. وأحسَّ برغبة شديدة للمقام بمكة مهبط الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم فرحل إليها، ومكث بها خمسة عشر عاما سائحا في أوديتها عابدا الله ناسكا مؤملا في أن تفيض عليه الفتوحات الإلهية، مكثرا من الصلاة والصيام، حتى فُتحت له الأبواب المغلقة، وشعر كأنه في مقام الشهود للذات العلية. وعاد إلى وطنه، غير أنه ظل يأسى لفراقه مهبط فتوحاته الإلهية بمثل قوله:

يا سميري روح بمكة روحي　　شادياً إن رغبت في إسعادي
كان فيها أنسي ومعراج قدسي　　ومقامي المقام والفتح بادي

ولزم مناسك العبادة وخاصة وادي المستضعفين بالمقطم والجامعَ الأزهر، يذكر الله ويسبِّحه ويعبده حق عبادته ناسكا خاشعا متضرعا، شاعرا من وقت إلى آخر أنه أصبح في مقام الشهود لربه، فيشخص بصره ويغيب عن كل ما حوله غيبة قد تطول أياما وهو لا يسمع صوتا ولا يرى أحدا ولا يشرب ولا يطعم ولا ينام، فقد غاب عن كل حواسه وغمره نور شهود للذات العلية، ومضى يعكف على التقوى والنسك والصلاة، وشاع أمره في القاهرة فكان الناس يزدحمون عليه إذا سار في الطرقات يلتمسون منه الدعاء، وهو غائب عنهم، مشغول بحبه لربه وبما ينظم في هذا الحب من أشعار لعلها أروع ما نظمه الصوفية في حبهم الإلهي، حتى لُقِّب بحق سلطان العاشقين للذات الربانية. وهي أشعار تموج بوجد ملتاع لا حدود له، متخذا لذلك لغة العشاق العذريين وما يذكرونه من معاهد المحبوبة يريد معاهد مكة التي هبط عليه فيها النور الإلهي، وأيضا

ما يذكرونه من نسيم الصبا المحمل بشذى المحبوبة، وهو في أثناء ذلك يئن وينوح آملا في الوصال وأن يشرق عليه النور الرباني، متجرعا غصص الهجر والصد والسهاد، ويصيح فيمن تحدثه نفسه بسلوك هذا الطريق المحفوف بما لا يحصى من الأشواك والصعاب:

هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل ... فما اختاره مضني به وله عقل
وعش خالياً فالحب راحته عنا ... وأوله سقم وآخره قتل

وهو لا يريد القتل الحقيقي، بل يتخذه رمزًا للحظات الفناء في الذات العلية حين يتجرد الصوفي – مثل ابن الفارض – من حواسّه ومن كل وجوده فلا يشعر بزمان ولا بمكان، وكأنما غاب عن حياته، بل كأنما مات بسببه حبه شهيدا، وهو موت لا يتحقق تصوف بدونه، حتى ينمحي المتصوف في الذات الربانية ونورها الإلهي، وحتى لا يرى في الوجود سوى ربه الماثل في الكون وكائناته وكل شيء فيه، يقول:

تراه – إن غاب عني – كل جارحة ... في كل معنى لطيف رائق بهج
في نغمة العود والناي الرخيم إذا ... تألفا بين ألحان من الهزج
وفي مسارح غزلان الخمائل في ... برد الأصائل والإصباح في البلج
وفي مساقط أنداء الغمام على ... بساط نور من الأزهار منتسج
وفي مساحب أذيال النسيم إذا ... أهدى إلى سحيرا، أطيب الأرج

فهو يري الله وجلاله وجماله ماثلا في جميع أركان الكون وعناصره: في أنغام العود والناي المرافقة لألحان الهزج، وفي مشهد غزلان الرياض وقد انتعشت قلوبها بأنفاس الأصيل والصباح، وفي الأزهار والورود مساقط أنداء الغمام وهي متناثرة هنا وهناك على أبسطة الطبيعة البهيجة، وفي النسيم يملأ الجو سحرًا بشذاه وأريجه العطر. وابن

الفارض لا يعبر بذلك ومثله في أشعاره عن إيمانه بوحدة الوجود التي كان يؤمن بها غلاة الصوفية من أمثال ابن العربي معاصره، فهو إنما يريد أن يقول إن نور الله منبثٌّ في الكون بجميع كائناته وعناصره، متجلٍّ في كل مناظره ومشاهده، وذلك هو سر وجده وهيامه وولهه بربه، يريد أن يشرق عليه ضياء جماله. ويظل يحلم بشهوده حلما متصلا مجاهدا في سبيل ذلك محتملا من العذاب ما يطاق وما لا يطاق، متغنيا بالجمال الرباني وما يَصْلَي فيه من هجر، هاتفا من فؤاده:

ته دلالاً فأنت أهل لذاكا	وتحكم فالحسن قد أعطاكا
وتلافي إن كان فيه ائتلافي	بك عجل به جعلت فداكا
فقت أهل الجمال حسناً وحسني	فبهم فاقة إلى معناكا

وهو يضيف إلى الذات العلية التحكم والدلال على طريقة أصحاب الحب العذري، ولا يلبث أريج الحب الصوفي أن يعبق في البيت الثاني، فهو يطلب أن يتلف في حبه مادام في تلفه ائتلافا بربه المحبوب، وهو لا يريد التلف الحقيقي إنما يريد الفناء المطلق في ربه وجماله الذي يفوق كل جمال، بل إن كل جميل ليفتقر إلى جماله المتجلي في الكون بنوره. وعلى نحو اتخاذ ابن الفارض للغزل العذري رمزًا لحبه الصوفي نراه يتخذ الخمر ونشوتها رمزا لهذا الحب، ولا خمر ولا كئوس ولا دنان ولا سقاة، وإنما هو جمال الذات الإلهية الذي شغف به حتى ليظن كأنما نهل من شراب قدسي مسكر، فهو سكران دائما منتشٍ غائب عن وجوده. ومن قوله في ذلك من قصيدة بديعة:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة	سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم
لها البدر كأس وهي شمس يديرها	هلال وكم يبدو – إذا مزجت – نجم
وإن خطرت يوماً على خاطر امرئ	أقامت به الأفراح وارتحل الهم

ولو نضحوا منها ثري قبر ميت لعادت إليه الروح وانتعش الجسم

وهو يقول إن سكره بتلك المدامة أو الخمر قديم أقدم من الوجود، وهو يشير إلى فكرة الحقيقة المحمدية التي يذهب المتصوفة إلى أنها تسبق نشأة الكون، وأن أضواء ما زالت تفيض من تلك الحقيقة في نفوس الأنبياء ونفس الرسول صلى الله عليه وسلم ونفوس المتصوفة من بعده حتى تجلت في ابن الفارض، ومن هنا يقول إن سكره بها ونشوته الخليقة. ويقول إنها تجلب الفرح وتطرد الهم، وتحيي الروح لا مجازا بل حقيقة، فلو صبوها على قبر ميت لعادت إليه الروح ودبت فيه الحياة. ويمضي فيقول: إنها صفاء ولا ماء، ولطف ولا هواء، ونور ولا نار، وروح ولا جسم. خمر ربانية لا تشوبها أي شائبة مادية، خمر ينتشي بها ابن الفارض وأمثاله فيغيبون عن وجودهم غيبة كلها متاع وكلها نعيم لا حدود له. وديوانه كله من هذا الطراز انتشاء وسكر وحب ووجد ووله والنياع، وتطول إحدى قصائده حتى تبلغ سبعمائة وستين بيتا أو تزيد، وهي تائية وتسمى التائية الكبرى لأن له بجانبها تائية صغرى، وهو فيها يصور معراجه القدسي بمكة وفتوحه التي هبطت عليه هناك وإنمحاءه حينئذ في الحقيقتين: الإلهية والمحمدية، حتى ليتكلم في بعض أجزاء القصيدة باسمها، وهو يستهلها ببيان شربه من كاس المحبة الربانية ونشوته بها وما تجشمه في معراجه من أهوال وخطوب ومحن، وكلها كما يقول منح من ربه وعطايا اجتازها في معراجه، خالصا إلى الانمحاء والفناء في الذات العلية حتى ليقول:

ولم تهوني ما لم تكن في فانيا ولم تفن ما لم تجتلب فيه صورتي
كلانا مصل واحد ساجد إلى حقيقته بالجمع في كل سجدة
وما كان لي صلى سواي ولم تكن صلاتي لغيري في أدا كل ركعة

obeikandl.com

وكأنه يشعر في البيت الأول أنه لا يزال دون الحب الإلهي لاتصاله بل لاتصافه بالصفات البشرية. ويقول في البيت الثاني إنها ينبغي أن تُمْحي فيه حتى يفنى في الذات الربانية وتتجلى فيه الصورة الإلهية، وما يلبث أن يقول في البيت الثالث إن حواسه تعطلت وتعطلت فيه كل إرادة وشعور، حتى فنى فناء مطلقا في ربه، متخطيا مرتبة الصحو إلى مرتبة الشهود أو كما يسميها الجمع، وكأنما يصلي لنفسه، يقول:.

وطاحَ وجودى في شهودى وبِنْتُ عن	وجودِ شهود ماحياً غيرَ مثبتِ
وفي الصَّحو بعد المحَوْ لم أكُ غيرها	وذاتي بذاتي إذ تجلَّتْ تجلَّتِ

فهو قد انمحى وفنى فناء كليا في الذات العلية، وبلغ من هذا الانمحاء والفناء أعلى مراتبه، إذ لا يعتريه في حال المحو والغيبة مع الشهود للنور الرباني، بل أيضا يعتريه في حال الصحو، فهو دائما ممحوفانٍ في ذات الإلهية وهو دائماً يعلن أنه متمسك أشد التمسك بالكتاب وأداء الفرائض الدينية وبالسنة والحديث النبوي، فمنهما يستمد في كل موارده الروحية. وقد أشار مرارا إلى أن لب تصوفه وما يذهب إليه من عقيدة الفناء في ذات الربانية إنما يصدر في عن الرسول، يقول:

وجاء حديثٌ في اتحاديَ ثابتٌ	روايتهُ في النَّقْل غيُر ضعيفةِ
يشيرُ بحبَّ الحَقَّ بعد تقُّربٍ	إليه بنَفْلٍ أو أداء فريضةِ

وهو يشير إلي الحديث النبوي المشهور: " ما تقرب إلي عبدي بشيء " أحب إلي من أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتي أحببته فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها.. وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذته" وفكره الانمحاء والفناء واضحه في الحديث،

ولعل في ذلك ما يشير بوضوح إلي أن تصوف ابن الفارض وأمثاله إنما كان تصوفاً إسلامياً خالصاً. ومازال يتنسك لربه حتى وفاته سنه ٦٣٢ للهجرة.

البوصيري[٨٥٤]

هو أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد، كان أبوه من بوصير وأمه من دلاص، فكوَّن لنفسه من اسم بلديهما لقبًا هو الدلاصيري، غير أن اللقب الذي غلب عليه، وبه اشتهر، هو البوصيريّ. واختلف من ترجموا له في تاريخ مولده كما اختلفوا في تاريخ وفاته، والأرجح أنهُ ولد سنة ٦٠٨ وتوفي سنة ٦٩٨ وقيل بل ولد سنة ٥٩٨ وتوفي قبل السنة السالفة فقيل سنة ٦٩٤ أو ٩٥ أو ٩٦ أو ٩٧ وقيل بل سنة ٦٨١ الصحيح ما رجحناه. واختلف مثل لِداته إلى الكتاتيب حتى حفظ القرآن الكريم، ثم انتظم في حلقات الشيوخ يأخذ عنهم علوم الشريعة واللغة، ويبدو أن ميوله الأدبية اتضحت فيه مبكرة وتفتحت في نفسه ملكاته الشعرية، مما جعله ينتظم فيمن يعملون في الكتابة الديوانية، وعُيِّن في دواوين بلبيس بالشرقية. ومرَّ بنا هجاؤه للموظفين هناك وتسجيله عليهم الخيانة للدولة وأكل أموال الناس بالباطل. ويبدو أنه زهد في العمل معهم

(٨٥٤) انظر في البوصيري وحياته وأشعاره الفوات ٢/ ٤١٢ والوافي بالوفيات للصفدي ٣/ ١٠٥ وحسن المحاضرة ١/ ٥٧٠ وشذرات الذهب ٥/ ٤٢ ومقدمة ابن حجر الهيثمي على شرح مدحته الهمزية النبوية ولطائف المنن لابن عطاء الله السكندري وطبقات الصوفية للشعراني ٢/ ١١ وما بعدها، والخطط الجديدة لعلي مبارك ١٠/ ٨ وكتابنا فصول في الشعر ونقده ص٢٢٩ – ٢٥٤. وديوانه (طبعة الحلبي) بتحقيق محمد سيد كيلاني. وأورد بروكلمان في كتابه تاريخ الأدب العربي ٥/ ٨١ ترجمات بردته إلى اللغات الأجنبية وتخميساتها وتشطيراتها وشروحها المختلفة وكذلك الهمزية.

سريعا وعاد إلى القاهرة، محترفا إقراء القرآن للصبية وبعض الفتية في مسجد الشيخ عبد الظاهر، وكان مسجدا مغمورا وتصادف أن أمر الملك الصالح في أثناء توليه لمقاليد الأمور بمصر (٦٣٧ – ٦٤٧هـ) بتوزيع ألف دينار على طلبة العلم. ولم يصب منها مسجده المغمور وطلابه شيئا، فنظم على لسان المسجد شكوى للملك الصالح استهلها بقوله:

ليت شعري ما مقتضى حرماني　　دون غيري والألف للرحمن
أتراني لا أستحق لكوني　　جامعاً شمل قارئي القرآن

ونراه كثير الرحلة إلى البلدان المصرية والاتصال بمن فيها من الولاة، وله فيهم بعض المدائح وكذلك في بعض وزراء الدولتين الأيوبية والمملوكية وفي بعض الأمراء والسلاطين، ويبدو أنه كان يضطر للمديح اضطرارا، ليوفر لأولاده الكثيرين الطعام والثياب، ويصرح بذلك مرارا في مديحه بمثل قوله:

إليك نشكو حالنا إننا　　عائلة في غاية الكثرة

وكما تلقانا في أشعاره المبكرة أهاج مختلفة لموظفي الشرقية تلقانا عنده دعابات مختلفة تصور المزاج المصري المعروف بالميل إلى الفكاهة والنادرة، وربما أراد بشكواه في مدائحه من فقره وبؤسه إلى الدعابة، ويقول:

ولو آني وحدي لكنت مريداً　　في رباط أو عابداً في مغاره

وكأنه كان يشعر في أعماقه بأنه خُلق لا ليكون إنسانا يضطرب في الحياة ومشاغلها اليومية ومكاسبها الضرورية له ولأسرته، وإنما ليكون عابدا ناسكا في رباط صوفي أو في كهف يخلو فيه للنسك والعبادة. ويبدو أنه مَدَّ إحدى رحلاته إلى الإسكندرية

وتعرف على أبي الحسن الشاذلي صاحب الطريقة الشاذلية المشهورة، وانـتظم في سـلك مريديه وطريقته الصوفية، حتى إذا خلفه أبو العباسي المرسي على الطريقـة ظـل يلزمـه، حتى عُدَّ ثاني اثنين من تلاميذه هو وابن عطاء الله السكندري، وفي ديوانه قصيدة داليـة يمدحه بها، ويعزيه في شيخه أبي الحسن حين توفي سنة ٦٥٦ ويشيد به إشـادة رائعـة إذ كان من سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب، يقول:

اسلك طريق محمدي شريعة وحقيقة ومحمدي المحتد
إن الإمام الشاذلي طريقه في الفضل واضحة لعين المهتدي
قطب الزمان وغوثه وإمامه عين الوجود لسان سر الموجد

فهو قطب الزمان وإمامه، وعين الوجود إذ كان يؤمن المتصوفة بـأن القـبس الإلهـي المبثوث في الأنبياء نُقل إلـيهم وإلى أئمـتهم، ويقـول إنـه مـن أهـل الـشريعة المحمديـة والحقيقة الصوفية ويشير إلى أنه سليل الرسول صلى الله عليه وسلم فهـو محمـدي نـسبا وحقيقة صوفية وشريعة إسلامية.

ويبدو أن البوصيري منذ صلته بالطريقة الشاذلية لم يتجه بأشعاره نحو المحبة الإلهية على نحو ما اتجه ابن الفارض، بل اتجه إلى المديح النبوي، وبلغ فيه ذروة لم يبلغهـا أحـد قبله ولا في زمنه، فقد نظم فيـه ديوانـا رائعـا. وكـان الـصليبيون، شـاهت وجـوههم، يكتبون رسائل ضد الدين الحنيف وصاحبه، فرد عليهم طويلا في مديحه النبوي، وأفرد للرد عليهم وعلى اليهود قصيدة طويلة في نحو مائتين وسبعين بيتا، داحـضا افـتراءاتهم على الرسول الكريم ناقضا ما ادعاه النصارى من ألوهية المـسيح وصَـلْبه ومـا جـاء في التوراة المحَّرفة من ارتكاب الأنبياء للمعاصي، وسمى قصيدته "المخرج والمـردود عـلى

obeikandl.com

النصارى واليهود" ويتحدث في حماسة فياضة عن صفات الرسول وسيرته ومعجزاته الباهرة وانتصاراته الساحقة على أعدائه وأعداء الله. ويكثر من المديح النبوي ومن التنويه بالخلفاء الراشدين وبالصحابة وآل البيت مصورا في الرسول أزلية النور المحمدي المعنوي لُبّ الوجود وروحه، وكأن للرسول وجودين هذا الوجود المعنوي الذي يستمد منه الكون وجوده والذي تعاقب في الأنبياء منذ آدم، ووجود ثان حسي مادي هو وجوده حين وُلد ثم بُعث بشيرا ونذيرا، وبذلك اتحد المعنى والصورة أو قل الحقيقة المحمدية الأزلية وصورة الإنسان، على نحو ما نقرأ في قوله:

محمد حجة الله التي ظهرت ... بسنة مالها في الخلق تحويل
من كمل الله معناه وصورته ... فلم يفته على الحالين تكميل
من آدم ولحين الوضع جوهره ... المكنون في أنفس الأصداف محمول
فللنبوة إتمام ومبتدأ ... به وللفخر تعجيل وتأجيل

ودائما يعصف الحنين بقلبه إلى زيارة مكة والمدينة عصفَ الوجد الملتاع، ودائما يردد معجزات الرسول وجهاده في غزواته، ودائما يكرر حقيقته الأزلية، حتى لكأنه مبدأ الوجود ومبدأ النبيين وأيضا خاتمهم، يقول:

كان سراً في ضمير الغيب من ... قبل أن يخلق كون أو يكونا
تشرق الأكوان من أنواره ... كلما أودعها الله جبيناً
ختم الله النبيين به ... قبل أن يجبل من آدم طينا
فهو في آبائهم خير أب ... وهو في أبنائهم خير البنينا

فهو السر الأول في الكون أو هو العلة الأولي، خلق قبل الكون وخلق قبل أن يجبل أو يخلق آدم، وكل نور في الكون مستمد منه، وهو مبدأ الأنبياء ومنتهاهم، وهو أبوهم

المعنوى الأزلي، فيه تبدأ الحياة وإليه تنتهي. ويكثر البوصيرى في مدائحة النبوية من الضراعة للرسول أن يقبل توبته وأن يكون شافعه يوم القيامة حتي ينال رضوان ربه وغفرانه.

ويشتهر البوصيري بمدحته النبوية المسماة بالهمزية وقد سماها "أم القرى في مدح خير الورَى" وهي في نحو أربعمائة وخمسين بيتا وعُنى كثيرون بشرحها، وهو فيها يجمل سيرة الرسول حتى يوقد حمية الشباب المحاربين للصليبيين، ويفتتحها بفكرة الحقيقة المحمدية وأن الرسول سر الوجود ونوره الذي يفيض على الكون وعلى الأنبياء من قديم، يقول:

كيف ترقى رقيك الأنبياء ... يا سماء ما طاولتها سماء
إنما مثلوا صفاتك للناس ... كما مثل النجوم الماء
أنت مصباح كل فضل فما تصدر ... إلا عن ضوئك الأضواء

فالرسول لا تبلغ منزلته ودرجته الرفيعة منزلةُ أي نبيٍ أو رسول، إنه في أعلى علَّيين، وكل رسول إنما مثَّل جانبا من صفاته الربانية، كما تمثَّل النجوم المترائية على صفحة الماء النجوم على صفحة السماء. وإن كل ضوء ونور في الكون ليستمد من مصباحه، فهو منبع كل نور ومصدره. ويتحدث عن مولده وما اقترن به من دلائل النبوة، ويفيض في الحديث عن سيرته حتى مبعثه، ويعدد بعض معجزاته الباهرة وفي مقدمتها الإسراء، ويصور جهاده الباسل في نشر دينه، ويرد على النصارى واليهود افتراءاتهم على الدين الحنيف، ويعرض بعض معتقداتهم الفاسدة، ويلم بعداء اليهود للإسلام وحربهم لرسوله. ويصور حِجَّته إلى مكة وأداء المسلمين لمناسك الحج. وينوه بمواقف كبار

obeikandl.com

الصحابة وبالصحابة جميعا وبأستاذيه الشاذلي وخليفته أبي العباس المرسي، ويتضرع في أثناء ذلك للرسول أن يكون شفيعا له عند ربه في محو ذنوبه.

وأروع من هذه المدحة النبوية مدحته الميمية المسماة بالبُرْدة وقد عارضها كثيرون ويقال إنه كان قد أصابه فالج، فنظم هذه القصيدة وأتخذها شفيعا لدى الله كي يعافيه، وظل يكرر إنشادها ويبكي ويدعو ويتوسل، ونام فرأى النبي صلى الله عليه وسلم يمسح على وجهه بيده المباركة ويلقي عليه بردة، وانتبه فوجد نفسه معافى، وشاعت القصة وسميت القصيدة البردة. وهو يفتتحها متغزلا بحجازية من ذي سَلم أشعلت الحب في قلبه، وهو إنما يتخذها رمزا لوجده الملتاع بحب الرسول عليه السلام، ويلم بأصل من أصول الطريقة الشاذلية. وهو كبح جماح النفس وردها عن شهواتها. ويتحدث عن فضائل الرسول مبتدئا بفضيلة الزهد وكيف أنه لولا لم تخرج الدنيا من العدم ويسترسل في تصوير الحقيقة المحمدية الأزلية قائلا:

فاق النبيين في خلق وفي خلق ... ولم يدانوه في علم ولا كرم
وكلهم من رسول الله ملتمس ... غرفا من البحر أو رشفا من الديم
فإنه شمس فضل هم كواكبها ... يظهرن أنوارها للناس في الظلم

فهو يفوق الأنبياء صورة وخلقا وعلما وكرمًا وكلهم يلتمس من علمه وحكمته ويستمد من نوره، فنوره يتجلىَّ في الأنبياء جميعا ومهما تعددوا في الأزمنة فإنهم شخصية واحدة وحقيقة واحدة هي الحقيقة المحمدية. ويفيض البوصيري في بيان معجزات الرسول، وخاصة القرآن معجزته الكبرى كما يفيض في بيان جهاد الرسول وصحابته لأعداء الرسول ودينه الحنيف حتى استسلموا صاغرين. ويضرع للرسول أن يكون

شفيعا عند ربه كما يضرع لله أن يلطف بـه في دنيـاه وآخرتـه. ولا تـزال هـذه القـصيدة وأختها الهمزية تنشد إلى اليوم في حفلات الموالد وحلقات الذكر الصوفي ولـه بجـانبهما في المدائح النبوية أناشيد أخرى رائعة.

محمد بن أبي الحسن[٨٥٥] البكري الصّدّيقي

من سلالة أبي بكر الصديق بمصر، ولد بها سنة ٩٣٠ وحفظ القرآن وهو ابـن سـبع سنين، وأقبل على حفظ المتون والتلقي على شيوخ عصره يأخذ ما عندهم، وكان أستاذه الأول أباه، وجلس مكانه في الجامع الأزهر للتـدريس بعـد وفاتـه وعمـره لا يتجـاوز إحدى وعشرين سنة، وكـان يـدرس لطلابـه فقـه الـشافعي، ولـه شرح عـلى مـتن أبي شجاع. وكـان آيـة في العلـم والزهـد واشـتهر بتعمقـه في العلـوم الـشرعية واللغويـة والصوفية، وورث عن أبيه مشيخة السادة البكرية وله يناجي ربه:

رب إني عبد ذليل ضعيف	فلحالي باللطف منك تدارك
كلقطر أصابني منك بحر	كيف والحال في تجرى بحاك
كل جزء منى لسرك دار	عمر الله ياحبيبى ديارك
من رآني رآاك من غير شك	أى شك وقد جعلت مزارك

(٨٥٥) انظر في محمد بن أبي الحسن ريحانة الألبا للخفـاجي ٢/ ٢٢٠ وأكمـل الترجمـة بعـد ترجمتـه لابنـه أبي المواهب ص٢٢٣ وراجع شذرات الذهب ٨/ ٤٣١ والنور السافر للعيـدروس (طبـع بغـداد) ص٤١٤ وكتاب بيت الصديق للسيد محمد توفيق البكري وما ذكره من مراجع.

obeikandl.com

وتمثل في الأبيات مثولا بينا فكرة الاتحاد بالذات الربانيه المعروفة عند التصوفة وما يتبعها من فكرة الفناء، الإنسان عن صفاته البشرية، وهي فكرة رأيناها واضحة عند ابن الفارض:

ولقد قصائد كثيرة يصف فيها حبه ومواجده الروحية من مثل قوله:

حبيبك دان رقيب قريب	فماذا البكاء وماذا النحيب
نعم هو دان ولكنني	بعيد فقيد طريد غريب
بكائي علي لأني بليت	بداء الصدود وعز الطبيب

وعلى هذا النحو دائما هو واله ملتاع يبغي الوصال، ومحبوبه قريب منه، بعيد لأنه لا ينيله أمنيته من الوصول وهو لذلك دائم القلق، ويئن والمحبوب منصرف عنه معرض. وهو يهتف وينادي آملا راجيا ويردد ما ردده ابن الفارض وغيره من الصوفية قبله. من الحديث عن مدامة الحب الإلهي ورحيقه المسكر للصوفية.

وللبكري استغاثات كثيرة بالرسول صلى الله عليه وسلم حبيب الله خير مبعوث قرَّبه الله إليه.وسره الأعلي الذى لا يخيب أمله، والذى ينال سؤله اللائذ. ومن قوله في إحداى استغاثاته:

يا أكرم الخلق علي ربه	وخير من فيهم به يسأل
قد مسني الكرب وكم مره	فرجت كرباً بعضهُ يذهل
وأنت باب الله أى امرىء	أتاه من غيرك لا يدخل

obeikandl.com

ويضيف في استغاثاته بالرسول إلي تفريج الكرب عنه وإقالته من عثراته الشفاعة لـه من ذنبه يوم المحشر بما أوتي من محبة الله ورؤيته له في عروجه إلي السموات.

obeikandl.com

٥

شعراء الفكاهة

من أهم ما يميز مصر قديما وحديثا ميل أهلها إلى الفكاهة والتندير والدعابة، وقد صورنا ذلك تصويرا جامعا في كتابنا "الفكاهة في مصر" مستعرضين هذه الخصلة في مزاج المصريين من عصر الفراعنة حتى العصر الحديث. ونراها واضحة طوال هذا العصر. بل منذ أن وجدت مصر شخصيتها الأدبية زمن الدولة الطولونية على نحو ما يتضح من نبز شاعر بلقب الجمل الأكبر، وخلفه شاعر كان يلقَّب بالجمل الأصغر، ويقول ابن سعيد. "كان ينحو في الظرافة والتطايب منحى الجمل الأكبر".(٨٥٦) ولا يلبث أن يقول في سعيد القاص شاعر الإخشيد الملقب هو الآخر بقاضي البقر: "من شعراء الإخشيد وزاد اختصاصه لديه بما كان فيه من الحلاوة والتندبير والهزل".(٨٥٧) وإذا مضينا إلى زمن الدولة الفاطمية وجدنا ظاهرة النبز بالألقاب دعابةً للشعراء تتسع، إذ ينبز غير شاعر بلقب غريب كما يوضح ذلك كتاب الخريدة للعماد الأصبهاني إذ يلقانا فيه شاعر لُقِّب بِشَلَعْلع وثان بالوضيع وثالث بالكاسات ورابع بالجهجهان وخامس بالنسناس إلى غير ذلك من ألقاب.

ومن أوائل الشعراء في هذا العصر ابن وكيع التنيسي ومرت في الفصل الماضي مربعة مزدوجة له، جعل موضوعها غزله بغلام المسيح، وقد مضى فيها يداعبه، منذرا له، إن ظل هاجرا، أن يشكوه إلى القساوسة ويتسع في ذلك محتجا بتعاليم المسيح ووصايا متى

---

(٨٥٦) المغرب لابن سعيد (قسم الفسطاط) ص٢٧٠.

(٨٥٧) المصدر نفسه ص٢٧١.

ولوقا ومرقص ويوحنا، ويقول إنه سيشكوه إلى الأسقف فإن لم يقلع عن هجره شكاه إلى المطران، فإن لم يكف شكاه إلى البطريرك. وكانت تقترن بهذه الفكاهة سخرية شديدة بالفاطميين ووزرائهم عرضنا لها في حديثنا عن الهجاء. وأدى هذا الميل إلى السخرية والفكاهة والرغبة في التندير بالمصريين إلى الاتساع في القذف بسهام التورية، وهي تكثر في سماء أشعارهم طوال هذا العصر حتى لتشبه النيازك التي يكثر إلقاؤها إلى الفضاء في الأعياد، فلا تزال النيازك تلقي ليلة العيد، ولا يزال الشعراء المصريون يرمون بتورياتهم قدحا ومدحا وغزلا على كل لون من مثل قول الشريف العقيلي مثنيا على زامر ونايه أو ناياته:(٨٥٨)

وزامر يكذب فيه عائبه ... تكثر في صنعته عجائبه
يحجب صبر المرء عنه حاجبه ... كأنما ناياته ذوائبه

والتورية واضحة في حاجب وذوائب. وممن تعلقوا بصنع التورية في الحقبة الفاطمية ابن قادوس – كما مر في غير هذا الموضع – ومثله قمر الدولة جعفر بن دوَّاس، وله يقول في ابن أفلح احد الكتاب الشعراء وكان شديد السواد:(٨٥٩)

هذا ابن أفلح كاتب ... متفرد بصفاته
أقلامه من غيره ... ودواته من ذاته

وتلقانا بجانب التورية دعابات كثيرة للشعراء في زمن الفاطميين، يداعبون بها زملاءهم من الشعراء وأصدقاءهم من الكتاب والعلماء والأطباء، من ذلك دعابة

(٨٥٨) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٢/ ٦٣.

(٨٥٩) الخريدة ٢/ ٢١٩.

مشهورة للقاضي الجليس شاعر الفاطميين ووزيرهم طلائع ابن رزيك وجَّه بها إلى طبيب تعهَّده وكان محموما، فلم يبرأ على يديه وفيها يقول:(٨٦٠)

وأصل بليتي من قد غزاني	من السقم الملح بعسكرين
طبيب طبه كغراب بين	يفرق بين عافيتي وبيني
أتى الحمى وقد شاخت وباخت	فرد لها الشباب بنسختين
ودبرها بتدبير لطيف	حكاه عن سنان أو حنين(٨٦١)
وكانت نوبة في كل يوم	فصيرها بحذق نوبتين

والجليس يداعب الطبيب فبدلاً من أن يصله بعافيته فرق بينهما، ويقول إنه جاء في أواخر الحمى وقد شاخت وباخت أو فترت فإذا هو يردُّ لها الشباب بورقتين من سَفوف الدواء أو كما يقول بنسختين، وكأنما أحكم تدبيره في ردّ قوة الحمى إليها فإذا هي لا تعاوده في اليوم نوبة بل نوبتين. ولعل القارئ لم ينس ابن الذَّروي في الحقبة الأيوبية ووصفه لحدبة ابن أبي حصينة وصفا ساخرا لاذعا. ومن طريف ما نقرأ من دعابات في هذه الحقب دعابة البهاء زهير مع أحد أصدقائه، وقد جعل موضوعها بغلته، يقول:(٨٦٢)

لك يا صديقي بغلة	ليست تساوي خردلة
تمشي فتحسبها العيون	على الطريق مشكلة(٨٦٣)

---

(٨٦٠) الخريدة ١/ ١٩٢.

(٨٦١) سنان هو سنان بن ثابت بن قرة من أطباء القرن الثالث ومثله حنين بن إسحق.

(٨٦٢) كتاب البهاء زهير للشيخ مصطفى عبد الرازق ص٥٤.

(٨٦٣) مشكلة: مقيدة.

obeikandl.com

وتخال مدبرة إذا ما أقبلت مستعجلة
مقدار خطوتها الطويلة حين تسرع أنملة
تهتز وهي مكانها فكأنما هي زلزله

ويريد البهاء زهير بالخردلة أقل شيء في الصغر، ويقول إنها حين تمشي يُظّن أنها مقيدة لبطئها الشديد، ويجعلها مدبرة حين تقبل ومقدار خطوتها الطويلة أنملة فما بالنا بخطوتها القصيرة، وإنها لتهتز واقفة لا تسير ولا تتحرك كأنما هي زلزلة.

وتكثر التورية في شعر القاضي الفاضل وزير صلاح الدين كثرة مفرطة من مثل قوله متشوقا إلى مصر وإلى شَربة من ماء النيل:(٨٦٤)

بالله قل للنيل عني إنني لم أشف من ماء الفرات غليلا
وسل الفؤاد فإنه لي شاهد أن كان طرفي بالبكاء بخيلا
يا قلب كم خلفت ثم بثينة وأظن صبرك أن يكون جميلا

فقد غاب عن مصر مع صلاح الدين في بعض رحلاته وحملاته إلى الموصل، وهو يعلن أن ماء الفرات لن يشفي غليله، ولن يكف بكاؤه شوقا إلى مصر ورياضها ونيلها. والتورية واضحة في كلمة جميل بعد ذكره لبثينة صاحبة جميل الشاعر الغزل القديم.

ويتوقف ابن حجة الحموي بكتابه خزانة الأدب في حديثه عن التورية ملاحظا أنه خلفت القاضي الفاضل شعبتان:(٨٦٥) شعبة مبكرة وشعبة لاحقة، أما المبكرة فجميعها مصريون وجميع اللاحقة شاميون، ويعدَّد المبكرة ومن قاموا عليها من

(٨٦٤) خزانة الأدب للحموي (طبع مطبعة بولاق) ص٣٠٠.

(٨٦٥) خزانة الأدب ص٢٩٨.

obeikandl.com

المصريين في القرنين السادس والسابع للهجرة مسميا لهم، وهم ابن سناء الملك من مثل قوله في بعض غزله:[٨٦٦]

ملكت الخافقين فتهت عجباً وليس هما سوى قلبي وقرطك

فهي لا تمتلك قرطها الخافق المهتز وحده بل تمتلك أيضا قلبه الخافق، والتورية في كلمة الخافقين وهما الشرق والغرب. ويذكر ابن حجة بعد ابن سناء الملك شعراء القرن السابع المصريين: الجزار والوراق وابن النقيب والحمّامي وابن دانيال ومحيي الدين بن عبد الظاهر، وسنلم ببعض توريات من سنترجم لهم منهم، ومن توريات ابن النقيب قوله المشهور:[٨٦٧]

أقول وقد شنوا إلى الحرب غارة دعوني فإني آكل الخبز بالجبن

والتورية في الجبن واضحة. ومن توريات النصير الحمامي قوله في بعض غزله:[٨٦٨]

ويظنني حياً رويت بريقه فإذا دعا قلبي يجاوبه الصدى

والمعنى القريب للصَّدَى المتصل بالدعاء والجواب رجع الصوت، والمعنى البعيد المراد الذي ورَّى عنه النصير الحمامي هو العطش. ويتوقف ابن حجة طويلا عند توريات ابن نباتة، وقد روى منها أكثر من مائة تورية، غير ما رواه مما أخذه عنه

---

(٨٦٦) الديوان ص٤٦٣ والخزانة ص٣٠٠.

(٨٦٧) خزانة الأدب ص٣٠٨.

(٨٦٨) نفس المصدر ص٣٠٨.

obeikandl.com

الصفدي وغيره، ومن طريف توريـاته قوله لمن أهدى إليه تمرًا رديئاً غالبه نَوَى، إذ كتب إليه:(٨٦٩)

أرسلت تمراً بل نوى فقبلته ... بيد الوداد فما عليك عتاب

وإذا تباعدت الجسوم فودنا ... باق ونحن على النوى أحباب

والمعنى القريب المتبادر لكلمة النوى هو نوى التمر، والمعنى البعيد الذي أراده ابـن نباتة هو البعد والفراق.

ويترك ابن حجة توريات ابن نباتة إلى توريات من جاء بعده من المصريين أمثال ابـن الصائغ الحنفي وفخر الدين بن مكانس وبدر الدين البَشْتكي وابن أبي الوفا وابن حجر العسقلاني المصري. وتستمر التورية في الحقبة العثمانية وكأنها والمزاج المصري صنوان لا يفترقان. ويلقانا في أيام العثمانيين شاعر فكه كـان يعـيش للهـزل هـو عـامر الأنبـوطي وسنترجم له عما قليل بين شعراء الفكاهة في العصر.

ابن (٨٧٠) مِكْنَسة

هو إسماعيل بن محمد الإسكندري عاش في القرنين الخامس والـسادس للهجـرة إذ توفي سنة ٥١٠ وفيه يقول أبو الصلت في الرسالة المصرية: "شاعر مكثر التصرف، قليل التكلف، يفتنُّ في نَوعيْ جِدَّ التعريض وهزله، وضاربٌ بسهم في رقيقه وجزله". وكان مع جودة شعره يتبذل في مديحه وبلغ منه ذلك أنه انقطع إلى عامل مـسيحي يـسمى أبـا

(٨٦٩) خزانة الأدب ص٣٦٢.

(٨٧٠) انظر في ابن مكنسة وترجمته وأشعاره الرسالة المصرية لأمية بن أبي الصلت نشر عبـد الـسلام هـرون والخريدة ٢/ ٢٠٣ وفوات الوفيات ١/ ٣٦ ومعجم السلفي في مواضع متفرقة.

obeikandl.com

مليح في عهد بدر الجمالي وزير المستنصر وكأنه لم يجد عند بدر ما يغنيه، فلما تحوّلت الوزارة منه إلى ابنه الأفضل وتعرَّض لاستماحته لم يقبله ولم يُقبل عليه، لقوله في رثاء أبي مليح:

طويت سماء المكرمات وكورت شمس المديح
ماذا أرجى في حياتي بعد موت أبي مليح

ويبدو أن البيت الثاني هو الذي آذى نفس الأفضل، فأعرض عنه وكفله عز الدولة بن فائق ويبدو أنه كان من كبار رجال الدول الفاطمية، وله في المديح كثير من الأبيات الطريفة كقوله:

يلقاك مبتهجاً والغيث في يده يعمي فيجمع بين الشمس والمطر

وقوله:

الطود حاسد حلمه وأناته والسيف حاسد بأسه ومضائه

وله أشعار غزلية كثيرة كان يعرف كيف يسوق فيها أفكارا وصورا مبتكرة، وهو كالسابق إليها أو سابق فعلا من مثل قوله يصف خصلة من الشعر التوتْ على خد جميل في شكل عقرب:

قلت إذ عقرب الدلال على خده الشعر
مارئي قط قبل ذا عقرب حلت القمر

والحديث عن عقرب الشعر وقرنه ببرج العقرب قديم، وربما كان أروع من هذه الصورة، وهي بحق صورة مبتكرة له قوله:

لا تخدعنك وجنة محمرة رقت ففي الياقوت طبع الجلمد

obeikandl.com

وعلى شاكلة هذه الصورة المبتكرة قوله:

الحسن في وجنته وطرفه يفتح ورداً ويغض نرجسا

وكانت له أشعار كثيرة في المجون والخمر ومعاقرة الدنان، وكثيرا ما ينفذ منها إلى صور وخيالات بديعة من مثل قوله يصف الخمر وهي تُصَبّ من إبريق:

إبريقنا عاكف على قدح كأنه الأم ترضع الولدا
أو عابد من بني المجوس إذا توهم الكأس شعلة سجدا

وكان في ابن مكنسة ميل شديد إلى الفكاهة والدعابة، وله في ذلك نوادر وأشعار كثيرة، كان فيها يتهاجن على طريقة أبي الشمقمق الذي عرضنا له في كتاب العصر العباسي الأول، إذ كان دائم التصوير لبؤسه وفقره وخلو داره من الطعام وعبثِ الجرذان فيها وبنات وَرْدان أو الصراصير، ويتابعه ابن مكنسة واصفا قبح داره وضيقها، قائلا:

لي بت كأنه بيت شعر لابن حجاج من قصيد سخيف
أين للعنكبوت بيت ضعيف مثله وهو مثل عقلي الضعيف
بقعة صد مطلع الشمس عنها فأنا – مذ سكنتها – في الكسوف

وهو يذكر عبث بنات وردان فيه وضيقه الشديد وقبحه، ويقول أنه يشبه بيت شعر سخيف من أشعار ابن حجاج المفحشة، ويقول إنه – مذ سكنه – في الكسوف ولا يريد كسوف الشمس وهو المعنى القريب الملائم لما قبله، وإنما يريد المعنى البعيد من الخجل والاستحياء الشديد. وهي تورية واضحة. ومن قوله الفكه يشكو شيخوخته ووهن عظمه وكلال بصره:

عشت خمسين بل تزيد ـد رقيعاً كما ترى

obeikandl.com

أحسب المقل بندقا	وكذا الملح سكرا
وأظن الطويل من	كل شيء مدورا
قد كبر بر ببر ببرت	وعقلي إلى ورا
عجباً كيف كل شيء	أراه تغيرا
لا أرى البيض صار يوكل	إلا مقشرا
وإذا دق بالحجار	زجاج تكسرا

وهو يعلن في مطلع الأبيات أنه عاش ماجنا رقيعا، وكأنه لن يكفَّ عن رقاعته ومجونه، ويصور شيخوخته وضعف نظره حتى لم يعد يفرق بين ثمر الدوم المسمى بالمقل والبندق ولا بين الملح والسكر ولا بين الطويل والمدور، ويجسِّم ارتعاشه في شيخوخته بالبيت الرابع إذا لم يكد يلفظ بكلمة كبرت حتى ارتعش به فمه مكونا شطرا من بيت، ويعجب أن كل شيء تغير، ونقرأ ما تغير فنستغرق في الضحك، إذ تحولت الحقائق في عقله الكليل إلى عجائب، فالبيض يؤكل مقشرا، والزجاج إذا دق بالحجارة تكسر. وما من ريب في أن هذه الفكاهة فيه والدعابة هي التي جعلت المصريين لزمنه يلقبونه ابن مكنسة.

obeikandl.com

الجزَّار(٨٧١)

هو يحيي بن عبد العظيم ولد سنة ٦٠١ وتوفي سنة ٦٧٩ فهو من شعراء الدولتين: الأيوبية والمملوكية، نشأ بالفسطاط في أسرة كانت تحترف الجزارة، ويقول بن سعيد صديقه في ترجمته له بكتاب المغرب: دكاكين أسرته في الفسطاط عاينتها وأبصرته معهم بها. وكان في أول أمره قصَّابا وسال الشعر على لسانه وكانت ملكته خصبة فاحترفه، وقصد به السلاطين والأمر وعمال الدولة في الإسكندرية والمحلة ودمياط. وروى ابن سعيد في ترجمته قطعة كبيرة من شعره ومدائحه، ويرجع تاريخ بعضها إلى سنة ٦٢٧ ويقول صاحب مسالك الأبصار: "قال الشعر وهو صغير أول ما احتلم، وطاف بأركان بيت له واستلم". ويشيد ابن سعيد بكرمه وما أغدق عليه من بره، ويذكر دعوته له مرارا للنزهة مع طائفة كبيرة من شعراء جيله أمثال ابن النقيب والسراج الوراق. وكانت للجزار مسامرات ولقاءات كثيرة مع البوصيري والحمامي وابن دانيال، وجعله كرمه يقترب ممن كانوا يفدون على مصر أمثال ابن العديم وابن خلكان وابن سعيد الذي يشيد بوصف مروءته وكرمه وحسن عشرته. ويخيل إلى الإنسان كأن لم يبق سلطان ولا وزير ولا قاض ولا كبير في الدولة إلا أسبغ عليه مدائحه، وهي مدائح وسطى ليست بالغة الجودة، ومع ذلك يقول الصفدي: "لم يكن في عصره من

---

(٨٧١) انظر في الجزار وترجمته وشعره المغرب (قسم الفسطاط) ص٢٩٦ وحسن المحاضرة ١/ ٥٦٨ وفوات الوفيات ٢/ ٦٣٠ ومسالك الإبصار لابن فضل الله العمير (مخطوطة دار الكتب المصرية) ١٢ الورقة ١٦٦ والنجوم الزاهرة ٧/ ٣٤٥ وشذرات ابن العماد ٥/ ٣٦٤ ومطالع البدور للغزولي ٢/ ١٩١ وما بعدها، وبمكتبة جامعة القاهرة مصورة لمنتخبات من شعره بخط الصفدي في ١٨٠ ورقة.

يقاربه في جودة النظم غير السراج الوراق، وهو كان فارس الحلبة، ومنه أخذوا وعلى نمطه نسجوا ومن مادته استمدوا" ويقول ابن سعيد: "رُزق من حسن الاهتداء لغرائب المعاني وبدائع الألفاظ ما يدل على غَوص فكره، وطريقه من أسهل الطرق التي يميل إليها العامة ولا ينكرها الخاصة، لقرب مأخذها وحسن منزعها".

وابن سعيد دقيق كل الدقة في وصف لغة الجزار بأنها سهلة تميل إليها العامة، مع فصاحتها، وهي ظاهرة ترجع إلى نشأته، وأنه تربى بين طبقة العامة في الفسطاط لزمنه، فطبيعي أن لا يجنح في أشعاره إلى الألفاظ الغريبة إنما يجنح إلى الألفاظ الواسطة بين لغة العامة ولغة الخاصة بحيث يرضي الطرفين ويقع منهما موقعا حسنا. والجزار إحدى حلقات هذه السلسلة التي تصور صلة عامَّة الشعب المصري دائما بالشعر العربي صلة لا تنقطع، إذ دائما نرى شعراء من طبقة العامة الكادحة يرقون في الشعر إلى درجة عالية مثل ظافر الحداد في الحقبة الفاطمية، وكثير من معاصري الجزار كانوا مثله من أبناء عامة الشعب نذكر منهم صديقه الوراق، وكان ورَّاقا يبيع الكتب، وكذلك صديقه الحمامي، وكان له حَمَّام يقوم عليه، ومثل مجاهد الخياط بالفسطاط، وله فيه بيت مشهور لزمنهما دار على الألسنة إذ يقول:

وليس يرجوه غير كلب　　وليس يخشاه غير تيس

وردَّ عليه الجزار غير غاضب بل كأنما يريد استمرارًا في الدعابة:

يرجينا بنو كلب　　ويخشانا بنو عجل

ويبد أنه كان يعود في بواكير حياته إلى القصابة والجزارة مما جعل صديقا له يسمى شرف الدين يعاتبه ويكثر من عتابه ولومه لتركه الأدب إلى حرفة الجزارة فقال:

كيف لا أشكر الجزارة ما عشت حفاظاً وأرفض الآدابا
وبها أضحت الكلاب ترجيني وبالشعر كنت أرجو الكلابا

ولابد أن أزمة كرامةٍ مرت به، فانسحب فترة إلى دكاكين أهله، ولكن سرعان ما عاد إلى الأدب وإلى الكرام من ممدوحيه وأصدقائه وزملائه الكثيرين.

وربما كان أهم ما يتصف به الجزار ميل متأصل في نفسه إلى الفكاهة والدعابة، مما جعله يُشبَّه بابن مكنسة وأبي الشمقمق العباسي في الشكوى من بؤسه وفقره مداعبا متفكِّهًا بمثل قوله:

لي من الشمس خلعة صفراء لا أبالي إذا أتاني الشتاء
بيتي الأرض والفضاء به سور مدار وسقف بيتي السماء
لو تراني في الشمس والبرد قد أنحل جسمي لقلت إني هباء
كلما قلت في غد أدرك السول أتاني غد بما لا أشاء

فحتى الثياب لا يجدها، وبيته الأرض وسقفه السماء، وقد أنحله البرد حتى صار شبحا لا يكاد يُرى، وكل يوم يأمل ويرجو ويخيب الأمل والرجاء، إذ لا ينال شيئا من دنياه سوى اليأس والشقاء، ويعود إلى وصف داره قائلا:

ودار خراب بها قد نزلت ولكن نزلت إلى السابعة
فلا فرق ما بين أني أكون بها أو أكون على القارعة
وأخشى بها أن أقيم الصلاة فتسجد حيطانها الراكعة
إذا ما قرأت: (إذا زلزلت) خشيت بأن تقرأ: (الواقعة)

إنها دار خربة هوت به إلى الأرض السابعة ولا سقف ولا حيطان فكأنه على القارعة أو على الطريق. وإنه ليخشى أن يقيم بها الصلاة فتنقضّ حيطانها. ويتندر قائلاً إذا

قرأت في صلاتي سورة الزلزلة خشيت أن تقرأ هي سورة الواقعة، والتورية واضحة، ويعود إلى ثيابه ويصف جُبَّةً له هذا الوصف الفكه:

لي نصفية تعد من العمر سنيناً غسلتها ألف غسلة
كل يوم يحوطها العصر والدق مرارا وما تقر بعمله
أين عيشي بها القديم وذاك المتيه فيها وخطرتي والثملة
حيث لا في أجنابها رقعة قط ولا في أكمامها قط وصله

فهي نصفية أو "جُبَّة" طالما لُيست وغُسلت وصُبغت، وفي كلمة "العصر" تورية لأنها كانت شائعة الدلالة على عصر الخصيتين تأديبا للمجرمين وتقريرا لهم، وترشحها في البيت كلمة الإقرار بالعملة وهي بفتح العين الجناية وبالضم النقود. والشملة لا تزال تستعمل في العامية المصرية على ما يتلفع به الرجال من الصوف أو الحرير، وهي فصيحة. والأبيات مختارة من قطعة طويلة مضحكة في وصف هذه الجبة البالية. وصلى التراويح عند الوزير بهاء الدين بن حنَّا فقرأ الإمام في ركعة من ركعات التراويح سورة الأنعام، فقال تَوًّا:

مالي على الأنعام من قدرة لاسيما في ركعة واحدة
فلا تسوموني حضورا سوى في ليلة الأنفال والمائدة

ولكلمة الأنفال معنى قريب هو السورة الكريمة ومعنى بعيد هو الهبات، وهو المراد، وبالمثل لكلمة المائدة معنى قريب هو سورتها في القرآن ومعنى بعيد هو مائدة الطعام وهو المراد. وله في أطعمة رمضان: القطائف والكنافة وما إليها مداعبات كثيرة من مثل قوله:

سقى الله أكناف الكنافة بالقطر وجاد عليها سكر دائم الدر

obeikandl.com

والقطر هنا السكر، والدر: الهطلان والكثرة.

وتزوج أبوه امرأة متقدمة في السن، فمضى ينتقم منه ومنها بفكاهات واصفا فيها هرمها، مصورا ضعف عقلها لكبر سنها وقبح وجهها كما يزعم بمثل قوله:

تزوج الشيخ أبي شيخة ... ليس لها عقل ولا ذهن

لو برزت صورتها في الدجى ... ما جسرت تبصرها الجن

كأنها في فرشها رمة ... وشعرها من حولها قطن

وقائل قال فما سنها ... فقلت ما في فمها سن

والبيت الثالث شديد الإقذاع لهذه المرأة المسنة، واستخدام التورية في البيت الأخير إذ سئل عن سنها أي عمرها، فجعل السؤال عن أسنانها.

وينظم في حمار له مقطعات كثيرة فكهة، ومات فأكثر من رثائه محاكيا بشارًا في رثائه لأتانه، وجمع بعض معاصريه مراثيه لحماره في مجلد، وهي مراث تدور على الدعابة الخالصة. ومن قوله اللاذع في أحد البخلاء لأيامه:

لا يستطيع يرى رغيفاً ... عنده في البيت يكسر

فلو أنه صلى – وحاشاه ... لقال الخبز أكبر

وفي الحق أنه كان جعبة فكاهة ودعابة، وهو أحد من أكثروا لزمنه صنع التوريات، وقد ورى له ابن حجة طائفة كبيرة، منها قوله:

قلت لسقم الجسم مني وقد ... أفرط بي فرط ضنا واكتئاب

فعلت بي يا سقم مالي يكن ... تلبس – والله – عليه الثياب

والشطر الأخير له معنيان: المعنى الظاهر الضنا والنحول حتى لا تكاد الثياب تلبس، والمعنى البعيد المراد وهو: ما لا يصح ولا يجوز أبدا.

obeikandl.com

السراج [٨٧٢] الوراق

هو سراج الدين عمر بن محمد بن حسن رفيق الجزار وصديقه، وُلد مثله بالفسطاط سنة ٦١٥ وتوفي سنة ٦٩٥ وفيه يقول ابن تغري بردي: "كان إماما فاضلا أديبا مكثرا متصرفا في فنون البلاغة، وهو شاعر مصر (الفسطاط) في زمانه بلا مدافعة" ويقول صاحب فوات الوفيات: "كان حسن التخيل، جيد المقاصد، صحيح المعاني، عذب التراكيب عارفا بالبديع وأنواعه". ولم يكثر أحد من الشعر إكثاره إذ كان ديوانه سبعة أجزاء كبار، وأكثره مقطوعات قصيرة. ويمتاز شعره – مثل الجزار – بالسهولة المفرطة، لسبب طبيعي، وهو أنه نشأ في أسرة شعبية متواضعة، وما زال الشعر يصعد به حتى عُيِّن كاتبا للدرج عند بعض الأمراء، ويبدو أنه لم يظل في ذلك طويلا وأنه احترف الوراقة، وفي شعره مدائح لبعض السلاطين والأمراء كقوله في الظاهر بيبرس أثناء الاحتفال بافتتاح مدرسته الظاهرية:

وشيدها العلم مدرسة غدا ... عراق إليها شيق وشام

ولا تذكرن يوما نظامية لها ... فليس يضاهي ذا النظام نظام

وهو يجعلها فوق نظامية بغداد المشهورة التي بناها بها نظام الملك الوزير السلجوقي المشهور، وقد عرضنا لها في حديثنا عن العراق بالجزء السابق من هذه السلسلة ومدى

---

(٨٧٢) انظر في السراج الوراق وترجمته وأشعاره فوات الوفيات لابن شاكر ٢/ ٢١٣ والنجوم الزاهرة ٨/ ٨٣ وشذرات الذهب ٥/ ٤٣١ وخزانة الأدب للحموي ص٣٠٠ وما بعدها ومطالع البدور ١/ ٩٠ وخطط المقريزي ٣/ ٣٤١. ومن ديوانه مخطوطة بدار الكتب المصرية ومصورة بخط الصفدي في مكتبة الجامعة في ١٨٠ ورقة.

obeikandl.com

إنفاقه عليها وعلى العلماء والطلاب بها، وما حبس عليها من أوقاف دارَّة، وكان لها شأن بعيد في النهضة العلمية ببغداد. ومر بنا حديث عن المدرسة الظاهرية في فصل الثقافة. وللوراق مرثية بديعة في المعز أيبك حين قتل، يقول فيها:

نقيم عليه مأتماً بعد مأتم ونسفح دمعاً دون سفح المقطم

وله شعر غزل كثير مثل الجزار ولا نحس عنده بحرقة ولا بلوعة، مثله في ذلك مثل صاحبه ومن قوله في بعض غزله:

في خدها ضل علم الناس واختلفوا أللشقائق أم للورد نسبته
فذاك بالخال يقضي للشقيق وذا دليله أن ماء الورد ريقه

وإذا غضضنا النظر عن حَشْره لعلم الناس واختلافهم في خَدَّ صاحبته، فإن الصورة تبدو بعد ذاك بديعة ومعروف أن الشقيق قاتم الحمرة، وقد أبدع فعلا إذ جعل دليل نسبة الخد إلى الورد ري صاحبته الشبيه بمائه. ومن غزله أيضًا:

لا تحجب الطيف إني عنه محجوب لم يبق مني لفرط السقم مطلوب
ولا تثق بأنيني إن موعده بأن أعيش للقيا الطيف مكذوب
هذا وخدك مخضوب يشاكله دمع يفيض على خدي مخضوب
تأود الغصن مهتزاً فأنبأنا أن الذي فيك خلق فيه مكسوب

وإنه ليتمنى رؤية خيال المحبوبة قبل موته وهيهات، ويقول إنه يبكي دما قانيا كخد صاحبته في حمرته. ويزعم أن ميلان الغصن واهتزازه إنما هو خلق فيه اكتسبه من تقليد صاحبته. وهو يستعير صورة الكسب في البيت من رأي المعتزلة في أن الإنسان عمله بفعله لا بقدر مقدور عليه.

obeikandl.com

وأهمية السراج الوراق في تاريخ الشعر المصري كأهمية الجزار، إنما ترجع إلى جانب الفكاهة والدعابة عنده، وقد خطا بفن التورية خطوة أوسع من خطوة صديقه الجزار، مستغلا فيها إلى أبعد حد لقبه: السراج الوراق كما استغل الجزار لقبه في كثير من توریاته. ومن المؤكد أن السراج أربي عليه في هذا الباب حتى قال له بعض معاصريه: "لولا لقبك وصناعتك لذهب نصف شعرك" ومن توریاته في لقبه السراج قوله مادحا:

كم قطع الجود من لسان قلد من نظمه النحورا
فها أنا شاعر سراج فاقطع لساني أزدك نورا

وهو يشير إلى السراج الحقيقي حين يقول "اقطع لساني" وهو إنما يريد النوال الذي يقطع لسانه ويزيده مدحا وتنويها وإشادة. ومن توریاته في لقبه الوراق:

واخجلتي وصحائفي قد سودت وصحائف الأبرار في إشراق
وفضيحتي لمعنف لي قائل أكذا تكون صحائف الوراق

فهو خجل من لقاء ربه بصحائفه السود، ويقول له لائمه: أكذا تكون صحائف الوراق سوداء، بينما ينبغي أن تكون مشرقة بيضاء كصحائف زملائه من الوراقين. ومن توریاته في غير لقبه "السراج" وصناعته "الوراق":

أصون أديم وجهي عن أناس لقاء الموت عندهم الأديب
ورب الشعر عندهم بغيض ولو وافي به لهم حبيب

ولكلمة حبيب معنيان: معنى قريب من الحب، ومعنى بعيد هو أبو تمام إذ اسمه حبيب، وهو المعنى المراد. ومن توریاته البديعة قوله:

دع الهيوني وانتصب واكتسب واكدح فنفس المرء كداحه

obeikandl.com

وكن عن الراحة في عزلة فالصفع موجود مع الراحة

ولكلمة الراحة معنيان: معنى أول هو الراحة من الاستراحة، ومعنى ثان هو الكف أو اليد، ومن توریاته في بقلة معروفة في مصر باسم "الرجلة". وقد أضافه بعض أصدقائه، فداعبه قائلا:

لنسبة بينهما ووصله وأحمق أضافنا ببقله

إذ مد في وجه الضيوف رجله

وهو لا يريد مد الرجل الحقيقية، وإنما يريد مد طعام الرجلة على المائدة، مما يدل بوضوح على حضور بديهة الوراق. ومن توریاته.

فسر لي عابر مناما فصل في قوله وأجمل

وقال: لابد من طلوع فكان ذاك الطلوع دمل

والطلوع: الصعود والرقى، واستغل الوراق تسمية العامة للدمل طلوعا، وصنع هذه التورية البارعة. وفي كتاب خزانة الأدب للحموي توريات كثيرة للسراج الوراق اقتطفنا منها ما أنشدناه. ووراءها توريات لا تقل عنها لطفا وبراعة.

ابن[٨٧٣] دانيال

هو شمس الدين محمد بن دانيال، ولد سنة ٦٤٦ للهجرة بالموصل وتركها فتىً إلى القاهرة، ولا نعرف أسباب هجرته من بلدته ولا تاريخ هذه الهجرة، ويقال إنه نزل

(٨٧٣) انظر في ابن دانيال وترجمته وأشعاره فوات الوفيات ٢/ ٣٨٣ والدرر الكامنة لابن حجر ٣/ ٣٨٢ وشذرات الذهب لابن العماد ٦/ ٢٧ والنجوم الزاهرة ٨/ ٢١٥ والبدر الطالع للشوكاني ٢/ ١٧١ وكتابنا الفكاهة في مصر (طبع دار الهلال) ص٥٣ وما بعدها.

obeikandl.com

القاهرة في سن العشرين، ويلقب بالكحَّال، ويقولون: كان له دكان كحل دخل باب الفتوح ويلقبونه بالحكيم وليس معروفا بالضبط هل احترف طب العيون أو كان تاجر كحل وبائعه فقط. وأغلب الظن أنه كان يعالج العيون لقوله:

يا سائلي عن حرفتي في الورى ... واضيعتي فيهم وإفلاسي
ما حال من درهم إنفاقه ... يأخذه من أعين الناس

والتورية في الشطر الأخير واضحة، وهي عبارة تدور على ألسنة العامة، يقولون يأخذ حقه من عينه أي رغم أنفه، وهو لا يريد ذلك إنما يريد الإشارة إلى صنعته وحرفته. وكانت تنعقد في دكانه أغلب الليالي ندوة سمر يجتمع فيها كبار الفكهين لزمنه من أمثال الجزار وابن النقيب والوراق والحمامي، ويروي أنهم جاءوه يوما فقالوا له: نحتاج إلى عُصَيَّات يومئون بذلك إلى أن من يداوي عيونه يُجْهز على بصره فيصبح ضريرا محتاجا إلى عصا تقوده، فقال لهم على الفور: ليس عندي إلا أن يكون فيكم من يقود الله تعالى. وكان يلازم الأشرف خليل ابن السلطان قلاوون قبل تقلده الحكم في عهده أبيه، وأعطاه يوما فرسا ومرت أيام فإذا به يراه على حمار أعرج، فقال له: يا حكيم أما أعطيناك فرسا تركبه؟ فأجابه مسرعا: نعم بعته وزدت على ثمنه واشتريت هذا الحمار، فضحك الأشرف وأعطاه فرسا آخر. ومن توریاته الطريفة قوله:

قد عقلنا والعقل أي وثاق ... وصبرنا والصبر مر المذاق
كل من كان فاضلاً كان مثلي ... فاضلاً عند قسمة الأرزاق

وكلمة "فاضلا" الثانية ليست من الفضيلة كسابقتها. وإنما من الفضل بمعنى الزائد عن الحاجة. وهذا الجانب الفكه في ابن دانيال استطاع أن ينفذ منه إلى صنع ثلاث

تمثيليات أو كما يسميها بابات لتمثَّل على مسرح خيال الظل في أيامه، وهو مسرح دُمَّي متحركة متحاورة، واسم أولاها "طيف الخيال" والثانية "عجيب وغريب" والثالثة "متيم". وتصور الأولى الحياة الاجتماعية لعهد الظاهر بيبرس. والثانية تصور سوقا مصرية ومن فيها من أخلاط الناس والأمم وقد جمدت ألسنتهم عند لهجاتهم الوطنية في بلدانهم وصور معينة من كلامهم تثير الضحك في النظارة. وتصور الثالثة الحِيَل وخاصة حيل المحبين مع صور مضحكة من عراك الديكة ونطاح الكباش والثيران.

وأبدع المسرحيات الثلاث وأطرفها "طيف الخيال" وهي مسرحية شعرية نثرية ونثرها مسجوع كنثر المقامات وليس فيها لفظ غريب، وكأنما حاول ابن دانيال أن يجعلها قريبة قربًا شديدًا إلى عامية أهل القاهرة لزمنه، وهو يفتتحها بتقديمه لطيف الخيال الأحدب الموصلي متغنيا بفضله وجِدَّه وهزله، ويسلِّم سلام القادم ويرد عليه الريس السلام مادحا له ولحدبته بمثل قوله:

قسما بحسن قوامك الفتان ... يا أوحد الأمراء في الحدبان
يا مشبه الغصن الرطيب إذا انثنى ... من حدبتيه يميس بالرمان
يا مخجلاً شكل الهلال بقده ... حاشاك إن تعزري إلى نقصان

ويستمر في تحسين حدبته، فهو صاحب رِدْفَيْن، وهو جمل جليل السنَّام، بل هو كالعود الأحدب المطرب. ويرد طيف الخيال عليه: لا فضَّ الله فاك، ولا أقال من سيف الحسبة قفاك. وكان الحاسب رجل شرطة وقانون. فهو يتمنى أن يظل سيفه مسلطًا على قفاه. ويغني طيف الخيال بأبيات يستقبل بها النظارة من الحاضرين، ويذكر أنه جاء مصر من الموصل زمن الظاهر بيبرس حين أمر في سنة ٦٦٦ بتحريم المنكرات وإغلاق

الحانات وإعدام أحد أصحابها المسمى ابـن الكـازروني بعـد تجريـسه في الطرقـات وفي عنقه دِنّ نبيذ أو نباذية. وإلى ذلك يشير طيف الخيال، إذ يقول ابن دانيال على لسانه:

خفيف الأذى إذ كان في شرعنا جلدا — لقد كان حد السكر من قبله صلبه
ألا تب فإن الحد قد جاوز الحدا — فلما بدا المصلوب قلت لصاحبي

والتورية واضحة في كلمة "جاوز الحد" إذ لا يريد المعنى المتبادر من مجـاوزة الـشيء لحده وإفراطه، وإنما يريد مجـاوزة الحـد الـشرعي في العقوبـة. ويتوقـف طيـف الخيـال الأحدب ليرثى إبليس وغواياته ويندب تحطيمَ أواني الخمـر ودِنانـه ونـدمانها وسـقاتها بمثل قوله:

مات – يا قوم – شيخنا إبليس — وخلا منه ربعه المأنوس
والقناني به تكسرن والخمار — من بعد كسرها محبوس
وذوو القصف ذاهلون وقد كادت — على سيلها نسيل النفوس
والحرافيش حولها يتباكون — بنار تراع منها المجوس
وقضيب ونرجس وسعاد — باكيات ونزهة وعروس

والمرثية طويلة، واكتفينا منها بهذه الأبيات لتدل على ما تموج به مـن هـزل ودعابـة. ويذكر طيف الخيال أنه جاء إلى مصر يبحث عن أخيه الأمير وصال. وهو أمير مزيـف، ويظهر أخوه، ويطلب الأمير كاتبه، ويحدِّثه في توقيعات وودائع، ويـأمره بكتابـة تقليـد بولاية، تدليسا وافتراء. ويلقب الكاتب طيف الخيال بلقب صُرَّبَعْـر انتقامـاً منـه حـين هزئ به، في مقابل لقب لشاعر بغدادي مشهور يسمى صُرَّدُرّ. ويذكر وصال لأخيه أنـه قد عزم على ترك الخلاعة والمجون والتوبة إلى الله والعمل بعمل أهل الـسنة والجماعـة، بادئا بالزواج. وتبدأ مشاهد التمثيلية من حين هذا اللقـاء بـين وصـال وأخيـه وتـدور

حول مشكلة الخاطبة في الحقب الماضية وما كان ينشأ عنها من أغلاط في تبين حقائق العروسين، فالزوج يدَّعي أنه من أمراء الموصل ومعه كاتبه وحاسبه المزيف، وحقيقته أنه بائس فقير لا يملك شَرْوَي نقير كما يقول بلسانه في التمثيلية، حين طُلب منه المهر. وقد أُطْلق البخور ورُشَّ الطِّيب على الحضور ويُنْشد:

أمسيت أفقر من يروح ويغتدي ... ما في يدي من فاقتي إلا يدي
في منزل لم يحو غيري قاعدا ... فإذا وقدت رقدت غير ممدد
وترى البعوض يطير وهو بريشه ... فإذا تمكن فوق عرق يفصد
والفار يركض كالخيول تسابقت ... من كل جرداء الأديم وأجرد
وترى الخنافس كالزنوج تصففت ... من كل سوداء الأديم وأسود
هذا ولي ثوب تراه مرقعاً ... من كل لون مثل ريش الهدهد

ومع ذلك يُزَفّ الأمير وصال على عروسه، وحين تكشف عن وجهها يصيبه الذهول لهرمها وقبحها المتناهي، وينادي على الخاطبة وتأتيه ويشكو منها. وينشد طيف الخيال على لسانه شكوى مرة من زوجته. ويصور ما يتعاطاه من الحشيش وما يرسم له من الخيالات والأوهام، حتى ليرى وجهه في زير مملوء ماء فيظن به لصا إذ يراه يعبس ويضحك مثل عبسه وضحكه، فيحطمه حطما. وتموت الخاطبة وينوح عليها زوجها بمثل قوله:

ساعدوني بالنوح والتعديد ... بعد فقد العجوز أم رشيد
هلكت آخر الليالي السود ... يا ليالي الوصال بالله عودي

والتمثيلية تزخر بالمواقف المتناقضة كما تزخر بهذه الروح الفكهة، ويتخللها الغناء والرقص ويطَّرد فيها التسلسل، وشخوصها في غاية الوضوح. وهي تصور جوانب

كثيرة من الحياة الاجتماعية والسياسية وعلاقات الرجال بالنساء وعلاقات الشعب بحكامه في تلك الحقبة. وما زال ابن دانيال يمتع أهل القاهرة بتمثيلياته الهزلية وفكاهاته التي كانت تدور في أفواه الناس حتى وفاته سنة ٧١٠ للهجرة.

عامر[٨٧٤] الأنبوطي

يقول الجبرتي في ترجمته: "شاعر مفلق هجاء" ويقول إنه كان يقيم في بلده ويلم بالقاهرة من حين إلى حين فيزور العلماء والأعيان، وكلما رأى قصيدة مشهورة سائرة قلبها وزنا وقافية إلى الهزل والطبيخ، فكان الشيوخ والشعراء يتحامونه ويكرمونه ويجزلون له في العطاء، وكان فيه ظرف يجعلهم يأنسون لكلامه ويهشون لشعره الفكه. من ذلك نظمه لألفية في الطعام على غرار ألفية ابن مالك في النحو، استهلها بقوله:

يقول عامر هو الأنبوطي ... أحمد ربي لست بالقنوطي[٨٧٥]
وأستعين الله في الفيه ... مقاصد الأكل بها محويه
فيها صنوف الأكل والمطاعم ... لذت لكل جائع وهائم[٨٧٦]
طعامنا الضاني لذيذ للنهم ... لحما وسمنا ثم خبزا فالتقم
فإنها نفيسة والأكل عم ... مطاعم إلى سناها القلب أم[٨٧٧]
والأصل في الأخباز أن تقمرا ... وجوزوا التقديد إذ لا ضررا[٨٧٨]

---

(٨٧٤) انظر في ترجمة عامر الأ،بوطي وشعره الجبرتي ١/ ٢٤٨.

(٨٧٥) القنوطي: كلمة جلبتها القافية ولعله يريد بها البائس.

(٨٧٦) الهائم: شديد العطش.

(٨٧٧) أم: قصد.

(٨٧٨) تقمر: كلمة عامية أي تعرض على النار.

obeikandi.com

ولا ريب في أن شيوخ الأزهر وطلابه حين كانوا يسمعون منه شيئا من أشعار هذه الألفية يغرقون في الضحك إغراقا، لأنه نقل أكثر صنيع ابن مالك في ألفيته النحوية الجادة منتهى الجد إلى هذه الألفية الجديدة المضحكة غاية الضحك. ورأى أن لامية العجم للطغرائي تستولي على إعجاب الشعراء والناس منذ زمنه في القرن السادس لما تحمل من حكم وخبرات تنفع الناس في حياتهم وسلوكهم، فنظم على وزنها وقافيتها لامية في المطاعم من مثل قوله:

أناجر الضان ترياق من العلل ... وأصحن الزر فيها منتهى أملي[٨٧٩]

ولا خليل بدفع الجوع يرحمني ... ولا كريم بلحم الضان يسمح لي

طال التلهف للمطعوم واشتعلت ... حشاشتي بحمام البيت حين قلى

أريد أكلاً نفيساً أستعين به ... على العبادات والمطلوب من عملي

وكانت لابن الوردى الشامي المتوفى سنة ٧٤٩ قصيدة لامية جعلها جميعا حكما وأمثالا، طارت شهرتها بين معاصريه ومن خلفوهم فصاغ على وزنها لامية حكمية في الطعام، يقول فيها:

اجتنب مطعوم عدس وبصل ... في عشاء فهو للعقل خبل

وعن البيضاء لا تعن به ... تمس في صحة جسم من علل

واحتفل بالضان إن كنت فتى ... زاكي العقل ودع عنك الكسل

من كباب وضلوع قد زكت ... أكلها ينفي عن القلب الوجل

---

(٨٧٩) أناجر: جمع أنجر ويطلق في العامية على أواني الطعام وطهيه الكبيرة.

obeikandl.com

وطعام العدس والصل وكذلك البيصار من الأكلات الشعبية المصرية، وهـو ينهـي عن أكلها ويدعو إلى أكل لحم الخرفان الضاني وما يتخذ منه من طعام الكباب واللحـم المشوي.

وكان عامر بهذه الأشعار ومـا يماثلهـا يطـرف معاصريـه في القـاهرة ويـسرَّي عـن نفوسهم بهزله ويجعلهم يستغرقون في الضحك، بما يعرض علـيهم في أشـعاره الفكهـة من أصناف الأطعمة وألوان الحلوى، مع إكثاره من دعاء ربـه أن يُنيلـه "كبابـا" ودواء من الحلوى والخشاف. وما زال ذلك دأبه في أشعاره حتى توفي سنة ١١٧٣ للهجرة.

obeikandl.com

٦

شعراء شعبيون

ليس معنى هذا العنوان أن شعراء مصر لهذا العصر ينقسمون إلى شعبيين وغير شعبيين، فشعراؤها جميعا كانوا شعبيين إذا أردنا من نشأوا في بيئات شعبية ولم يكونوا من أبناء القصور أو من الطبقات الأرستقراطية. ونستطيع أن نستثنى فقط تميم بن المعز أول خلفاء الدولة الفاطمية بمصر، فهو وحده الذي نستطيع أن نقول عنه إنه نشأ في ترف ونعيم، أما بعد ذلك فالشعراء كانوا من أبناء الشعب، وكثيرون منهم كانوا من طبقته الدنيا التي تمتهن الحرف والصناعات، بل هم أنفسهم كانوا يمتهنون تلك الصناعات والحرف على نحو ما مر بنا في حديثنا عن ظافر الحداد وأنه نشأ حدادا، وتفجر ينبوع الشعر على لسانه، فترك عالم الحدادة إلى عالم الشعر والفن. ويلقانا كثيرون من هؤلاء الشعراء المحترفين حرفا متنوعة مثل الجزار والوراق ومجاهد الخياط والحمامي الذين عرضنا لهم في حديثنا عن شعراء الفكاهة.

ومعنى ذلك أننا لا نريد أن نتحدث عن شعبية شعراء العصر بهذا المعنى من نشأتهم في الأوساط الشعبية، فهي نشأة مشتركة تجعلهم جميعا شعراء شعبيين، إنما نريد معنى أدق من ذلك معنى يتصل بلغة طائفة من شعراء مصر في العصر رأوا أن ينظموا بلغة الحياة اليومية حتى يصلوا مباشرة إلى التأثير في الناس باستخدام العامية لغتهم في التخاطب اليومي. وكانت قد نشأت في البلاد العربية فنون شعرية عامية، هي الزجل أنشأته أو استحدثته الأندلس، والمواليّا استحدثه أهل واسط بالعراق، والكان وكان

obeikandi.com

استحدثته بغداد ومثله القوما. وسرعان ما شاعت هذه الفنون في العالم العربي وخاصة الزجل والمواليا.

والزجل أنواع منه ما يسمى بالاسم الأصلي وهو الزجل ويختص بالغزل والنسيب والخمر والطبيعة، ومنه ما سَمَّته مصر بُلَّيْقًا وجمعته على بلاليق، وهو ما تضمن الغزل أو الخلاعة والأحماض، ومنه ما سُمِّى قَرْفيًّا وهو ما تضمن الهجاء أو الهزل، ومنه ما سُمِّى مكفَّرًا وهو ما تضمن المواعظ والحكمة، وكأنهم اشتقوه من تكفير الذنوب. ومرَّ بنا أن الشريف العقيلي في القرن الخامس كان يختم كل قافية من قوافي ديوانه بأبيات مكفرة لما قدم في القافية من مجون.

وأخذت مصر منذ القرن السادس الهجري تشترك في صنع الزجل بأنواعه السابقة، وأخذت تلَّطف أساليبه وأوزانه حتى بلغت فيه غاية لا تكاد تدرك، وكما أقبلت على الزجل بالمعنى العام أقبلت على البُلَّيق وهو زجل هزلي ويقول ابن سعيد في منتصف القرن السابع الهجري: "كان بالفسطاط جماعة يصنفون البُلَّيق، وهو على طريقة الزجل الأندلسي، منهم ساكن البُلَّيْقي، ومن بُلَّيقانه:

بسى من الدين الثاني	نرجع لديني الحقاني
نرجع لديني الأول	عن النسا لس نتحول
إن كنت فِ ذا تتقول	اصفع وقطع آذاني

وهذا من الطراز العالي في هذا الفن، وهو عنوان كاف عن غيره".(٨٨٠) واشتهر في القرن السابع ابن دقيق العيد ينظم البلاليق(٨٨١) وممن اشتهر في القرن الثامن بصنع

---

(٨٨٠) المغرب (قسم الفسطاط) ص٣٦٥.

البلاليق زين الدين القوصي وقد روي له ابن احجر بُلَّيْقًا(٨٨٢) ومثله سراج الدين عمر بن مولاهم، وقد روي له ابن تغري بردي بُلَّيقا(٨٨٣) هزليا رقص به منشدوه بين يدي السلطان حسن، وفيه يقول:

من قال أنا جندي خلق	فقد صدق
عندي قبا من عهد نوح	على الفتوح(٨٨٤)
لو صادفوا شمس السطوح	كان احترق

وقد أشار بقوله: "أنا جندي خلق" أي هرم إلى يَلْبُغا مملوك السلطان وكان واقفا بين يديه، وأغرق السلطان في الضحك واستعاد البُلَّيق مرارا. وبجانب البلاليق تلقانا أزجال كثيرة في هذا العصر، من ذلك مطلع زجل رواه صفي الدين الحلِّي، وكان قد نزل القاهرة في العقد الثالث من القرن الثامن الهجري، وهو يجري على هذا النمط:(٨٨٥)

من نعشقوا سيد الملاح في خدو ما	ونار طرزوا من زانوا بالعذار
عرضت لو بالالتماح صار دوكالبهار(٨٨٦)	وتبدل لونو بالصفار

---

(٨٨١) انظر بعض بليقات ابن دقيق في الطالع السعيد ص٣٢٧.

(٨٨٢) الدرر الكامنة ٣/ ١٤.

(٨٨٣) النجوم الزاهرة ١٠/ ٣١٧–٣١٨.

(٨٨٤) القبا: ثوب يلبس فوق الثياب أو يتمنطق عليه.

(٨٨٥) العاطل الحالي لصفي الدين الحلي نشر ولهم هونرباخ بألمانيا ص٢٧.

(٨٨٦) البهار: زهر أصفر.

obeikandi.com

وأنشد زجلاً مصرياً كاملاً، قال: سمعته للمصريين، وهو يصور خفة روحهم ورقتهم ولطفهم وظرفهم، ومما جاء فيه:(٨٨٧)

لس غريب من فارق أوطانوا أو بعد عن ناظرو المحبوب
إلا من دارو قبل دارو والحبيب عن ناظرو محجوب
حبي عني حجبوه أهلو وأسرفوا في جمع حفاظو
والرقيب قد غيبوا عني حتى عنى قيد ألفاظو
كل يوم لأجلو يغيظ قلبو رب غيظ قلب الذي غاظو
ما خطر إلا وهو خائف أو عبر إلا وهو مرعوب
لس نطيق نلفظ معو لفظه لا ولا نرسل إليه مكتوب
ريت حبيبي في الرياض يمرح بين أقرانو وأترابو
قلت قد صح المثل فينا من لقى أحبا بونسي آصحابو
قال لي قد ضجت بنا أعدانا ورمونا قلت ما صابوا

والزجل يسيل رقة ونعومة وعذوبة. وقد روى صاحب خزانة الأدب قطعة من زجل ابن القماح في وصف النرجس.(٨٨٨) ولما توفي السلطان الأشرف شعبان سنة ٧٧٨ حزن الناس عليه حزنا عظيما ورثاه الشعراء بعدة قصائد، كما رثاه الزجالون ومن قول أحدهم:(٨٨٩)

كوكب السعد غاب من القلعة وهلالو قد انطفا بأمان
وزحل قد قارن المريخ لكسوف شمس الضحى شعبان

(٨٨٧) العاطل الحالي ص١٠٩.
(٨٨٨) خزانة الأدب ص٢١٩.
(٨٨٩) النجوم الزاهرة ١١/ ٨٣.

obeikandl.com

ومن أطرف الأزجال المصرية لعهد المماليك زجل نشرته قديما بمجلة الثقافة[٨٩٠] نظمه زجال مصري في رثاء الفيل مرزوق، وهو فيل كان قد أهداه تيمور لنك في أوائل القرن التاسع الهجري إلى سلطان مصر، وتصادف أن الغلمان الموكَّلين به ساروا معه نحو بولاق ورجعوا مجازفين به على قنطرة ضعيفة فوق ماء، فانخسفت به ولم يقدر أحد على إنقاذه ومات، وخرج الناس زمرا يتفرجون عليه، وأنشأ فيه بعض الزجالة مرثية بديعة، وفيها يقول على لسان زوجته باكية له نادبة:

سهم الفراق قد صاب قلبي	يا مسلمين
ونا غريبة هندية	قلبي حزين
وعيطت حتى أبكت	جيرانها[٨٩١]
من نارها صارت تلطم	بودانها[٨٩٢]
حتى الزرافة جاءتها	متحسرة
تبكي على الفيل اللي مات	في القنطرة

وكانت لدى هذا الزجال روح فكهة ولفتات ذهنية بديعة، إذ جعل زوجة الفيل هندية كما جعلها تلطم "بودانها" أو آذانها، واختار الزرافة لتساعدها في حزنها لما يبدو عليها دائما من تأمل وحزن كأنما ضاع منها شيء. ويبدو أن الزجل ازدهر حينئذ بمصر. وفي دار الكتب مجلد نفيس لأحمال زجل مصرية مطبوع بباريس.

---

(٨٩٠) مجلة الثقافة: العدد رقم ٣٧١ لسنة ١٩٤٦.

(٨٩١) عيطت: بكت.

(٨٩٢) ودانها بالعامية: آذانها.

obeikandl.com

وتظل الأزجال حية في الحقبة العثمانية ومثلها المواليا، وهي الفن الشعبي العامي الثاني الذي استكثر منه المصريون ومعروف أنه يخرج من بحر البسيط، ونجده في ديوان الفارض الصوفي، واشتهر به في عصر المماليك أبو بكر بن العجمي عين كتاب الإنشاء في مطلع القرن التاسع الهجري وكان إمام فن المواليا(٨٩٣) لزمنه وضروبه المتشعبة، ومن مواليته:

للحب قالوا معناك الذي اذبلتو　　جدلو بقبله فقلبو فيك خبلتو
فقال أقسم لو أن البوس سبلتو　　ومات، للشرق مادرتو وقبلتو(٨٩٤)

وتظل المواليا حية في أيام المماليك وأيضا في أيام العثمانيين. وكانت تتوزعها منذ القرن السابع الهجري الأنواع التي مرت في الزجل وهي: البُلَّيق: وموضوعه الغزل وقد تصحبه الخلاعة، وأنشد الجبرتي من أمثلته الغزلية البارعة قول الشيخ الشمس الحفني الشافعي الخَلْوتي:

خطر على غزالي مر ما اتكلم　　فوق جفونه وقلبي والحشا اكلم
إيش كان يضره إذ بالراس لي سلم　　حتى أسر مهجتي لولا السلام سلم

والنوع الثاني القَرْفيا وينظم في الهزل والفكاهة وما يتصل بهما ويسوق الجبرتي منه مثل قول حسن شَمَّه.

قوال تحب المدمس؟ قلت بالزيت حار　　والعيش الأبيض تحبه قلت والكشكار

---

(٨٩٣) خزانة الادب ص٤٣.

(٨٩٤) درتو: كلمة عامية أي أدرته. وفي قبلتو تورية لأنها قد تكون من القبلة بضم القاف وهو المعنى المتبادر لسبقها بكلمة البوس، وقد تكون من القبلة بكسر القاف أي ما أدراه نحو القبلة بعد موته وهو المعنى المراد.

obeikandl.com

قالوا تحب المطبق؟ قلت بالقنطار قالوا إش تقل في الخضاري قلت عقلي

والفول المدمس طعام شعبي لأهل مصر ومثله الكشك، والمطبق نوع من الرقاق محشو بالنقل والسكر، أما الخضار فمن طيور البحيرات. والنوع الثالث من المواليا المكفَّر وينظم في الحب الإلهي والمديح النبوي والمواعظ وفي ديوان ابن الفارض منه أمثلة متعددة. ويسوق منه الجبرتي قول الشيخ شمس الحفني أو الحفناوي وهو مواليا يمكن قراءتها معربة على هذا النمط.

بالله يا قلب دع عنك الهوى واسلم من كل ميل ووافي عهدهم أسلم

والزم حمى سادة من أمهم يسلم واسلك سبيل التقى يوم اللقا تسلم

ويقول صفي الدين الحلي إن القوما خاصة بسحور رمضان من قول المغنين في آخر كل بيت فيها "قوما قوما للسحور". أما الكان وكان فالشطر الأول من البيت فيه غالبا يكون أطول من الشطر الثاني وهو خاص بالحكايات والخرافات والمراجعات فكأن قائله يحكي ما كان وكان. ويقول إن فن القوما وكذلك فن الكان وكان لا يعرفهما سوى أهل العراق.(٨٩٥) ويحكي ابن تغري بردي منه منظومة في وقعة قوصون ساقي الناصر بن قلاوون وما كان من قتله، وهي تستهل على هذا النمط:(٨٩٦)

من الكرك جانا الناصر وجب معه أسد الغابة

ووقعتك يا أمير قوصون ما كانت الا كدابه

(٨٩٥) العاطل الحالي ص١٤٨، ١٧١، ١٧٢.

(٨٩٦) النجوم الزاهرة ١٠/ ٤٨.

obeikandi.com

ويبدو أن المصريين حاكوا فن القوما العراقي أيضا، إذ نرى الجبرتي في الحقبة العثمانية يتوقف مرارا ليقول إن هذا الشاعر أو ذاك كان ينظم في الزجل والقوما والكان وكان والمواليا والبُلَّيق.(٨٩٧) ونقف قليلا عند بعض أصحاب هذا الشعر الشعبي العامي.

إبراهيم(٨٩٨) المعمار

هو جمال الدين إبراهيم بن علي المعمار، يقول فيه صاحب فوات الوفيات: "إبراهيم الحائك وقيل المعمار وقيل الحجار عامي مطبوع تقع له التوريات المليحة المتمكنة لاسيما في الأزجال والبلاليق" ويقول الصفدي: "عامي مطبوع تقع له التوريات المليحة المتمكنة المطبوعة الجيدة ولاسيما في الأزجال والبلاليق، بحيث إنه في ذلك غاية لا تدرك، أما المقاطيع الشعرية فإنه يقعد به عنها مراعاة الإعراب وتصريف الأفعال" ويقول ابن تغري بردي: "كان ذكي الفطرة قوي القريحة لطيف الطبع" ويقول ابن حجر: "كان يلزم القناعة ولا يتردد إلى أحد من الأكابر إلى أن مات في الطاعون سنة ٧٤٩ ومن قوله فيه قبل موته.

قبح الطاعون داء ... فقدت فيه الأحبة
بيعت الأنفس فيه ... كل إنسان بحبه

---

(٨٩٧) انظر الجبرتي ١/ ٢٩٠.

(٨٩٨) انظر في المعمار وترجمته وأشعاره فوات الوفيات ١/ ٥٥ والنجوم الزاهرة ١٠/ ٢١٢ والمنهل الصافي ١/ ١٧٤ والوافي ٦/ ١٧٣ والدرر الكامنة لابن حجر ١/ ٥٠ وتاريخ ابن إياس في مواضع متفرقة وخزانة الأدب ص٣٨٥. وله زجل ماجن في كتاب عقود اللال للنواجي.

وفي كلمة "حبة" تورية واضحة لأن الطاعون يصحبه دمَّل كبير، وله توريات كثيرة كما قال من ترجموا له، من ذلك قوله:

يا قلب صبرا على الفراق ولو رميت ممن تحب بالبين
وأنت يا دمع إن ظهرت بما يخفيه قلبي سقطت من عيني

وفي كلمة "سقطت من عيني" تورية إذ لا يريد معناها القريب وهو تحدر الدمع من عينه وإنما يريد معناها المعروف في العامية إلى اليوم وهو أنه ضاع ولم تعد له مكانة.

وكان الناصر بن قلاوون يألفه ويقربه منه لطرافة توريات وله في زوجته مداعبا:

لما جلوا عرسي وعاينتها وجدت فيها كل عيب يقال
فقلت للدلال ماذا ترى؟ فقال: ما أضمن إلا الحلال

والدلال: جالب العروس، ولكلمة الحلال معنيان: ضد الحرام والمباح. ومن توريات مداعبا بعض من أمر بصفعه، فحتى في هذا الموقف يفزع إلى التورية قائلا:

ما كان صفع بالرضا لكنه من خلف أذني
لولا يد سبقت له لأمرته بالكف عني

وفي البيت الأول تورية في كلمة "من خلف أذني" إذ تحمل معنيين هما القفا موضع الصفع وعدم الاكتراث. وفي البيت الثاني تورية في كلمة "يد" إذ لها معنيان هما النعمة والصفع باليد، وبالمثل لكلمة "الكف" معنيان هما: الانصراف عن الشيء والصفع بالكف. ومن توريات:

وخادم يعلو على عشاقه برتبة من الجمال نالها
واسمه – وهو العجيب – محسن وكم دموع في الهوى أسا لها

وفي كلمة "أسالها" تورية إذ تحمل معنى قريبا هو إسالة الدمع ومعنى بعيدا من الأسى وهو الحزن كأنه يرق لمحبيه حين يرى دموعهم ويحزن لهم. ومن لطائف توارياته:

ما مصر إلا منزل مستحسن فاستوطنوه مشرقاً أو مغربا
هذا وإن كنتم على سفر به فتيمموا منه صعيداً طيباً

وقد اقتبس الشطر الأخير من الآية القرآنية: (فتيمموا صعيدًا طيبا) وهو لا يريد معنى الصعيد في الآية وهو وجه الأرض وإنما يريد صعيد مصر ووجهها القبلي، وهو تورية بديعة، ومن ذلك قوله:

حزن الخزان لما أن رأى نيلنا قد عم سهلاً وجبل
ورأى الأرض لنا قد أخرجت سنبلات ذات حب فاختبل
وبكى إذ ردمت أعينه زادها الله عروقاً وسبل

والسبل: داء يصيب العين بغشاوة كأنها نسج العنكبوت بعروق حمر، وهو لا يريد هذا المعنى فهو لا يريد الدعاء على الخزان وإنما يريد الدعاء لأرض مصر ونيلها وأن تزيد عروق قمح وسبل كما تقول العامة أو سنبلات. ومن توارياته:

شهر الصيام تولى فراقه يوم عيدي
فقيل شيع بست فقلت أيضاً وسيدي

وكلمة "ست" لها معنيان معنى قريب هو الأيام الستة البيض التي تصام نفلا بعد رمضان، ومعنى ثان هو السيدة، وقد وجه العبارة إلى هذا المعنى كما يشهد بذلك الشطر التالي. ولم تعن كتب الأدب والتراجم برواية شيء من بلاليقه. ومن مواليا ته:

مزجت يوماً مع الحب الرشيق القد وقلت آهي على من قبلك في الخد

obeikandl.com

فسل سيفو من أجفانو لقتلي حد　　قلت انتهى الأمر يا حبي لهذا الحد

وفي كلمة "الحد" الأخيرة تورية إذ لها معنيان: العقوبة مثل كلمة الحد السابقة، والنهاية المفرطة. ومن مواليا ته أيضا:

رمى، أصاب صميم القلب زين الزين　　وأصبحت مضني قلق أخشى حلول الحين

وكنت قبل خلي لم أشك وشك البين　　سالم من العشق حتى صابني بالعين

ولكلمة "صابني بالعين" معنيان هما الحسد، وإصابة المحب لمحبوبه بعينه وسهامها القاتلة. وله مواليات وأشعار مفحشة كثيرة كان يقولها تظرفا لأهل زمنه.

الغُباري(٨٩٩)

هو خلف بن محمد الغُباري عاش في القرن الثامن الهجري، وكان فقيها وعالما وأديبا وشاعرا ينظم الشعر الفصيح ولكنه اشتهر بنظم الزجل. ونرى السلاطين منذ الناصر بن قلاوون يقربونه منهم، كما نراه ينظم أزجالا مختلفة في أحداث مصر، ولا يعرف تاريخ وفاته، ويقال إن مئذنة المسجد بقلعة الجبل سقطت عليه فمات ودُفن تحت أنقاضها، وهو يعد أستاذ فن الزجل لزمنه، فعنه تلقاه كثير من المصريين، ويبدو أنه نظمه في موضوعات كثيرة: في المديح والرثاء والأحداث السياسية، ومن زجل له في مديح السلطان شعبان (٧٦٤ – ٧٧٨هـ) وكان محبوبا من رعيته:

حب قلبي شعبي موقف رشيد　　وجمالو أشرق ومالو حدود

وأبوه الحسن وعمه الحسين　　وارث الملك من جدد لجدود

---

(٨٩٩) انظر في الغباري تاريخ ابن إياس في مواضع متفرقة من القرن الثامن الهجري، وراجع زجلاً له في عقود اللآل للنؤاجي ص٢٥٥ وكتاب "الزجل والزجالون" لأبي بثينة ص٢١.

obeikandl.com

زعق السعد بين يديك شاويش فرح القلب بعد ما كان حزين
ونصب لك كرسي على المملكة وظهر لك نصره بفتحو المبين
والعصايب من حولك اشتالت – خفت في الركوب عليك – البنود
فاحكم احكم في مصر يا سلطان فجميع الجنود لحسنك جنود

والشاويش: رتبة عسكرية، ويريد الغباري أن السعد مثل بين يدي السلطان شعبان مؤتمرا بأمره، ويقول إن العصابات أو جماعات الفرسان والرجالة اشتالت أي رفَعَت البنود والأعلام كناية عن أنه أصبح في مصر صاحب الأمر والنهي والسلطان. ونراه متصلا بابنه السلطان على (٧٧٨ – ٧٨٣هـ) ناظما الأزجال في الأحداث الكبرى لأيامه، من ذلك زجل طويل نظمه في وقعة العربان بالبحيرة القريبة من الإسكندرية، وفي مطالعه يقول:

جا الخبر يوم الأربعا بانو في ليلة الأحد
جا دمنهور عرب خدوا سوقها وأخربوا البلد
وابن سلام أميرهم هو الذي للجميع حشد
فبرز أيتمش سريع بمماليك وجند نوب
وعدد مالها عدد ويطلبوا لهم طلب
حضروا ما التقوا أحد من جميع العرب حضر

وله وراء ذلك أزجال كثيرة في النصائح والوصايا والحكم، ولعلها أروع مما أنشدناه، إذ كانت تفصل من روحه ومن خبرته بالحياة، وكأنما يريد بها إلى حسن التربية وإحكام السلوك والانتفاع بخبرة الآباء والأسلاف وتجاربهم في الحياة، من مثل قوله في زجل طويل:

في الناس رأينا للخير معادن — والدر يوجد في كنز مثله
وإن رمت جوهر في الشخص مكنون — فجوهر الشخص حسن فعله
وإن كان تريد صحة المعاني — وشترح ما في البيان محرر
خد فرع بإيدك من أصل حنظل — وأزرع جذوره في أرض عنبر
واسقيه بماء بان ورد ممزوج — وعقد جلاب وحل سكر(٩٠٠)
وحين تشوفه عقد ثماره — وآن أوانه نحل فصله
ذوقه تراه مر والسبب فيه — ما يرجع الفرع إلا لأصله

ولغة هذا الزجل تختلف عن لغة الزجلين السابقين، فهي أكثر خفة وقربا من اللغة العامية المصرية، وليس ذلك فحسب فهي تكتظ بالصور والأخيلة البديعة، وكأننا بإزاء شاعر بارع يحسن تأليف الصور وإيرادها في موضع البراهين الساطعة، ومن طريف حكمه ووصاياه في هذا الزجل نفسه قوله ناصحا صادقا:

لا تحتقر أي ابن آدم — في طول حياتك ولا تذمه
كم حي خامل تقول عليه — ما يعرف اسم البهيم من اسمه
وأن جيت صاحبته في يوم يبان لك — تظهر معارفه وينجلي علمه
ويشبه الروض حين يبدو شوكه — والورد مستور من تحت سله
والبحر تلقى الرمم تعوم به — والدر غايص مخلوط برمله

وهي وصية نفيسة أن لا يبادر الإنسان إلى الحكم حكما سريعا على شخص دون تبين حقيقته ومعرفة جوهره، والسَّلُّ في العامية: الشوك. وبمثل هذا الزجل كان الغباري إمام فنه في زمنه غير مدافع.

---

(٩٠٠) البان: شجر مقدود الأغصان تشبه به الحسان. والجلاب: ماء الورد والزهر.

obeikandl.com

ابن[٩٠١] سودون

هو علي بن سودون أكبر شخصية شعبية فكهة في القرن التاسع الهجري عُنى في بواكير حياته بحفظ القرآن الكريم وتحصيل العلوم والمعارف حتى أصبح شيخا فقيها، وعُيِّن إماما بأحد المساجد في القاهرة، وكان فيه ميل متأصل إلى الفكاهة والهزل وقدرة على نظم الأشعار الهازلة الفكهة، فشغف الناس به، وتنافسوا في رواية أشعاره ودعاباته. ولم يلبث أن عُنى بجمعها وأضاف إليها بعض حكايات فكهة مكونا من ذلك كتابه أو ديوانه: "نزهة النفوس ومضحك العبوس" وجعله في خمسة أبواب: الباب الأول في القصائد والتصاديق، ويقصد بالتصاديق مقدماتها وهي قصائد نُظمت بالفصحى، والباب الثاني في الحكايات الملافيق وواضح من اسمه أنه أقاصيص قصيرة، والباب الثالث في الموشحات الهبالية كما يقول وهي بالعامية ومثل هذا الباب باب الزجل والمواليا التالي فهو أيضا عامي اللغة. أما الباب الخامس فجلعه للطرف العجيبة والتحف الغريبة، وكأن البابين الثالث والرابع هما الخاصان بالشعر الشعبي العامي وإن كانت العامية عنده تتسرب إلى الباب الأول: باب القصائد، ومن الطريف أن عاميته شعرا ونثرا تقترب جدا من عاميتنا الحديثة، وقد يكون في ذلك ما يشير إلى أن مصر بلد محافظ. وبدون ريب يصور ابن سودون في كتابه مزاج المصريين الفكه. وفكاهته تقوم

---

(٩٠١) انظر في ابن سودون شذرات الذهب ٧/ ٣٠٧ ومقالين لنا في تحليل ديوانه بمجلة الكاتب العددين رقم ١٠، ١٢ وراجع كتابنا الفكاهة في مصر ص٦٧ وديوان نزهة النفوس ومضحك العبوس مطبوع في القرن الماضي وطبع حديثاً.

obeikandl.com

على ضروب من المفارقة المنطقية. تجعلك تشعر بغير قليل من فقدان التوازن على شاكلة قوله في وصف الربيع وجمال طبيعته:

إن الربيع أرى الأهواء تلويني ... لما بدا زهره في حسن تلوين
قد عطر الأرض نشر الفول حين سرت ... نسيمة سحرا منه تحييني
كأن زهرته أم الخلول إذا ... فلقتها فوق نعناع بصحنون
وكاد يشبه تاج القمح بامية ... لولا شعور كأعراف البراذين[٩٠٢]
واعجب من الماء وسط البحر كيف غدا ... يمشي بلا قدم سحبا على الطين
مسلسلاً قد جرى يا صاح منطلقاً ... فاعجب لمن جمع الضدين في حين

ومن يراه يتحدث عن الربيع والزهر في البيت الأول يظن أنه سيستمر في الحديث عن الجمال الهاجع في الطبيعة وأزهارها وورودها ورياحينها، وإذ هو يسقط به إلى النشر الفائح من نبات الفول وإلى زهره الذي يشبه صَدَفة أم الخلول التي يَطْعمها المصريون واضعين على الخلول النعناع والبهارات. أما القمح فتشبه سنابله البامية: الخضار المعروف، لولا ما يتدلّى من سنابله من شعور كأعراف البِغال والخيل. ويعجب عجبا لا حد له من جريان الماء على الطين، ويسمى الماء مسلسلا إذا جرى منحدرا. ويستغل الكلمة ابن سودون إذ لها هذا المعنى ومعنى ثان من السلسلة بمعنى مقيدا بالسلاسل.

ونحن في أثناء ذلك كله نضحك، لما أصاب توازننا المنطقي من اختلال، وكأنما الأشياء تهوي أمامنا من حالق. ومن ذلك قوله:

بقرا تمشي ولها ذنب ... عجب عجب هذا عجب
يبدو للناس إذا حلبوا ... ولها في بزيزها لبن

(٩٠٢) البراذين: جمع برذون وهو البغل.

الكرم يرى فيه العنب ... من أعجب ما في مصر يرى
أيضاً ويرى فيه رطب ... والنخل يرى فيه بلح
في البحر بحبل تنسحب ... والمركب مع ما قد وسقت
والوزة ليس لها قتب ... والناقة لا منقار لها

وحين نقرأ قوله عجب، نظن أنه سيعرض علينا بعض العجائب فإذا هو يعرض بديهيات غاية في البداهة، في صورة مغرقة من التباله. ونحس كأن عُدْوانا أصاب منطقنا أو وقع عليه، فالبقرة تمشي ولها ذنب وضرع مملوء لبنا، وشجر الكرم يحمل العنب، وعلى النخل البلح بُسْرا ورطبا، والملاحون يجُّرون بحبالهم المركب الموسوق، والناقة لا منقار لها وكأنه كان يظنها بجسمها الضخم من الطير، ويظن الإوزة من الإبل تمشي على أربع، ويتساءل عن قتبها أو رحلها. وكل هذه مفارقات تعتدي على منطقنا فنفقد توازننا ونستغرق في الضحك لهذا الهزل الذي يُلْغَى فيه المنطق السديد إلغاءً.

ومن طريف هزل ابن سودون ومفارقاته المنطقية المتناهية في الإضحاك. وصفه لحفل زواجه وقبح زوجته على هذا النمط.

حل السرور بهذا العقد مبتدرا ... ونجم طالعه بالسعد قد ظهرا
و"الفل" كلل وجه الأرض فانعطفت ... أغصانه بالتهاني تنثر الزهرا
والطير من فرحها في دوحها صدحت ... بكل عود عليه لا ترى وترا
تقول في صدحها: دام الهنا أبدا ... على العرايس كي يقضوا به الوطرا
هذا وعقل عروسي كان أصغر من ... عقلي ولكن حوت في عمرها كبرا
وفي السن قد طعنت ماضر لو طعنت ... بالسن من رمح أو سيف إذا بترا
في وجهها نمش في أذنها طرش ... في عينها عمش للجفن قد سترا
يا حسن قامتها العوجا إذا خطرت يوماً ... وقد سبست في جيدها شعرا

تظل تهتف بي: حسنا حظيت بها　　أواه لو حاسها موت لها قبرا

وهو في أوائل الأبيات يجعل السعد رفيقا له كما يجعل الطبيعة ترقص طربا لزفافه على عروسه، فالأشجار تنثر أزهارها فرحا والطير تصدح على أعوادها داعية للعروسين بدوام الهنا أبدا. ونفاجأ بعد ذلك بمفارقة منطقية شديدة، فالعروس عجوز شمطاء صَمَّاء في وجهها نَمَشٌ وفي عينيها عمش وقد حَنَى قامتها الهرم. ومع كل هذا القبح تظل تهتف به أن يحمد الله على حظوته بها، ويتمنى لوُ طُعنت بسيف أو حازها الموت ودفنت في التراب إلى غير مآب.

وعلى نحو هزل ابن سودون في تصويره لحفل قرانه نراه يهزل في رثائه لأمه هزلا، يبعث على الابتسام بل على الضحك والإغراق، يقول:

لموت أمي أرى الأحزان تحنيني　　فطالما لحستني لحس تحنين
وطالما دلعتني حال تربيتي　　خوفاً على خاطري كي لا تبكيني
أقول: "مم مم" تجي بالأكل تطعمني　　أقول: "أمبو" تجي بالماء تسقيني
إن صحت في ليلة "وأوأ" لأسهرها　　تقول "هوهو" بهز كي تنينيني
كم كحلتني ولي في جبهتي جعلت　　"صوصو بنيلي" وكم كانت تحنيني
ومن فقيهي إن أهرب ورام أبي　　مسكي وبعثي له كانت تخبيني
وزغردت في طهوري فرحة وغدت　　تنثر الملح من فوقي وترقيني
وخلفتني يتيماً ابن أربعة　　وأربعين سنيناً في حسابيني

والمرثية طويلة اقتصرنا منها على هذه الأبيات وكلها على هذا النحو عدوان على ما نألف في الرثاء عامة، إذ بدلا من أن يحمل كل بيت صرخة ألم أو دمعة حزن

تتحول المرثية كلها هزلا ودعابة. وكأنما ينظمها في عيد من أعياد أمه فهو يـذكّرها بأيام طفولته وكيف كان يقول لها "مَمّ" فتأتي له بالطعام "وأمبو" فتأتي لـه بالمـاء، وكيف كان يبكي على صدرها وهي تهزه في حنان، كما يذكرها بأيام صباه، وكيف كانت تدلي من شعره تعويذة على جبهته، وكيـف كانـت تخبئـه حـين يهـرب مـن الكتّاب. ويذكّرها بيوم خِتانه وزغاريدها فيه وكيف كانت تنثر فوقه الملـح بركـة، وتَرقيه من كل شر ما يؤذيه. وكل هـذه مفارقـة شـديدة للرثـاء وموقـف المـوت الوقور الحزين، فإذا ابن سودون يهزل فنضحك ونتمادى في الضحك. وقـد جـاء في المرثية ببعض كلمات الأطفال، وهو يكثر من لغتهم في هزله كقوله:

ولما أن كبرت بحمد ربي ... وصار لمنتهى عقلي ابتداء

بقيت أقول: ننو تتو تاته ... ودحو كخ وأمبو مم آءُ

والكلمات كلها من لغة الأطفال قبل نطقهم بالكلام، ومعنـى كلمـة دح في اللهجـة المصرية العامية حسنا كلمة كخ قبيح ولا تفعل. والحق أن ابن سودون كان جَعْبَة هـزل وفكاهة، وقد بَنَى فكاهته على المفارقة المنطقية فنحس دائما بعدوانه على منطقنا ببلاهته، ونشعر كأنما الأشياء من حولنا تَهْوِي من أبراج عالية، هي أبراج المنطق والعقل الواعي، فنضحك ونسترسل في الضحك.